لجنة التأليف والترجمة والنشر



أمراء البيان

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الثاني

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٥ — ١٩٣٧

عمرو بن بحر الجاحظ

عصره

كان عصر الجاحط عصر اسىقرار وازدهار ، سنت قواعد الدوله العباسيه على عهد الرسىد وابنه المامون والمعتصم ، واطردت سياستها ، وحـ ـف سلطانها ، وعظم سانها ، ولم تكدر صفاء تلك الحقبه غير الحرب التى نسبت بين الامين والمامون ، للنزاع على ولايه العهد ، فسالت الدما فى خراسان والعراق ، وانفق الامين الاموال ، حتى اذا استقل أخوه المامون بالخلافه ، عادت الامور الى مجراها الاول فى عهد الرشيد وابيه المهدى واخيه الهادى ثم اخبات الدوله بعد عهد الواثق ، فصل المتوكل والمستعين والمعتز من خلفائهم

وكانت العلاقه السياسيه بين ملوك العباسيين وملوك غربى اوربا مثل « شارلمان و بنيه » على غايه الوئام ، يتبادل العباسيون مع ملوك الافرنج السفرا والهدايا ، ويريد بنو العباس من هـذا التلطف على العالم ان يقف الافرنج بالمرصاد لدوله الاندلس اما دوله روم القسطنطينيه ، وكانت فى خلاف مع حدثت بنى العباس الى زمن الواثق ، يغزوها فى الاحايين فيظفر ويغنم ، حتى اضطرت أن تؤدى للعباسيين جزيه سنويه

وعرف الرشيد أن دوله الامويين فى الاندلس أحدث كدولة تعرج معارج الحضاره ، وتاخذ من كل وجه باسباب القوة ، فحاذر تقدمها نحو بلاده ، ورأى أن يقيم امامها حاجزاً فى إفريقيه من دوله الاغالبه ، فمنح هذه سنه استقلال ، وقام بعض العلويين وغيرهم على عهد الرشيد ، فقاتلهم بخيره من

حنسه ، فأيقنوا أن لا سبيل إلى تحقيق رغائبهم فى قلب اوضاع الدوله ، وعادوا عما لاقوا من الجدّ فى استئصالهم يعتصمون بالتقيه ، وارجأ بقايا الشعوب منهم بثّ دعوتهم جهرةً إلى الوقت المناسب

واهم ماتم من الخير للعلم بعد القضاء على الزنادقه على عهد المهدى ، وتقطع كيدهم كتقطيع اوصالهم ، استمتاع ارباب العقول بحرياتهم ، فانشأوا يفكرون على ما يشاؤون فى نطاق الاسلام ، لا يخرجون عن رُخَصه وعزائمه ، وكثر الباحثون والدارسون ، واخذ الخلفا والامرا بايدى من انبغوا فيهم وعلمهم ، واشتد العزام بنقل العلوم المادية استمداده فى تدوين العلوم الدينيه ، وفى هذا الزمن نبغ عظما فى علوم الدين ، وعظما فى علوم الدنيا ، وعظما فى الآداب والفنون ، وعظماء فى الحروب والسياسه ، وكان كل من تفرّد بضرب من ضروب العلم والادب يلقى من الخلفا على الا كثر انواع التجله والإكرام ، ويخلع عليه كل جميل

وفى هذا الدور نبغ أئمه المذاهب الاربعه التى وقع الاكتفاء بها عند اهل السنه ، ودون مذهب مالك وابى حنيفه وغيرهما ، وتم تدوين الحديث وتدوين اللغه والشعر ، وكثر عظماء القراء ، وزاد عدد النقله من الفارسيه والسريانيه واليونانيه ، وراجت الوراقه رواجًا عظيماً ، لما بدا الملوك يجمعون خزائن الكتب فى قصورهم ، ويقيمون دُور الحكمه فى عاصمه الخلافه ، وعلى الامراء وعِليه الامه يتنافسون فى اقتفا آثار خلفائهم فى خدمه الآداب ، يُحظُون ويُعطُون كل من ينقل لهم ضرباً جديداً من المعارف وبعد ان كانت البصره والكوفه مستأثرتين بالحركه العلميه ، شاركتهما بغداد بهذا الشرف ، ثم اربت عليهما منذ وافاها اهل الفضل من الامصار ، فما هى الا اعوام قليله حتى اصبحت بغداد

مدينة علم ، وكانت من قبل مدينة ملك ، بما نُقل من صنوف العلم إلى الخلفاء وأتباعهم

وأيقن أرباب المصانع أن الدنيا لا تأتى من غير طريق الكفاية ، وأن « كل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل يؤول » فأكبوا على التأدب ، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم ، وكان إذا تفرس رب البيت فى ولده ذكاء جاء بالمؤدبين يلقنونه ما تشتهى نفسه من الآداب ، ولذا أصبح التعليم صناعة ، وحسن عيش المؤدبين ، وغدا التأدب أيضاً طريقاً إلى المجد والسؤدد ، على ما أثبتت منادمة الملوك والأمراء صناعة برأسها ، وقد بلغ سلطان النديم فى قصور العظماء ما لا يبلغه سلطان الوزراء والكتاب ، وهو ابن الخلوة والجلوة ، والمؤتمن على الحُرَم والأسرار

عمرت مجالس العلم والأدب ، وأشبهت دور الكبراء معاهد المقتبسين والأخصائيين ، يغشاها أرباب الأفكار ، وحملة الآثار والأشعار ، والعهد بعلماء البصرة يحلقون إلى المسجد والمربد ، وكان المسجديون والمربديون جماعاً من شُعب الأدب والرواية ، والعهد بالكوفة يحلف المتوررون من بنيها إلى الكُناسة مجمع الشعراء والأدباء ، ومسجدهم مجمع علمائهم ، ومغنى قرائهم ، والمنافسة بين المصرين ، الكوفة والبصرة ، فى الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر بعد مشهورة مذكورة ، وبغداد تعقد مجالسها ، وتغص مساجدها بأرباب العقول وحَفَدة الشريعة ، وقادة الفكر ، وشعراء الحضارة ، وأمراء البلاغة

وهناك مجالس اللهو تعرض فيها الموسيقاريون والمغنون فنهم ، ويتبارى أرباب النعيم والرفاهية فى اقتناء المسمعات والقيان ، وعدت الجارية التى تجد من نفسها طبيعة مواتية فى هذا الفن ، تتوفر على إتقانه ، وتلقف ما يلزم فيها

من أدب وشعر ، فجاء منهن أديبات وشاعرات ، وغدا لكل فرقة فقه ، ولكل أدب خُطّاب ، والناس يمررون طعم الحياة ، وينعمون بمباهجها ، وأصبح المسلمون ولا سيما أهل الدولة ومن والاهم ، يعيشون عن حياة التزمت والتقشف بُعدَهم عن الأمية ، وراحوا يحضرون مجالس العلماء على تصون ويعففون عالماً ، وخف الإنكار على من عرفوا بهذا الشأن ، واستباب معظم الطبقات بآلاف ذلك من غير نكير

وأثارت الزعية الأرض فعَمَرُوها ، فتضاعف الثروة ، وامتلأت خزائن الدولة بالأموال ، وزاد العمران ، وحدَّ كل عامل في ناحيته أن يبقى حاسماً من الجباية على ما يريد في ريع بلده وغلاته ، وغدا غرام معظم الخلفاء بسطم أمور الزعية ، يوازي غرامهم في دفع كل معتد على سلطانهم

وكانت البصرة ميناء العراق الكبرى من أعظم ما يكون عليه الفُرَضُ البحرية في الدول العظمى ، تبادل تجارة بلاد العرب مع موانئ المحيط الهندي حتى الصين ، وتغشاها أصناف من شعوب الشرق في آسيا وأفريقية ، والبصري كالجبري مشهور بأسفاره ومغامراته ، وأصبح البحر الرومي بحراً عربياً ، وتراجع الروم إلى موانئ بلادهم ، وغدا السلطان الأكبر فيه لأساطيل مصر والشام وأفريقية والأندلس ، واعترفت شعوب جنوبي أوربا في أيامها لا يجري لها سفين ، ولا يحمل لهم بضاعة ، والعرب بما عرف من مزاياهم على التجارة يتولون كبرها في البر والبحر ، والزراعة والصناعة على الأعم الأغلب في أيدي أبناء الذمة من السريان والعجم والقبط والبربر وغيرهم ، وبانت حدود الاختصاص بالصناعات البدنية والعلمية ، وقلَّ في الناس المتشائمون وكثر المترفون

كثر الرواج في هذا العصر لكل صناعة ولكل بضاعة ، واستوت شعوب

المملكه العباسيه أمه ذات حضاره مفرده ، وروية شخصيه ظاهره ، وكان حظ الجميع سواء فى الاستمتاع بالأمنه والسلامه ، وعلى قدر كفايه الكفء ، وإخلاص المخلص للدوله ، تخلص الناس إلى المراتب والمناصب ، وعلى نسبه عمل العاملين فى صنوف الاعمال يمسون و يسعدون ، لا يخاف الناس الا انفسهم ، ولا يُلزَمون أن يقدموا حسابهم لغير دينهم وسلطانهم ، فحضاره هذا العهد حضارة صقلها الاسلام والعربيه ، واشترك فى خدمها أهل كل نحله ومله ، ووقف كل امرئ عند حده ، ليس له ان ينكر على من ينافش الا ببرهان ، وقلما يعدى حجاج المتجادلين أبواب المجامع والجوامع والمجالس الخاصه ، وصفحات الأسفار والرسائل ، فهذا العصر هو خير عصور بنى العباس على الناس ، وفيه سَعِدَ العلم ، وسعدت البلاغه بنبوغ الجاحظ

نشأته وتعلمه

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى ، بن بنى كنانه بن خُزَيمه ، والد النضر ابى قريش ، وبنو كنانه بطن من مضر يقال لهم كنانه طابخه ، والليثى نسبه الى الليث بن بكر بن عبد مَناه بن كنانه بن خُزيمه بن مُدركه ، والى هذه القبيله ينتسب ابو عثمان الجاحظ ، وقيل انه كان مولى ابى القَلَمَّس عمرو بن قَلَع الكنانى ثم الفُقيمى فهو كنانى صليبه خالص النسب ، وكان جده فزاره أسود اللون ، وكان جمالاً لعمرو بن قلع ، وأُطلق على عمرو اسم « الجاحظ » لنتو عينيه ، ويقال له « الحَدَقى » لذلك ، وكان مشوّه الخلقة ، فكأن ما نقص من صورته استوفاه من ذكائه وعقله

ولد فى البصره حوالى سنه ستين ومائه ، وتوفى والده وهو طفل ، فلما

برعرع بعلم الخط والقراءة فى احـد كتاتيب بلده ، واخذ منذ كان يافعاً يتلقى الفصاحة سماعاً عن العرب فى المربد ، وكان المربد اشهر محال البصرة ، وبه كانت فى الإسلام مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، على مثال سوق عُـكاظ بين نخلة والطائف فى الجاهلية واتصل بعلماء فى الدين والآداب ، مثل الأصمعي ، وأبى زيد الانصارى ، وأبى عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى ، والاخفش ، والنظام ابراهيم ابن سيار البلخى ، وصالح بن جناح اللَّخمى أخذ اللغة والادب عن الثلاثة الاولين ، والنحو عن الاخفش ، والكلام عن النظام ، والحكمة عن ابن جناح

وحدَّث عن ثُمامة بن اشرس النميرى المتكلم ، ويزيد بن هارون ، والسرى ابن عبدويه ، والقاضى أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم ، والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة وروى عنه أبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى ، ومحمد بن عبد الله بن أبى الذيال ، ودعامة بن الجهم ، وابو سعيد الحسن بن على العدوى ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ، ويموت بن المزرّع ، وأبو العَينا محمد بن القاسم وقال عن نفسـه انه جلس الى ابى عبيدة والاصمعى ويحيى بن نجيم وأبى مالك وعمرو بن كركرة مع من جالس من رواة البغداديين

اولئك الذين عرفوا ممن اخذ الجاحظ عنهـم ومنهم نجَمَ ، وهؤلاء الذين أخذوا عنه الحديث وغيره ، فكان له فى كل حلقة من حلاق البصرة مذ ... ين وإذا نظرنا فى اختصاص اساتيذ الجاحظ من غير المحدثين ، نرى الاصمعى ممن جمع سنة اللغة فى الشجر والنبات والابل والشاء والوحوش وغير ذلك ، وقالوا انه كان يحفظ ثلث اللغة كما كان الخليل يحفظ نصفها وابن كركرة يحفظها كلها وصنف ابوعبيدة فى البارى والحمام والعقارب والحيات والزرع « وكان الغريب اغلب عليه وأخبار العرب وايامهم » وكان يرى راى الخوارج ، ووصفه بلديه

بانه لم يكن فى الأرص حارجى ولا حماعى اعلم بحميع العلوم منه والف ابو ريد الانصارى فى الفوس والترس والقصب والابل والوحوس ، وحلق الإنسان والمطر والنبات ، وكان هولا الثلاثه فى عصرهم « أئمه الناس فى اللغه والشعر وعلوم العرب ، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم أحد حلُّ ما فى ايدى الناس من هذا العلم بل كله » كان الاحفس الاوسط من اعلم الناس بالنحو والعربيه ، وصالح بن حناح كان ممن ادرك التابعين ، وكلامه مسمداد فى الحكمه كما قال ابن عساكر ، احد عنه الجاحظ فى بيسابور ، اما النظام ، سيح المعتزله وامام الائمه ، فقد كان من حمله ما يحفظ القرآن والتوراه والانحيل والزبور وتفسيرها ، مع كثره حفظه الاشعار والاخبار واختلاف الناس فى الفتيا ، وقد وصفه الجاحظ بقوله ان الاوائل يقولون فى كل الف سنه رجل لا نظير له ، فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو إسحق النظام وقال انه ما راى احداً اعلم بالكلام والفقه منه وقال عن نفسه انه وجد عند ادباء الكتاب كابن وهب وابن الزيات مالم يجده عند مشايخه الذين اخذ عنهم الشعر والادب ، وبهم عرف ماهيه الشعر ، وقام نحو الادب والكتابه

هذه اوجه الدراسه التى وجهت اليها مدارك الجاحظ ، وهولاء اشهر اساتذته احكم فنون الادب والاخبار واللغه والكلام والحكمه ، اى تثقف بالثقافه الراقيه لعهده ، وزاد على هذه العلوم النظريه أنه اعمل فكره فيما يعلم ، وحال الفتيان كما تعلم الاسماء ، واسع عقله للاشتغال بمسائل تهمه من الدين ، فكان صاحب مذهب رأساً ، والغالب انه كان يعرف الفارسيه وكان ولعاً بالكتب ، يكثر الاختلاف الى الوراقين فى البصره وبغداد ، يقضى فى حوانيتهم ساعات « حدث ابو هفان قال لم ار قط ولا سمعت من احب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ

حابه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين و يبيت فيها للنظر » وله وراق خاص

روى الخطيب البغدادى عن محمد بن سليمان الجوهرى قال كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل ، قال فخرجنا يوما لنتنزه ، فبينا نحن على باب جامع البصرة ننظر شيئاً أردناه ، اذ عارضت امرأة معها اوراق مقطعة ، فعرضت ذلك علينا فلم نجد فيها طائلاً ، فتركناها وانصرفنا ، وتخلف معها الجاحظ ونحن ننظره فاطال ، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً ، واخذ الاوراق وقال اسطرونى ، ومضى بها الى منزله ؛ فلما عاد اخذنا نهزأ به و نقول قرب نقطعه من العلم وافره ، وضحكنا فقال انتم حمقى والله ، ان فيها ما لا يوجد إلا فيها ، ولكنكم جهال لا تعرفون النفيس من الخسيس

نشأ الجاحظ من ابوين فقيرين ، فقيل انه روى يسجان احد أنهار البصرة مع الخبز والسمك فى صباه ، وقيل ان امه كانت تموته فى حداثته ، فجاء به يوماً تطبق عليه كراريس ، فقال ما هذا ؟ قالت هذا الذى تجئ به فخرج مغتماً وجلس فى الجامع ، و يونس بن عمران[1] جالس ، فلما رآه مغتماً قال له ما شأنك ؟ فحدثه الحديث ، فادخله المنزل ، وقرّب اليه الطعام ، واعطاه خمسين ديناراً ، ودخل السوق واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون الى داره ، فانكرت الام ذلك ، قالت من اين لك هذا ؟ قال من الكراريس التى قدّمتها الىّ

وظل دؤوب الجاحظ عميقًا فى شبابه ، واتسع فى الكهولة حتى بالمعه كتاب العباسية للمأمون ، وعلى عهده تصدر فى ديوان الرسائل ببغداد ثلاثة أيام ، ثم

(١) يقول ياقوت ان زيادان ناحيه ونهر بالبصرة منسوبه إلى زياد مولى بنى الهيثم جد يونس بن عمران بن عمران بن جميع بن يسار بن زياد

اسمعى فأعى ، وكان سهل بن هارون يقول إن بيت الجاحظ فى هذا الديوان اول بحم الكتاب واتصل بابن الزيات الوزير على عهد المعتصم فاقطعه ارضاً نعاته حَرِيب ، وكتب إليه مرة زمن المتوكل « إن امير المؤمنين يَجِد[1] بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك فى نفسه لِعِلْمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بُعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول به وموفر عليه »

ثم حثه على الفراغ من كتاب الرد على النصارى والتعجيل به اليه ، وقال « وبال مساهرتك ، وقد استطلعه لما مضى ، واستسلفه لك ، لتبقه كاملة مستعملة »

والظاهر ان أداء الرواتب كان ساخراً فى بعض الايام ، حتى قال الجاحظ فى ابى الفرج نجاح بن سلمة الكاتب — وكان على الاموال زمن الواثق والمتوكل ، واليه اهدى رسالته فى امتحان عقول الاولياء ورسالته فى الكرم — هذه القصيدة

أقام بدار الخمص راضٍ بخمصه	وذو الحرم يسرى حين لا احد يسرى
بطنُ الرضا سئئاً يسيراً مُهَوَّناً	ودون الرضى كأس امرُّ من الصبر
سواء على الانام صاحب حنكة	وآخر كابٍ لا يريش ولا يبرى
خضعت لبعض القوم ارجو نواله	وقد كنت لا أُعطِى الدنية[2] بالقسر
فلما رأيت القوم يبذل بشره	ويحمل حسن البشر وافية الوفر
رَبَعت عَلَى ظَلَعى[3] وراجعت منزلى	فصرت حليفاً للدراسة والفكر
وشاورت اخوانى فقال حليمهم	عليك الفتى المرئ ذا الخلق الغمر
أُعيذك بالرحمن من قول شامت	« ابو الفرج المأمول يزهد فى عمرو »

---

(١) وجد وجداً فى الحب فقط وكذا فى الحزن لكن تكسر ماضيه (القاموس)

(٢) فى الحديث علام نعطى الدنية فى ديننا ، أى الخصلة المذمومة

(٣) من المجاز « اربع على ظلعك » اى ارفق بنفسك ، واربع على نفسك بمكث وانتظر

ولو كان فيه راعياً لرأسه كما كان دهراً في الرخاء وفي اليسر
أخاف عليك العين من كل حاسد وذو الود محبوب[1] الفؤاد بن الذعر
فإن يرع ودي بالقبول فاهله ولا يعرف الأقدار غير ذوي القدر

ولما اشتهر أمر الجاحظ أمسى يعيش من الهدايا والعطايا التي تنهال عليه من العظماء وأرباب الدولة ، ممن يؤلف بعض كتبه لهم ويحليها بأسمائهم ، حتى لقد سأله أحدهم مرة إذا كان له بالبصرة ضيعة ، فتبسم وقال إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك ، فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ، ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد كان هذا والجاحظ في شيخوخته ، والخلفاء والعظماء يتسقون قربه ، ويتفاخرون بصداقته ، ومن أصدقائه الفتح بن خاقان[2] ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ولم يزر الجاحظ المتوكل ، وقد أراد أن يكون من ندمائه ، واعترض عليه بعضهم في ذلك ، وقال فيه بعض من لا يرى للرجال قيمة إلا بما ملكت أيديهم ، وشنعوا به من جاه وسطوه « إني لم أر أغنى من الجاحظ لنفسه ، وإن كان أوحد النابغة في عصره ، فما باله لم يلتمس شرف المنزلة بشرف الصنعة ، وقد رأى ابن الزيات وإبراهيم بن العباس بلغا فيها ما بلغا ،

(١) المحبوب الذاهب اللحم المهزول

(٢) يقول ابن خلكان إنه كان للفتح بن خاقان خزانة كتب جمعها علي بن يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسنا ، وكان يحضر فصحاء العرب وعلماء المصر والكوفة قال أبو هفان ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أكثر محبة للكتب والعلوم منهم الجاحظ والفتح ابن خاقان وإسماعيل بن إسماعيل القاضي

وهو يلمس فوائدها والحاه بهما » بمـدأن الحاحط كان يفضل أن يكون ا يراً وسط كتبه على الصوره التى راى عليها اسحق بن سليمان ، وقد دحل عليه فى إمرته ، فرأى السماطين والرحال مثولاً ، كأن على ر وسهم الطير ، ورأى فرسه و بره ، ثم دحل عليه وهو معزول ، و اذا هو فى بيت كتبه ، وحواليه الاسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر فال الحاحط فما رأيته قط افحم ولا انبل ولا اهيب ولا احزل منه فى ذلك اليوم ، لأنه جمع مع المهابه المحبه ، ومع الفخامه الحلاوه ، ومع السودد الحكمه

وممد اسعد الحاحط عما سهوى من المطاهر انتهب ابام صابعه لما اسهر بين العالمين قدره ، ويحامى الحلفا لما يعرف من بطشهم اذا غضبوا ، على ما لا يوارى افضالهم اذا رضوا ولما قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فى حلافه المتوكل ، وكان الحاحط فى اسبابه وناحيته منحرفاً عن أحمد بن ابى دواد ، هرب الحاحط فقيل له لِمَ هربت ؟ قال حفت ان اكون ثانى اثنين اذ هما فى التنور يريد بذلك ما صنعوا بابن الزيات من إدحاله تنوراً فيه مسامير محماه ود كروا أنه لما قتل ابن الزيات حمل الحاحط مقيداً من البصره ، وفى عنقه سلسله وعليه قميص سَمَل ، فلما دحل على ابن أبى دواد عاتبه عتاباً فاحشاً فقال الحاحط خفض عليك أيدك الله ، فوالله لان يكون لك الامر علىّ خير من أن يكون لى عليك ، ولان أسىء وتحسن ، احسن فى الاحدوثه من أن أحسن وتسىء ، ولان تعفو عنى فى حال قدرتك ، اجمل بك من الانتقام منى ، فعفا عنه وصدّره فى مجلسه

مذهبه وأخلاقه

يعدُّ الجاحظ من الطبقة السابعة في المعتزلة ، وفي هذا المذهب رُبي وعليه نشأ ، وعنه ناضل وله ألَّف ، وقد خالف أصحابه في مسائل ظفروا ، فسميت فرقته الجاحظية ، وزعموا أنه قال ان المعرفة طباع ، ونقل عنه أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنساً من الاعراض ، وقال اذا انتفى السهو عن الفاعل ، وكان عالماً بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق ، واما الارادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس اليه ، وزاد على ذلك اثبات الطبائع للاجسام ، كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، واثبت لها افعالاً مخصوصة بها ، وقال بعدم استحالة الجواهر ، وأن الاعراض تتبدل والجواهر لا يجوز ان تفنى ، ومذهبه مذهب الفلاسفة في نفي الصفات ، وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة

هذا مجمل ما يقال في مذهب ابي عثمان ، اما أخلاقه ومزاجه ، فما كان بالسوداوي ولا بالعصبي ، وكان أميل الى التفاؤل منه الى التشاؤم ، ترى الدنيا بعين المغتبط المحبور ، لا بعين المغتبط المُحنَق ، تبدو السرور عليه اذا خطب واذا كتب ، وبغمره الغبطة ، وبشاده الدعابة ، وخفة الروح فيه جِبِلّه ، يبادر الى الطبقات المحتلفة ، بعبث بهذا ، و تَوَلع[1] بذاك ، لا يفرعه المظاهر ، ولا يتوقف في ايراد النكتة ، فطر على الوفاء لاصحابه ، والثبات على ودهم وعهدهم ، ولا يشفع بمن يعرف وبمن لا يعرف ، لاعتقاده ان الوساطة شهادة ، وصعب عليه أن يشهد الزور

كان يحافظ على اوقاته لا يضيع منها ما يمكن شغله بالمفيد ، بعيداً عن الفوضى

(١) وبع كوضع ولعا وولعانا محركه استخف

بعض البعد ، و يحب النظام فى الحملة إلا أنه كان لا يدخر المال إلى أيام العسرة ، و إذا أتاه نعمه لا يحسب للغد حساباً كبيراً ، ولذلك كان يعسر أحياناً ويعوزه النعمه ، و يلوب على الناس يربعون به وما كان ضنيناً على إخوانه ، وود لو احد من الأغنيا فاقصل على الفقراء ولئن بسا ن بت وصنع ، لقد كان على جانب عظيم من عزة النفس

ما كان الحافظ بالمترمت ولا بالمتنسك ، قام بما فرض الاسلام عليه من الفروض والواجبات ، وصرف ساعات عمره فيما يرفع من شأن المسلمين ، دعاهم الى الحياة الفاضلة ، وحبب إليهم دينهم ودنياهم ، ليستمسوا أمة عزيزة فاضلة فى أخلاقها ركان يرى سعادة أصحاب السلطان وأصحاب الثروة تزول بزوال أربابها ، أو بما يعرض لها من أسباب الفناء ، وان العمل الصالح هو الاثر الذى يطل على الايام ، ولذلك كان يفنى عمله ، لا يبتغى منه الا ما يجدى فى الحياة والمعاد وسع علمه الناس والامصار ، ونظر أكثر من غيره الى ما وراء حدود النظر ، وما كان بالمقلد الجامد ، ولا ممن يأخذ كل ما اتصل به قصه مسلمة لا بحث ولا نظر قصاراه التجديد ، والبعد عن مزالق التقليد ، والتعرف الى كل شىء معرفة نافعة

راى من العبث بكلف الايام ضد طباعها ، فلابس دهره كما شاء فى الجملة ، لا كما أراد هو بالتفصيل ، فضحك لسيماء الحياة الدنيا ، وهزأ بما يراه غيره نعمه ، عرف أن السعادة فى الارض مستحيلة ، وان العالم حلو و مرّ ، فرضى بحلوه ومره ، وفى الرضا والقناعة عزاء وسلواء راى فساد الناس بما كسبت ايديهم من الكذب والزور والحسد والحب ، فاستعمل من دهائه ما ابقى به شرهم ، وعَلِق يطمع فى الجملة لتعليمهم ، ومداواة أمراض نفوسهم ، ويعين فى

دعوته ، لا بعين صاحب جمال ، وطالب محال ، بل بعين الرجل الحكيم ، يفحص اليوم بعد اليوم من عمله على تلميذه ، بقدر ما يشهد فيه من استعداد ، و يسمح له من رأس ماله الواسع ما يرجى له ان ينمو به ، وهو لا ينفر اهل جيله و قبيله ، ولا يغريهم على كل ما هم فيه

خُلق نقاداً كما يُخلق الشاعر شاعراً ، وقوة النقد فيه سليقته ، ومع هذا يعمد الى الرفق ، و ينصف خصمه من نفسه ، و يستمع الى ما يدلى به من حجة يراه وهو العربى القح فى جميع منازعه ، لم يستهوه حكمة اليونان والهند وفارس ، وما استلكت قلبه غير حكمة العرب وهدايتهم وآدابهم ، ومع هذا ياخذ ممن سبق ولحق ، وعمن وافق وخالف ، لا ينبو نظره عن شيء ، ولا يُرذل نفسه حمقاً ولم تورثه شهرته الفلسفية زهواً وغروراً ، ولا يتكلف التواضع ولا التخاشع ، ونفسه الكبرى أن يرفق بالضعاف حتى يقووا ، وبالجهلاء حتى يتعلموا ، يجالس الكبراء من دون اسفاف ، و يحبب مجالسيهم نقاداً من سرهم وعموهم ، و يحلم عن الاشرار طمعاً وتطبعاً ، و يبعد عن الحاسدين والموتورين ، لا يضجر ولا يضطرب ، مُثرِن اذا أُزِم ، معتدل اذا جاور ، لا يحسد ذا نعمة على نعمته ، ولا ذا سلطان على نفوذ ارادته

***

فلج الجاحظ واصيب بالنقرس فى شيخوخته ، فدخل عليه المبرد فى آخر أيامه وهو عليل ، فسأله عن حاله فقال كيف يكون من نصفه مفلوج ، لو نشر بالمنشار لما احس به ، ونصفه الآخر منقرس ، ولو طار الذباب بقربه لآلمه ، والاشر على ذلك انى قد جاوزت التسعين وأنشد

اترجو ان تكون وانت شيخ   كما قد كنت ايام الشباب

لمد كدىك ىمسك لىس ثوب   درس[1] كالحدىد من الساب

ودحل عليه حماعه يوماً ىسرَ من رأى ىعودونه وقد فلح ، فلما أحدوا محالسهم اتاه رسول المتوكل فقال وما ىصنع امىر المؤمنىن ىشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ىم اقبل علىهم فقال ما ىقولون فى رحل له سقان احدهما لو عرر بالمسال ما احس ، والسق الآحر ىمر به الدىاب فىعوث[2] وأ كىر ما اسكوه الىمانون ؟

ومع هدا طل الحاحط ىسلى ىفسه بالىالىف على النحو الدى حرى علىه أىام الـكهولة والشباب فعوضه الطىىعه فى سىانه عن حمال الوجه بحمال العلم وحلاله ، واعاضه فى شىحوحىه عن حوده الصحه صحه العقل مات الحاحط فى سىه ٢٥٥ وقل انه وقعت علىه محلدات العلم ، فمات فى الدى احىه وبحر فىه طول حىاته قالوا وكان من عادته ان ىصعها قائمه ، كالحائط محىطه به وهو حالس إلىها ، فسقطت علىه مات فى البصره لا فى ىغداد ، بدلىل ما رواه ابن المهلبى عن أبيه قال قال لى المعىر بالله يا ىرىد ورد الحىر بموت الحاحط ، فقلت لا ىر المؤمنىن طول البقاء ودوام العر قال المعىر لقد كىت أحب ان اسحصه الىّ وان ىقىم عىدى ، فقلت له انه كان قىل موته عطلاً بالفالح

أدبه

ىطالعك الحاحط من بارع ادىه بالابداع دونه كل ابداع ، وىملك فى سهولة وىسر لا ىشق علىك ، ىدحل من ىفسك مدحل صـدق ، وىسهو بك وانت لا ىدرى كىف أحدت قد ىقرأ لعىره كلاماً ، وىعُحَت بما فىه من دىباحه حسىه أو معنى دقىق ، او تحقىق واحاطه ، او فـكر طرىف ، او راى نادر ، اما ان

(١) درس الىوب أحلقه فدرس ، هو لازم متعد
(٢) عوب الرحل ىعوىا قال واعوىا

نصم الكلام سمت هذه المبرات ، ويحمل كل ما نص للحاطر ن الصماب ، فهذا مما لا يقع إلا على الندره فى كلام البلغاء ، وهو من الامور المعتاده فى كلام أبى عثمان اب يتمثل فيما يملى الكاسون سيئاً سطيه ويسملحه ، وفى ادبه كل ما نطرب و يعجب الكتّاب فى العاده سطالون الى ان يكسوا موصوعاتهم ، والحاحظ يسمليه موصوعه فيمليه ، لا سكلف ولا يعسف يصور لك حلجات الروح ، وآهات النفس ، وأرماب العقل ، و يرسم لك المحسوسات كا نك بحسها ، و يصف لك المعلوم والمجهول ، و يعرض عليك المعقول والمنقول ، و يه ص كل القصص بما لم يكتب لغير افراد فى علماء هذه الامه الطو يل تاريخها ، الكثير سعاوها ، كأن الجاحظ بوق عصره ومصره ، والآله المحكمه التى احسنت بقل اصوات أهل جيله سجّل الفاخر والعار ، وحمل الى أبناء القرون اللاحقه أقاس ن ادبه حمّلها بروح الحق وسحر الجمال

يقف القارى بما بقل اليه على صور رآها بنفسه ، فاحب اماع غيره بر بها ، و اسرأكه بحالات نابرت بها بنفسه ، هو ممن ربط ماضى الامه بمستقبلها ، بدسما لدساها ، بعمد لفرط امانته ان يسمعها الحسن والقبيح ، فطب بلطف عنصر يه ر حها وجسمها واذا كتب ممن لا سوقع من المصور ا كثر من ان يصور لك ما يقع بصره عليه ، فادب الجاحظ يصور لك فى حذق وبلده و ما رفعت عليه عينه بقلبه وحسه ولما كان من رقه الشعور الى التى لدس بعدها ، جا كلامه سعوراً بعاطفه

يتعب النها فى ادب الجاحظ من كون ماده الجمال فيه سياله براقه ناصعه سيسر السرور فى الروح قالوا إذا أوربك الكلام ما يعلو به فكرك ، وما يبثه فيك حسنا سريعاً ، فلا يبحث بعدها عن سىء آخر لتحكم على ما قراب ، وكن

على مسل النفس أنه من الحسد الصالح ، وأنه ما صدر الا عن ند صَنَاع ، وفر نحه وفاده والحاحط ، فوق هدا ، لم سعند كثيراً ندوق عصره ، وفى دلك امداعه فى ادبه

كان كما قال لاسون فى وصف احد كتاب الافرنج نعش كالادب فى العالَم ، و نكتب كما نكتب الادب للعالم ، ولا برصى عن نفسه إلا لانه يُرصى الناس ، وقد قَبِل النشر نكل ما فيهم من صعاب ، لنرحرحهم عما هم فيه نخاطب الانسان للنا ىر فى الانسان ، ونطر اليه لا على انه روح محص ، ولا على انه عقل محص ، نطر اليه على ان له حسياً نصطهد الفكر و نحرفه و نفسده ، فراى من الواجب ان نخاطبه بما فيه ، نخاطب فيه العقل والارادة والدهن والاحساس ، ويرب فصوله نُزهى بما حلع عليها ى الجمال ، والفكر الدى لا ىم له الكاتب سفر القارئ منه ، لان له من عره نفسه ما نحب معه ان نُخاطب بما أَلف ، و بما نسأ ر نه نفسه وهدا ما كان مسجتمعاً فى ابى عثمان

كتب نعد الدرس الطو نل والخبره الواسعه ، وما عانى ى الابحاث الا ما اصطلع نه ، وما فوق ذلك نعظم نحنط نا كبر ما فى صحيفه الوجود ى المعارف ، و نعرف ما فى الارض من نعاجب ، وما فى السماء من عرائب ، ووكده مصروف الى ارصا من نواصل السعر معه ، و برافقه و نعاسره ى قرائه و ى لا نحمىر سداً ندخل فى باب الآداب ، ولا سسنكف من الاحد عن صغير الناس وكبيرهم و نكسف كل عامص ، و نسعرى و نسنبط ، حلىق ان نجعل ادبه فى القاموس ، وان نكون كلامه راحاً للارواح

قيل ان الـكتابه الصحيحه صعبه المراس ، واصعب منها احتراع ىر كتب جديد ، ران جوده الـكتابه نتوقف على اسبطان اسرار الاسماء ومها أن

يسلي الكاتب السامع بالمناظر المختلفة ، يجمع له منها أصنافاً ، ويسلمه في الأحاسيس ، ويبعد به عن المهجورات والمكررات ، ويهبط به إلى الإسراف على ما يخرج في بحثه ، ويكشف عنه بيانه . وهذا القول أيضاً يصدق على الجاحظ إذا تأملت تراكيبه ، وبصره بالأشياء ، حتى لا يترك قولاً لغيره إذا بدا له أن يقوله .

فصلان للجاحظ أبدع فيهما الإبداع كله : أحدهما في وصف الكتاب والثاني في وصف الحسد . ولعل إجادة الجاحظ تجلت لنا فيهما لأن موضوعهما مما أهمه كثيراً . ومن أعرف بنفع الكتب من سيد من صنفها ، ومن أقدر على وصف الحسد ، من العارف بعذاب هذا الداء من نفوس الحساد ، ومن كان طول حياته عرضاً لهم يحاولون أن ينقصوه قسطهم . أسعد بعضهم على الجاحظ حتى وضعه الكتب ، وذكر لهم فضلها على الناس ، ومما قال : الإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذ عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفسه إلى تحرج في الكتب الذي بدّه من عشق القيان ، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيا ، وليس ينفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه .

يقول بعد مقدمة : « وأنا أحفظ وأقول : الكتاب نعم الذخر والعقدة ، والجليس والعمدة ، ونعم النشوة ، ونعم النزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والوزير والنزيل ، والكتاب وعاء ملئ علماً ، وظرف حشي ظرفاً ، وإناء شحن مزاحاً ، إن شئت كان أعيى من باقل ، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وإن شئت سرتك نوادره ، وشجتك مواعظه ، ومن لك بواعظ مله ،

وساسك فاتك ، وناطق أحرس ، ومن لك بطمس أعرابى ورومى وهــدى وفارسى و يونانى ، ونديم مولّد، وحدث ممع ، ومن لك بشى يحمع لك الاول والآحر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والعث والسمين ، والشكل رخلافه ، والجنس وصده ؟

« و بعد فما رأت بســاناً يحمل فى رُدن ، وروصه سقل فى حِجر ، ينطق عن الموتى ، و يترجم عن الاحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ، ولا ينطق الا بما يهوى ، آمن من الارض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، واحفظ للودبعه من أرباب الودبعه ، ولا اعلم جاراً آمن ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً اخضع ، ولا صاحباً اظهر كفايه وعنايه ، ولا اقل املالاً ولا ابراماً ، ولا ابعد عن مراء ، ولا اترك لشَغَب ، ولا أزهد فى جدال ، ولا اكفّ عن قتال — من كتاب ، ولا اعمّ بياناً ، ولا أحسن مؤاتاه ، ولا أعجل مكافاه ، ولا سحره أطول عمراً ، ولا اطيب ثمراً ، ولا أقرب مجنى ، ولا اسرع ادراكا ، ولا أوجد فى كل اوان — من كتاب ، ولا أعلم نباتاً فى حداثه سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وامكان وجوده ، يجمع بين السير العجيبه ، والعلوم الغريبه ، وآثار العقول الصحيحه ، ومحمود الاذهان اللطيفه ، و بن الحكم الرفيعه ، والمذاهب القديمه ، والتجارب الحكيمه ، والاخبار عن القرون الماضيه ، والبلاد النازحه ، والامثال السائره ، والام البائده ، ما يجمعه كتاب

« و بن لك بزائر ان شئت كانت زيارته غِبّا ، وورده خمساً [١] ، وان شئت لزمك لزوم ظلك ، وكان منك كبعضك ، والكتاب هو الجليس الذى لا يُطْريك ،

---

(١) الغب بالكسر فى الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والخمس بالكسر من اظما الابل وهى أن ترعى ثلاثه ايام وترد الرابع وهى إبل خوامس

والصديق الذى لا يَملك ، والرفيق الذى لا يَملك ، والمستمع الذى لا يستزيدك
والجار الذى لا يُساطلك ، والصاحب الذى لا يريد استخراج ما عندك بالملق
ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق والكتاب هو الذى إن نظرت فيه
أطال امتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ، وجود بنانك ، وفخم ألفاظك ،
وبجّح[1] نفسك ، وعمّر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك ،
يطيعك بالليل طاعته بالنهار ، وفى السفر طاعته فى الحضر ، وهو المعلم الذى إن
افتقرت اليه لم يحقرك ، وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن
عُزلت لم يدع طاعتك ، وان هبت ريح اعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت
متعلقاً منه بأدنى حبل ، لم يضطرك معه وحشة الوحدة الى جليس السوء

« وان أمثل ما يقطع به الفُرّاغ نهارهم ، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم ،
نظر فى كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد فى تجربة ، وعقل ومروءة ، وصون عرض ،
واصلاح دين ، وتثمير مال ورب[2] صنيعة ، وابتداء انعام ولو لم يكن من
فضله عليك ، وإحسانه اليك ، إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر إلى
المارة بك ، مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم ، ومن فضول النظر ،
وملابسة صغار الناس ، ومن حضور ألفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ،
وأخلاقهم الرديئة ، وجهالاتهم المذمومة ، لكان فى ذلك السلامة والغنيمة ، واحراز
الأصل مع استفادة الفرع ولو لم يكن فى ذلك الا انه يشغلك عن سخف
المنى ، وعن اعتياد الراحة ، وعن اللعب ، وكل ما يشبهه ، لقد كان له فى ذلك على
صاحبه اسبغ النعم ، واعظم المنة وحمله الكتاب وإن كثر ورقه فليس مما يملّ ،

---

(١) بجحه تبجيحا فتبجح اى افرحه ففرح

(٢) رب جمع وزاد ولزم

لانه و ان كان كتاباً واحداً ، فانه كتب كثيره فى خطابه ، والعلم بالسر يعه والاحكام ، والمعرفه بالسياسه والتدبير

« والكتاب هو الذى يؤدى الى الناس كتب الدين ، وحساب الدواوين ، مع خفه نقله ، وصغر حجمه ، صامت ما اسكته ، وبليغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك فى حال شغلك ، ويدعوك فى اوقات نشاطك ، ولا يحوجك الى التجمل له والتذمم منه

« والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه بامور منها أن الكتاب يقرا بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان ، على تفاوت ما بين الاعصار ، وتباعد ما بين الامصار ، وذلك امر مستحيل فى واضع الكتاب ، والمنازع فى المساله والجواب ، ومناقله اللسان وهدايته ، لا يجوزان مجلس صاحبه ، ومبلغ صوته ، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى اثره ، ولولا ما اودعت لنا الاوائل فى كتبها ، وخلدت من عجيب حكمها ، ودونت من انواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وادركنا مالم نكن ندركه الا بهم ، لما حسن حظنا من الحكمه ، ولضعف سببنا الى المعرفه ، ولو لجأنا الى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تجاربنا ، لما تدركه حواسنا ، وتشاهده نفوسنا ، لقلت المعرفه ، وسقطت الهمه ، وارتفعت العزيمه ، وعاد الرأى عقيماً ، والخاطر فاسداً ، ولكلّ الحد وتبلد

« ولولا جياد الكتب وحسَنها ، وبَينها ومختصرها ، لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ، ونزعت الى حب الادب ، وانفت من حال الجهل ، وأن تكون فى غمار الحشو ، ولدخل على هؤلاء من الخلل ، والمضره من الجهل وسوء الحال ،

ما عسى أن لا يمكن الاخبار عن مقداره الا بالكلام الكثير ولذلك قال عمر رضى الله عنه تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا وقد يجد الرجل بطلب الآثار ، وتأويل القرآن ، مجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يعدُّ فقيهاً ، ولا يجعل قاضياً ، فما هو الا ان ينظر فى كتب أبى حنيفة واشباه ابى حنيفة ، و يحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة او سنتين حتى تمرّ ببابه ، فتظن انه من بعض العمال ، وبالحرى أن لا يمر عليه من الايام الا اليسير ، حتى يصير حاكماً على مصر من الامصار ، او بلد من البلدان ومما يدل على نفع الكتاب انه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرّقة والموصل و بغداد وواسط ما كان بالبصرة ، وما يحدث بالكوفة فى بياض يوم ، حتى تكون الحادثة بالكوفة غُدوة ، فيعلم بها أهل البصرة قبل المساء »

املى الجاحظ هذه الفقرات فى عصر كان الناس يؤثرون فيه السماع من المشايخ ، والاخذ عن الرواة ، على مطالعة الأسفار ، والمنافسة فى دواوين العلم ، لا يحفلون بالمقيد والمسجل كثيراً ، و يرون على الدوام الاخذ من الافواه ، بوجه افكار أمة وجهة اخرى مسددة مستمرة ، اناها ترغيبها فى الكتاب لتكون للناظر فيه كل ساعة ما يشفى من مَغبة ، نصح لقومه ان يتساعوا فى اقتناء الاسفار ، و يتباروا فى الاعتماد على ما يدخره من الدرر العوالى ، و بذلك نشط المؤلفون الى وضع كتبهم ومصنفاتهم ، وبقى لمن يتلوها اصح مرجع على الايام

و بعد فهل رأيتم دخول الجاحظ على نفوس المعلمين ، او من يطمع فى نفعهم من العاملين ، عند ما قال لهم ان الكتاب يمنح صاحبه تعظيم العوام وصداقة الملوك ، وأن من حضر دروس الفقهاء لا يحصل من العلم على طائل ، الا

اذا درس كتب أبى حنيفة وغيره ، فاصبح بما استظهر قاضياً أو حاكماً فى احد الأمصار وبعد ان أفاض فى ضروب من الاقوال التى تعمل فى النفوس ، ونقل ما قاله من تقدموه فى هذا الباب ، ناجى القارئ فصرنه فى الوتر الحساس ، وهو طلب المال والجاه بالكتاب ، والنفوس تصبو من طبعها إلى بلوغ هذه المراتب ، وما دامت المسالة لا تحتمل اكثر من النظر فى صفحات معدوده ، و بفتح الكنز المرصود لطالب السعاده ، فجمهرة المقبلين على الاخذ من الاسفار ، ستزيد يوماً بعد يوم

وهذا منزع آخر من منازع الجاحظ فى الاصلاح والتمدين ، يحاول ان يصل منه الى غاية معينة ، و يضرب فيه على نغمة المادية تستهوى قلوب العالم وما هو بالغافل عن ضعفهم ، وانهم عبيد الدنيا مهما تفاوتوا زماناً ومكاناً ، فخاطبهم بما يغريهم بالعلم ثم هو ليس ممن يرغب فى الخطب التى تزول آثرها بزوال مؤثراتها ، ولا تتعدى نفعها حدود أوقاتها ، و يعشق الكتب لانها موضع تفكر وتدبر ، لا يتناولها ما يتناول الخطب من تاويل وتحريف ، وزيادة ونقص وأثبت الجاحظ فى هذا المنحى أيضاً انه على جانب عظيم من الدهاء ، اذ ثبت انه لو اعتمد فى تهذيب الناس على محاضراته ومسامراته فى مجالسه ودروسه فقط ، لضاع على الناس علم كثير ، واستهلك ذلك وقتاً ودَ لو صرفه فى التاليف الخالد ، ثم لا يجد الله السامعون طريقاً يلجونه لمنافسته ومراوغته ، و ينظر إلى احاسيسهم وصرف الذهن عبثاً فى حوارهم ، ومن خُلقوا للجدال فى الحق والباطل لا يزحزحهم عما هم فيه برهان ، وهل يرضى العدو من عدوه بغير اهلاكه او زوال نعمته ؟

من اجل هذا عنى الجاحظ من اجابه من تقدم اليه ان يجديه قائلا له انه ليس حسوديًا ، ذلك لان الجاحظ الحذر الفطن لا يُرضيه ان يستخدم احد

اسمه ، مدعماً انه نقل عنه حديثاً قد يحرفه ، أو يعبث به على هواه ، ولذا قطع على الطالب حديثه وتبرأ من المحسوب به ، والمحسوب به هم الذين لا يدرون ما يروون ، ولا ما يصححون من احاديث الرسول واحرى انه كان ينوى بالدعوة الى الاستكثار من امثال الكتب ان يطهر بدخيل الدجالين من الراوين والمؤلفين ليبدوا في اصح مظاهرهم ، ويبين للماضي والداني اقدارهم ، فيسقط الا وهون ، ريبقى المجودون ، ممن يستحق مدوناتهم ان تبقى ويتناقل حملاً فحملا

والآن ننتقل الى الصفحة الخاطئة الاخرى ، صفحة الحاسد والمحسود ، فاسمعوا النبأ من لسان أعرف الناس بطباع الناس ، بل اعظم منشئ وا كبر عالم قام في القرن التاسع للميلاد كما وصفه احد علماء الافرنج ، وهو جواب من ساله عن الحسد « لِمَ صار في العلماء اكثر منه في الجهلاء ، ولم كَثُرَ في الاقربا ، وقلّ في البعداء ، وكيف دبّ في الصالحين ، اكثر منه في الفاسقين ، وكيف خص به الجيران من جميع الاوطان » فقال « الحسد أبقاك الله داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عَسِر ، وصاحبه ضَجِر ، وهو باب غامض ، وامر متعذر ، فما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداريه في عناد ، ولذلك قال النبي (ص) دب اليكم داء الامم من قبلكم الحسدُ والبغضا فمنه يتولد الداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين الاقربا ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشرّ بين الخلطاء ، يكمن في الصدر ، كمون النار في الحجر ولو لم يدخل ، رحمك الله ، على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه ، واستمكان الحزن في جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغص عمره وكدر نفسه ، ونكد لذاذة معاشه ، الا استصغاره لنعمة الله تعالى عنده ، وسخطه على سيده ، بما افاده الله عبده ، وتمنيه عليه ان يرجع

فى نفسه إياه ، وأن لا يرى أحداً سواه ، لكان عند ذوى العقول مرحوماً ، وكان عندهم فى الناس مظلوما »

وبعد ان سار على هذا النحو بنقل الشاهد والمثل والقصة قال

« فمن شأن الحاسد ان كان المحسود غنيًّا ، ان يوبخه على المال وقوله إنه جمعه حراما ، ومنعه اثاما ، وألب عليه محاويج اقاربه ، وترككم له خصماء ، وأغراهم فى الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر ، وقال له كفروا معروفك ، واظهروا فى الناس ذمك ، فليس امثالهم يوصلون ، فانهم لا يشكرون وان وَجَد له خصماً ، اعانه عليه ظلماً ، وان كان ممن يعاشره فاستشاره غَشه ، او يفضل عليه بمعروف كفره ، او دعاه الى نصره خذله ، او حضر مدحه ذمه ، وان سُئل عنه همز ، ان كانت عنده شهادة كتمها ، وان كانت منه اليه زلة عظمها ، وقال انه يحب ان يعاد ولا يعود ، ويرى عليه المعود »

« ان كان المحسود عالماً ، قال مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطب ليل ، ومبتغ نَيل ، ما يدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، واقبل على الحيل ، وقد اقبل بوجوه الناس اليه ، وما احمقهم اذ مالوا اليه ، فقبحه الله من عالم ، ما أعظم لبسه ، واقل ورعه ، واسوأ طِعمته »

ووصفه للعالم المحسود وصفه انفسه مع بعض حساد زمانه ، ممن لم يدرك انفسهم شأوه فى علمه وفهمه ، ولذلك نراه عرف داءهم وعرف دواءهم ، فكان الإعراض عنهم فى حياته ، ومداراة السلاطين منهم من جملة ما يعد فى باب عقل الجاحظ وقال « لو ملكت عقوبة الحاسد لم اعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به ، بالزامه الهم قلبه ، وتسليطها عليه ، فزاده الله حسداً ، واقامه عليه ابداً » وابان عما ارتآه لمداواة داء الحاسد بقوله « فاذا احسست ، رحمك الله ، من صديقك

بالحسد فاقلل ما استطعت من مخالطته ، فانه أعون الاسباب لك على مسالمته ،
وحصن سرك منه تسلم من سدى[1] شره ، وعوائق ضره ، و اياك والرغبة فى
مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مساررته »

« ومتى رايت حاسداً يصوب لك رأياً ، و إن كنت مصيباً ، أو يرشدك
الى الصواب ، و إن كنت مخطئاً ، او نصح لك فى غيبة عنك ، او قصر ن ع ه
لك ؟ هو الكلب الكلِب ، وَالنمر الحرِب ، وَالسم القشب ، وَالفحل القَطِم[2] ،
وَالسيل العرِم إن مَلَكَ قتل وسبى ، و إن ملك عصى وبغى ، حياتك موته وثبوره ،
وموتك عرسه وسروره ، يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب فيك كل
عَدل مرضى ، لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس الا من
يحبك ، عدوك بطانته ، وصديقك علاوته أحسن ما يكون عنده حالاً ،
أقل ما راك مالاً ، وا كثر ما يكون عيالاً ، واعظم ما يكون ضلالاً ، وافرح
ما يكون بك اقرب ما يكون بالمصيبة عهداً ، وابعد ما يكون من الناس حمداً ،
فاذا كان الامر على هـذا فمجاورة الاموات ، ومخالطة الزَّمْنى ، والاكتنان
بالجدران ، ومص المصران ، وا كل الفردان ، أهون من معاشرة مثله ، والاتصال
بحبله وما ارى السلامة الا فى قطع الحاسد ، ولا السرور الا فى افتقاد
وجهه ، ولا الراحة الا فى صرم مداراته ، ولا الربح الا فى ترك مصافاته »

قال « وما لقيت حاسداً قط الا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوص عينه ،
و اخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والاعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ،
والخلاف لرأيك » ، « من شأن الحاسد ان يحس ما يحسد عليه ، من خلق المحروم

(١) السدى كالأذى و نا ومعنى
(٢) القطم كـكتف الـكثير العض والقشب الخلط وسقى السم

بفسح ما حُرِم وبصغره والطعن على اهله » ، « والذى يحسد فعلى ما لا حدّ له يكون حسده ، فحسده متسع بقدر تغير اتساع ما حسد عليه » ، « ما خالط الحسد قلباً الا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تسحيبه (١) وكتمانه ، حتى يتمرد عليه فى ظهوره و اعلانه ، فيصده و يستعمله ، و يستعطفه لقهره عليه ، ولهو اغلب على صاحبه من السيد على عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الآسر على أسيره »

وقال فى مكان آخر « ومن احب السيد الجامع ، والرئيس الكامل ، ومن اشد الحب ، وحاطهم على حسب حبه لهم ، كان ابغض اعدائهم له على حسب حب قومه له ، هذا اذا لم يوثب اليه ، ولم يعترض عليه من بنى عمه و اخوته من قد اطمعه الحال باللحاق به وحسد الاقارب اشد ، وعداوتهم على حسب حسدهم وقد قال الاولون رضا الناس شىء لا ينال وقد قيل لبعض العرب مَن السيد فيكم ؟ قال الذى اذا أقبل هباه ، و اذا ادبر اغتابه وقد قال الاوّل نعصاء السوء موصوله بالملوك والساده ، ويجرى فى الحاسبه مجرى الملوك ، وليس فى الارض عمل اكدّ لاهله من سياسه العوام » والجملة الاخيرة من حكمه او من الكلام الذى يختم به فصوله غالباً ليستوقف القارئ الى ذكره

وما احلى قوله فى الحاسد « من العدل المحض ان تحط من الحاسد نصف عقابه ، لان الم حسده لك قد كفاك شر مؤنه غيظه عليك » وما اصدق قوله « ما لقيت حاسداً قط الا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوص عينه ، و اخفاء سلامه ، والاقبال على غيرك الخ »

ولا نرى ختم هذا الفصل قبل ان نشير الى ان الجاحظ كان صريحاً فى

---

(١) اسحن السيف أغمد وسله ضد

ادبه ، لا سالى بسدد المترمتين ، بسمى الأسما باسمائها ، رغم ا ف ن رمى وكره ، فأدبه ، والحاله ما د كرنا ، الادب الواقع Réalisme ، على ما يدعوه المعاصرون ، اى نقل الطبيعه كما هى ، او كما نظن ان تُرى ، مع ما فيها ب بشاعه وابتذال ، ولهذا الادب فى دهرنا من أهل الغرب ادباء مشهورون عانوه فى كتبهم ، وما عابوا بمصطلح مجتمعهم

وكان كثير من المؤلفين فى العرب ، ومن المشهود لهم بالتقوى والفضل ، يسيرون على نهج ابى عثمان فى ذلك ، ومنهم حصمه اللدود حاحظ اهل السنه ابن قتيبه ، وقد قال فى مقدمه عيون الاخبار « و اذا مرّ بك حديث فيه افصاح بذكر عورة او فرج ، او وصف فاحشه ، فلا يحملنك الخشوع او التخاشع على ان تصعّر[1] خدك ، وتعرض بوجهك ، فان اسماء الاعضاء لا تؤثم ، و انما المأثم فى شتم الاعراض ، وقول الزور والكذب ، وا كل لحوم الناس بالغيب

قال ولم ارخص لك فى ارسال اللسان بالرّفث على ان تجعله هجيراك[2] على كل حال ، وديدنك فى كل مقال ، بل الترخص منى فيه حكايه تحكيها ، او روايه ترويها ، ينقصها الكنايه ، ويذهب بحلاوتها التعريض ، واحببت ان تجرى فى القليل من هذا على عاده السلف الصالح ، فى ارسال النفس على السجيه ، والرغبه بها عن لبسه الرياء والتصنع »

[أبان] الجاحظ عن مترعه فى الادب الواقع بقوله « و بعض الناس اذا

---

(١) صعر خده صعّره وصاعره واصعره اماله عن النظر الى الناس تهاونا من كبر ، وربما يكون خلقه

(٢) [الرفث] محركة الجماع ، والفحش كالرفوث وكلام النساء فى الجماع او ما ووجهن به من الفحش [يق]ال هذا هجيراه (بكسر الاول وتشديد الثانى) واهجيراه واهجيراؤه وهجيره واهجيريه وهجيرياه اى دأبه وشأنه

انتهى إلى ذكر الحِر والأير والنيك ، ارتدع وأظهر التقزز ، واستعمل باب الورع ، وأكثر من تجده كذلك ، فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ، ونذالة متمكنة وبعد فلو لم تكن لهذه الألفاظ مواضع لما استعملها أهل هذه اللغة ، وكان الرأي أن لا يلفظ بها »[1].

سار الجاحظ على العرف قبله في إيراد أسماء الأعضاء وعملها ، لأنها

---

(١) جرى كثير من العلماء والأدباء على هذه الطريقة في التصريح ، بما يعد اليوم مخالفاً للعرف ومنافياً للأدب ، ومنهم ابن حزم الظاهري في طوق الحمامة والراغب الأصفهاني صاحب الذريعة إلى مكارم الشريعة ، في كتاب محاضرات الأدباء ، والقاضي التنوخي في نشوار المحاضرة ، وياقوت في طبقات الأدباء وغيرهم كثير وروى الحصري عناية مجون الحسن بن هانئ « إن الشعر لم توضع بنيته على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق ولم ينغ بصبوة ، ولم يرخص في هفوة ، ولم ينطق بكذبة ، ولم يغرق في ذم ، ولم يتجاوز في مدح ، ولم يزور الباطل ، ويكسبه معارض الحق ، ولو سلك بالشعر هذا المسلك ، لكان صاحب لوائه من المتقدمين ، أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وعدي بن زيد العبادي ، إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ في أشعارهما من امرئ القيس والنابغة قال وهل تناشد الناس أشعار امرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على تعهرهم ، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم ، إلا على ملأ من الناس ، وفي حلق المساجد ؟ وهل يروي ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم وما نهى النبي ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعد عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر اهـ وقال الجرجاني وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح ، ثم لم يعبهم ذلك إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه ، ولم يرووا الشعر من أجله » ونقول مثل هذا لمن يجورون نعته نصوص القدماء بدعوى أنها لا تتلاءم مع أدب العصر ، ونحن في صدد معرفة أدب ذلك العصر قال انعدس كلمات أنا لا أخجل ، لفائدة القراء ، من الكلام على الأعضاء التي خلق بها الإنسان لأن المولى تعالى لم يخجل إذ خلقها وقال مونتين وهو من أعظم من اشتهروا بالفضائل من المؤلفين الفرنسيين ماذا كان عمل الفعل التناسلي في الناس وهو طبيعي وضروري حتى يخجلوا ويبعدوا عن ذكره ؟ فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه إلا بشيء من الخجل ، ويبعدون عنه في أحاديثهم ، الناس يجرؤون على التلفظ بأفعال القتل والسرقة والخيانة والزنا الخ ولا يجرؤون على النطق بالعمل الذي يهب الحياة للمخلوق باللغة المكنونة ، وباللغة المحتشمة ؟ ألا ترون أن من يرون إطلاق اسم الحيوان على العمل الذي خلق الإنسان أحرياء بأن يطلق عليهم اسم بهائم وحيوانات ؟

ما وجدت فى اللغة إلا لتستعمل ، ولطالما أرسل النفس على سجيتها ، واورد المكاتب والنوادر بالالفاظ التى رويت بها ولبس ذكر الاسماء باسمائها بدعاً فى اسلوب الجاحظ ، ووصف الاسماء بما فيها من قبح وحسن بالاسلوب الواقعى طريقة للعرب قديمة ، ومع هذا لم يفرط ابو عثمان فى ذلك ، يورد ما يورد منها فى المناسبات ، ولا تجد اللفظ ولا الجملة من ذلك مما يمس الدين ، او يعيب بخلق ، او يأبى على أدب ، ولا سيما فى حكاياته وما ينقله من أشعار الجاحظ على أدبه من روحه وقلبه وعقله ، و يقول ما يقول غير متزيد ، فمن الاحجى ان يعرض الطبائع البشرية فى صورتها الحقيقية ، لا يداجى ولا يحابى ، و يجانبه الحقيقة مجانبة

بقى أن نقول ان ادب الجاحظ قطعة من نفسه تجلى فيه لاول نظرة طريقة ، ولو انك القيت قطعة من قلمه بين عشر قطع ادبية لغيره ، لما صعب عليك ان تميز كلامه من كلام غيره ، ان كنت ممن يأدب بكلامه ، لما تحس من افكار سديدة ما خان اللفظ ولا السبك كاتبها ، فشخصية الجاحظ تلمسها اذاً فى كل موضوع جالت فيه يراعه ، وهذا قلما نعرف مثله كثيراً لغيره من العلماء والادباء ، وأسلوبه خاص به ، لا ينازعه فيه منازع ، وجماع عوامل الاحسان مستوفاة فى كلامه

نوابغه

ضرب المثل بادب الجاحظ و بيانه وسعة عبارته « حتى كان يقال من دلائل اعجاز القرآن ايمان الجاحظ به » ومن الخير لطلاب البلاغة اذاً ان يعنوا النظر بكلام الجاحظ ، ليسمو بانفسهم طريقة ، و يتواضعوا فى الجملة طرازاً لانه

دروس البــلاغه ، و سعرفوا مىرانه الدقىق فى فمه اللغه ، « اى النظر فى مواقع الالفاظ وأىن اسعملها العرب » و « تحرى الالفاظ المعمـدة عن طرفى المرانه والاسـدال » ، و « احساب كل صنعه تحرح الدهن عن اصـل المعى أو تسوش علىه »

قالوا إن « مدار البلاغه على تحسن اللفظ وتحمل الصورة » وحظُ الحاحظ من هدا كان حرىلاً حسنت بلاغىه فى كل عىن ، لتحملها ىىراعىه فى تحىر حـ د الالفاظ ، وتحافىه عن اسىحدام النمىل فى مىرانه ، وقد ىىمد اللفط الواحد و ىسعمل معناه ، و ىؤدى المعى ىعــده الفاط ، واللفطه الواحده ىُحرىه ، وفى الفاظ الاعىان ىصع السىء موصعه ، و ىطىق كل اسم على مسماه قال مره « لىس للعرب اسم لمـا لا ىىصر باللىل ، وهو الدى ىقال له سَمَـكور ، ا كىر من أن ىقولوا له هُدىدٌ » وقال فى وصف كىاب بالقدم « كىاب مىقادم الميلاد دهرىُ الصىعه » ، وكانه كان ىصع ىعص الفاظ او ىسعمل مالا عهد ىاسعماله و له مىل قوله « المرو ىون والىلدىون » ، « اللعو ىون والمعمو ىون » اطلق هدا على من ىسعلون بالالفاظ و ىسعلون بالمعانى ، فمعرفه ابى عىمان ىوقع الكلمه فى ىفس القارى وىىىىره الدقىق ىىن حى الالفاظ وممىها ، وسهلها وصعىها ، سىب أول فى ىفوقه فى ىلاعىه

وملاك الامر عنده أبداً ان ىكون اللفط سمحاً لا كىراً [1] ، والاسعاد عن المعانى النافهه ، والقوالب المسىكرهه ، ولطالمـا أوصى طلاب البلاغه ان لا ىكون اللفط عامىاً ساقطاً سوقىاً ، ولا وحسىاً عرىباً وقال « الاسعانه بالعرىب عحر » « الا ان ىكون المىكلم ىدو ىاً أعرابىا ، فان الوحسى من الكلام ىفهمه الوحسى

(١) ىقال رحل كىر الىدىن دو كىرر أى بحل ، والىكرار الىىس والانقىاص

من الناس ، كما نفهم السوقي رطانة السوقي » ، والمعوّل عليه في هذا الباب أن « لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة » ، فهو إذاً ممن سوا في تدمث اللغة ، على نحو ما تدمثت طبائع الأمة العربية بالحضارة

وقد أبان عن طريقته الواضحة فقال « وقد يستخفّ الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً ، وتدع ما هو أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر » « وسخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم ، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني » ويقول إن لكل قوم ألفاظاً حَظِيت عندهم « وكذلك كل بليغ في الأرض ، وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر وصاحب كلام موزون ، فلابد من أن يكون قد لهج[1] وألف ألفاظاً بأعيانها ، ليديرها في كلامه ، وإن كان واسع العلم ، غزير المعاني ، كثير اللفظ »

قال وأنا أقول في هذا قولاً ، وأرجو أن يكون مرضياً ، ولم أقل أرجو لأني أعلم فيه خللاً ، ولكني أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب وذلك أنه قيل لصُحَار[2] العبدي ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره أياديه وإحسانه ؟ قال أما نحن فإنا نرجو أن يكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغاً رَضِياً وهو يعلم أنه قد وفاه حقه الواجب ، وبفضل عنا لا يجب قال صُحَار كانوا يستحبون أن يَدَعوا للقول مُتَنَفَّساً ،

(١) لهج به كفرح أغرى به فثابر عليه

(٢) صحار بن العباس العبدي وفد على النبي وكان من أخطب الناس وأبينهم

وأن يتركوا فيه فضلاً ، وان يتجافوا عن حق ان أرادوه لم تُمنعوا منه ، فلذلك قلت ارجو ، فافهم ، فهّمك الله تعالى

« فإن رأى فى هذا الضرب من هذا اللفظ ، أن اكون ما دمت فى المعانى ، التى هى عبارتها والعادة فيها ، ان ألفظ بالشىء العتيد الموجود ، وادع التكلف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل ، الا بعد الرياضة الطويلة ، وارى ان الفظ بالفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً فى صناعة الكلام ، مع خاص أهل الكلام ، فان ذلك افهم عندى واخف لمؤنتهم علىّ ولكل صناعة الفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم الا بعد ان كانت مشاكلا بينها وبين تلك المعانى وقبيح بالمتكلم ان يفتقر الى الفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة ، او فى مخاطبة العوام والتجار ، او فى مخاطبة اهله وعبده وأمته ، أو فى حديثه اذا حدث ، او خبره اذا اخبر ، وكذلك من الخطإ ان يجلب الفاظ الاعراب والفاظ العوام ، وهو فى صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل »

ذلكم رأى الجاحظ فى وضع الالفاظ مواضعها فى التأليف وكلامه فيه غنى عن الشرح والتعليق ، فهو لا يدعوك فى وضع القاعدة التى سنّها لك ، الا ان تدبر ما قال ، وتعمل به فى اختيار اللفظ الموافق ، واما المعانى فقد قال ان حكمها خلاف حكم الالفاظ ، لان المعانى مبسوطة الى غير غاية ، وممتدة الى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة وهنا روى عن غيره « قال بعض جهابذة الالفاظ ونقاد المعانى المعانى القائمة فى صدور العباد ، المتصورة فى اذهانهم ، والمتخلجة فى نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة ،

لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه ، والمعاون له على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره وإنما يحيا تلك المعاني في ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل ، وتجعل الخفيّ منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً وهي التي تخلص الملتبس ، وتحل المنعقد ، وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفاً ، والوحشي مألوفاً ، والغُفل موسوماً ، والموسوم معلوماً وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي ، هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه ، وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم »

« وقال مَن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وَفقاً ، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقاً ، ولهول تلك المقامات معاوِداً ، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم »

قال « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صاحبه صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة ، ومتى كانت الكلمة على هذه

السرنطه ، وبعدت عن قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، ما لم يمنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة »

قال « ومتى شاكل ابقاك الله اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وَفقاً ، ولذلك القدر لفقاً[1] ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قَميناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً ان يمنع جانبه من تناول الطاعنين ويحمى عِرضه من اعتراض العائبين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب الى النفوس ، واتصل بالاذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الاسماع ، وارتاحت له القُلوب ، وخفَّ على السن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريض[2] ، ومن أعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذَنوبا[3] حبب إليه المعانى ، وأسلس له نظام اللفظ ، وكان قد اغنى المستمع عن كد التكلف واراح قارئ الكتاب من علاج التفهم »

وقد يقع للجاحظ ان يكرر القصة الواحدة فى عدة اماكن من كتبه ورسائله ، يريد اثباتها فى الاذهان ، وامن البلاغة واختيار الالفاظ لإلباس المعانى الصورة اللائقة مما نُعنى به ، فقد قال فى رسالة « مدح التجار وذم عمل السلطان » ما لم يخرج عن قوله فى هذا المعنى فى البيان والتبيين وفى الحيوان

---

(١) يقال للرجلين لا يفترقان هما لفقان والوفق والوفاق والصفقة والفوقة والسنة والعدل واحد

(٢) يقال ناقة ريض كسيد أول ماريضت وهى صعبة بعد

(٣) الحظ والنصيب والدلو او فيها ماء أو الملأى أو دون الملأى

وعيرهما قال ثم حـده بعرنف حجج الـكتاب ، ويخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض ، وأدقه حلاوه الاختصار ، ورائحه الـكفايه ، وحذره التكلف ، واستكراه العباره ، فان اكرم ذلك كله ما كان افهاماً للسامع ، ولا يحوج الى التاويل والتعقب[1] ، ويكون مقصوراً على معناه ، لا مقصراً عنه ، ولا فاصلاً عليه ، فاحذر من المعاني مالم يكن مسوراً باللفظ المتعقد ، معرقاً في الاكثار والتكلف ، فما اكثر من لا يحمل باستهلاك المعنى مع براعه اللفظ ، وغموضه على السامع ، بعد ان يتسق له القول ، وما زال المعنى محجوباً لم يكشف عنه العباره ، فالمعنى بعـد مقيم على استحفائه ، وصارت العباره لغواً وظرفاً خالياً ، وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل ان يهيئ المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجرُّ اليه المعنى جراً ، ويلزقه به إلزاقاً ، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه الإفصاح عنه الا به ، والآفه الـكبرى ان يكون رديء الطبع ، بطيء اللفظ ، كليل الحـد ، شديد العجب ، ويكون مع ذلك حريصاً على ان يعدّ في البلغاء ، شـديد الكلف بانتحال اسم الادباء ، فاذا كان كذلك خفي عليه فرق ما بين اجابه الالفاظ ، واستكراهها لها

« فالجمله ان لكل معنى شريف او وضيع ، هزل أو جـد ، او حرفه او صناعه ، ضرباً من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه ، الذي لا ينبغي ان يجاوزه ، او يقصر دونه ، ومن قرأ كتب البلغاء ، وتصفح دواوين الحكماء ، ليستفيد المعاني ، فهو على سبيل صواب ، ومن نظر فيها ليستفيد الالفاظ ، فهو على سبيل الخطأ ، والخسران هاهنا في وزن الربح هناك ، لان من كانت غايته انتزاع الالفاظ

(١) التعقب للكتب والالتفات

حمله الحرص عليها ، والاستهتار بها ، الى ان يستعملها قبل وقتها ، و يضعها فى غير مكانها ؛ ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه « أنا أشعر منك » قال صاحبه ولِمَ ذاك ؟ قال « لأنى اقول البيت وأخاه ، وانت تقول البيت وابن عمه ، و انما هى رياضه وسياسه ، والرفق مصلح ، والآخر مفسد ، ولابد من هذين ، وطبيعه مناسبه ؛ وسماع الالفاظ ضار ونافع ؛ فالوجه النافع أن تدور فى مسامعه ، و تغيب فى قلبه ، و تختم فى صدره ، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت ، فكانت نتيجها أكرم نتيجه ، وثمرها أطيب ثمره ، لانها حينئذ تخرج غير مسترقه ، ولا مختلسه ولا مُغتصبه ، ولا داله على فقر ، اذ لم تكن القصد الى شئ بعينه ، والاعتماد عليه دون غيره ، و بين الشئ اذا عشش فى الصدر ، ثم باض ثم فرخ ثم نهض ، و بين ان يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً ، فرقٌ بين » وقال « ان كلام الناس فى طبقات كما ان الناس انفسهم فى طبقات ، فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والقبيح ، والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، و بكل قد تكلموا ، و بكل قد تمادحوا وتعايبوا »

وقد اعجب بما يستخدمه رواه الاخبار من السهوله فقال « ورأيت عامتهم — فقد طالت مشاهدتى لهم — لا يقفون إلا على الالفاظ المتخيره ، والمعانى المنتخبه ، وعلى الالفاظ العذبه ، والمخارج السهله ، والديباجه الكريمه ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك المحكم ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى اذا صارت فى الصدور عمرتها ، واصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغه ، ودلت الاقلام على مداق الالفاظ ، واشارت الى حسان المعانى ؛ ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رواه الكتّاب أعم ، وعلى ألسنه حذاق الشعراء أظهر » يعنى أن الجاحظ لا يرى للكاتب ان يستعمل من

الألفاظ إلا ما طفهه العامة ، والكاتب تكتب لنُفهم لا لنُعجم ، وتتوخى المعانى الجديدة التى تصلح فساد القلوب ، وتعمر بها الافئدة والعقول

قال الجرجانى فى دلائل الاعجاز واعلم ان من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته ان لم يحتج واضعه الى فكر وروية حتى انتظم ، بل ترى سبيله فى ضم بعضه الى بعض سبيل من عمد الى لآل فخرطها فى سلك لا يبغى اكثر من أن يمنعها التفرق ، وكمن نضّد أشياء بعضها على بعض لا يريد فى نضده ذلك ان يجىء له منه هيئة او صورة ، بل ليس إلا ان تكون مجموعة فى رأى العين ، وذلك إذا كان معناك معنى لا يحتاج ان تصنع فيه شيئاً غير ان تعطف لفظاً على مثله كقول الجاحظ « جنّبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك و بين المعرفة نسباً ، و بين الصدق سبباً ، وحبب اليك التثبت ، وزين فى عينك الانصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، واشعر قلبك عزّ الحق ، واودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما فى الباطل من الذلة ، وما فى الجهل من القلة »

واسمع الآن هذه الجملة يسجع فيها الجاحظ سجع الحمام ، قال فى كتابه ذم العلوم ومدحها يصف القرآن « حجة على الملحد ، وبيان للموحد ، وقائم بالحلال المنزل ، والحرام المفصل ، وفاصل بين الحق والباطل ، وحاكم يرجع اليه العالم والجاهل ، و امام يقام به الفروض والنوافل ، وسراج لا يخبو ضياؤه ، و مصباح لا يخزن ذكاؤه ، وشهاب لا يطفأ نوره ، و بحر لا يدرك غوره ، ومعدن لا ينقطع كنوزه ، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار ، ومرشد يدل على طريق الجنة والابرار ، وزاجر يصد عن المحارم ، و مجير يوم المحاكم »

وكما يرى الجاحظ أن الواجب تخير اللفظ الكريم للمعنى الكريم ، لم ير

طرح الألفاظ السخيفه للتعبير عن المعانى السخيفة ، كان يرى نقل عبارات العوام ونكات الأعراب بألفاظها ، وقد حشى كتابه البخلاء والحيوان بطائفه من ألفاظ عامة الطبقات فى عصره ، فعُدَّ ذلك فى جملة إفصاله على اللغه ايضاً ، قال « ومتى سمعت حفظك الله نادرة من كلام الاعراب ، فاياك وان تحكيها إلا مع اعرابها ومخارج الفاظها ، فانك ان غيّرتها بان تلحن فى إعرابها ، واخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكايه وعليكَ فضل كبير وكذلك اذا سمعت نادره من نوادر العوام ، وملحه من ملح الحشوه والطغام[1] ، فاياك أن تستعمل فيها الاعراب ، وان تتخير لها لفظاً حسناً ، او تجعل لها من فيك مخرجاً سريًّا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ، و يخرجها من صورتها ، و من الذى أُريدت له ، ويُذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها » وهو يرى « أن المبتذل لا يبتذل كما ان الفصيح لا يفصح ، لان المبتذل تكلفه نبله عن المبتذل ، والفصيح تغنيه فصاحته عن التفصح ، ولم يتزيد أحد قط الا لنقص يجده فى نفسه »

ووضع القاعدة الكليه لطالب البلاغه فقال له « وقد علمنا أن من يقرض الشعر و يتكلف الاسجاع ، و يؤلف المزدوج ، و يتقدم فى تحبير المنثور ، وقد يتعمق فى المعانى ، ويتكلف اقامه الوزن ، والذى تجود به الطبيعه وتعطيه النفس سهواً رهواً[2] ، مع قله لفظه وعدد هجائه — احمد امراً ، واحسن موقعاً من القلوب ، وانفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج ، ولان التقدم فيه ، وجمع النفس له ، وحصر الفكر عليــه ، لا تكون الا ممن يحب السمعه ، ويهوى الفَلَج[3] والاستطاله »

***

(١) الطغام كسحاب أوغاد الناس والحشوه (بكسر الحا وضمها) العوام

(٢) الرهو السير السهل ، والسهو السهل

(٣) الفلج الظفر والفوز كالافلاج والاسم بالضم كالفلجه

يخوف الجاحظ من فساد كبير يبدأ يعرض لبلاغة هذه اللغة ، عند ما شرعت العرب تنقل كتب العلوم القديمة إلى العربية ، وقد شاهد النقلة ضعافاً فى البيان ، وأقرب إلى الركاكة فى الألفاظ وسبكها ، حتى أفسدوا المعانى وأبهموها فضيقت على الناس ، وكان يعتقد أن هذه العلوم لا يفهمها فى الحقيقة إلا من عاناها مهما بان تأولوها فى نقلها قال « إن كتاب المنطق لو قرئ على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب ، لما فهموا أكثره ، وكذلك كتاب أقليدس ، وهو عربى وقد صُفى ، لو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ، ولا يمكن ان يفهمه من يريد تعلمه ، لأنه يحتاج الى ان يكون قد عرف جهة الأمر ، ويعود اللفظ المنطقى الذى استخرج من جميع الكلام » وقال « وبدء الإنسان لا يكون إلا خرقاء ، ولا يصير صَناعاً [1] ، ما لم تكن المعرفة ثقافاً لها ، واللسان لا يكون أبداً حاذقاً فى طريق البيان ، متصرفاً فى الألفاظ ، إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به ، متقلة له ، واضعة له فى مواضع حقوقه ، وعلى أماكن حظوظه »

و إليك الآن رغبة فى الترجمة والنقل ، وما ينبغى لهما من البلاغة ، وما السبيل اليها « وقال بعض من ينصر الشعر و يحوطه و يحتج له ، ان الترجمان لا يؤدى أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ، و يؤدى الأمانة فيها ، و يقوم بما يلزم الوكيل و يجب على الجرى [2] ، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها على حقها وصدقها ، إلا ان يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب

(١) يقال رجل صنع اليدين بالكسر والتحريك وصنيع اليدين وصناعهما حاذق فى صنعة من قوم صنعى الأيدى نصبة ونصبين وتصحيف وتكسير وأصناع الأيدى

(٢) الجرى الوكيل للواحد والجمع والموت ، والرسول والأجير والضامن

ورواصمه ، فمى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمه وابو قره وابن فهر وابن وهيلى وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ، ومتى كان خالد مثل افلاطون
ولا بد للترجمان من ان يكون بيانه فى نفس الترجمة ، فى وزن علمه فى نفس المعرفه ، وينبغى ان يكون أعلم الناس باللغه المنقوله والمنقول اليها ، حتى يكون فيها سواء وغايه ، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا انه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحده من اللغتين تجذب الأخرى ، وتاخذ منها وتعترض عليها ، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه ، كتمكنه اذا انفرد بالواحده ، وانما له قوه واحده ، فان تكلم بلغه واحده استفرغت تلك القوه عليها ، وكذلك ان تكلم باكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمه لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم اعسر واضيق ، والعلماء به اقل ، كان أشد على المترجم واجدر ان يخطئ فيه ، ولن تجد مترجماً يفى بواحد من هؤلاء العلماء هذا قولنا فى كتب الهندسه والتنجيم والحساب واللحون ، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين واخبار عن الله عز وجل »

وما عجب ابو عثمان من رجل عرف لغتين ، فكان اماماً فى البلاغه ، غير موسى بن سيار الاسوارى ، قال انه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسيه فى وزن فصاحته بالعربيه ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرا الآيه من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربيه ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسيه ، فلا يدرى باى لسان هو أبين ، واللغتان اذا التقتا فى اللسان الواحد ادخلت كل واحده منهما الضيمَ على صاحبتها

وقال فى معنى الترجمه ومسخها لبلاغه الشعر المنقول ، وكيف تُحمل النقل

المبانى والمعانى « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب والشعر لا يستطاع ان يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حُوّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه وصار كالكلام المنثور ، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك ، أحسن من المنثور المنقول من موزون الشعر وقد نُقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً ، ولو حُوّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن ، مع إنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم وقد نقلت هذه الكتب من أمة الى امة ، ومن قرن الى قرن ، ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها »

اما اذا تأملنا قول الجاحظ فى النقل ، وما يجب ان تكون عليه الناقل من المقدرة ، ليسهل فيجد من لغة الى لغة ثانية ، نستطيع ان رأيه هذا لا يختلف عن احدث الآراء فى عصرنا ، وكذلك اذا تدبرت ما قاله فى هذا المعنى ، تقرأ رأياً لرجل افنى عمره فى الترجمة والنقل ، ولا نبعد كثيراً عن محجة الصواب اذا حكمت بعد ذلك أن الجاحظ كان يترجم الى لغته عن لغة أخرى فى الاحايين والارجح ان هذه اللغة هى الفارسية وفى ذلك اشارات فى البيان والتبيين ، وقد رأيناه يعجب من موسى بن سيار بلاغته فى اللغتين عند تفسيره القرآن للعرب بالعربية ، وضعف ان يحكم هذا الحكم الصريح من لم يحسن اللغتين ، ومن لم يكن جهبذاً فى البلاغة وما تقتضى لأعلى طبقة منها من اللفظ الجزل المأنوس والسبك المتين

جدله ونقده

لا يرى الجاحظ ، صاحب العقيدة الراسخة والايمان الصحيح ، طريق النجاة للناس ، الا اذا فهموا الاسلام على حقيقته كما فهمه هو ، وكان ابداً حرباً على من خالفوا الدين ، وحرباً على الملحدين والكافرين الذين يحملون على السمع التي انفصلت من الإسلام ، وعبثت بشيء من فروعه ، فرد على المشبهة وعلى الجهمية وعلى العبادية وعلى الرافضة وغيرهم وجادل اليهود والنصارى من اهل الكتاب بالتي هي احسن واهم ما اهتم به الرد على الزنادقة والمانوية والمريدين ، والطاعنين على من حاولوا من أرباب النحل القديمة أن يعيدوا فى ملتهم من ابطلوا له الاسلام[1] ، مثل رده على من ألحد فى كتاب الله ، ورده الذى عنى له[2] « نصرة عثمان المريد » وغير ذلك

كتب الجاحظ كل هذا ، وبعض المتطفلين من الحشوية ، او المتطفلين فى الدين والمتمسين[3] فيه يعدونه مقصراً ويطلقون السنتهم فيما كتب ، وليس لهم ما يؤيد افتراءهم عليه غير دعواهم المجردة وقفوا فى عصره وبعده يكذبون عليه ، ومنهم من بلغت به الفحة ان يخرجه من الدين ، ومنهم من بلغ به السخف أن يخرجه من الإنسانية ، ومن الغريب ان اولئك الغُيُر على الاسلام لم يحدثهم انفسهم أن يكسبوا فضلاً واحداً فى دفع اعدائه ، وراحوا ، وراس مالهم الباطل ، يعترضون من دون حياء على من كان فى مثل قوة الجاحظ فى تصديه لرد شبه المخالفين أما أرباب العقول المستنيرة ، المنزهون عن الاغراض فى الحكم على

(١) الملة بالكسر الشريعة أو الدين وعلل وامل دخل فيها
(٢) عن الكتاب وعنه وعنونه وعنا كتب عنوانه
(٣) تطفل فى الكلام تأنق فيه ، وتطع فى كلامه إذا تفصح فيه وتعمق والتمسن التلبس والاحتيال

الجاحظ ، فقد كانوا يعدون ظهوره في ذلك العصر ، عصر تسرب الشبهات والمجادلات الدينية ، نعمة عظيمة على الاسلام والمسلمين

واغرب من هذا دعوى بعض أصحاب الجرح والتعديل ان الجاحظ كان إذا روى حجج من يجادلهم من النصارى أوردها برمتها ، وقصر عمداً في رد أقوالهم ، تاركاً بعض النواحي الضعيفة في جوانبه ، وهو يرمي بروايته مقالات المخالفين ثم نقضها إلى أن يضعف الخصم فيضع امام الانظار حججه ، ثم يبددها بمؤده لا حدة فيها ولا عصب ، وقد يسخر ممن يفنده ويتهكم به ، ويمن يقول بقوله تهكم أدب وتهذيب ورسالته في الرد على النصارى تنادي بافصح لسان أن خصومه ظلموه وما أنصفوه وما كان لمؤلف أن يضع بالغة لترمى به حتى المعسس ، ومراض العقول واصحاب الاهواء ولولا ان الجاحظ كان الحجة الثبت في هذا الموضوع بين علماء عصره ، ما خشيه الفتح بن خاقان الوزير االم على التعجيل بتأليف رده على النصارى «وهَمَكَ بن رجل ، وناهيك بن عالم ، وسرعك[1] من صدرى» ان جادل أفحم ، وان الف كان الأعلم والأحكم

اجاب الجاحظ بعض من سمعوا عليه لنقله كلام المخالفين ثم تفرغه للرد عليهم بقوله «وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية كما عبتني اقول في اول كتابي وقالت العثمانية والضرارية ، كما عبتني اقول قالت الرافضة والزيدية ، فحكمت عليّ بالنصب لحكايتي ، فهلا حكمت عليّ بالتشيع لحكايتي ، وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية ، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة وقد حكينا في كتابنا قول الاباضية والصفرية ،

---

(١) يقال مررت برجل يسرعك من رجل اى حسبك يستوى فيه الواحد والجمع ، ومثله وهو رجل همك بن رجل وهمك من رجل حسبك

كما حكى ما قول الازارقه والزيدية وعلى هذه الأركان الاربعه بنت الخارجية وكل اسم سواها فانما هو فرع ونتيجه ، واستقاق منها ومحمول عليها ، وإلا كما عندك من الخارجه ، كما صربا عندك من الصرار به والناصبه ، فكيف رضيت بأن يكون أسرع من السبعه الى أعراض الناس من الخارجه ، اللهم الا أن يكون وجدت حكايتى عن العثمانيه والصرار به اسبع واجمع ، واتم وأجود وعنى بكتاب العثمانيه ، فهلا عنى بحكايه مقاله من أبى وجوب الامامه ، ومن يرى الامتناع من طاعه الأئمه الذين زعموا ان ترك الناس سدًى بلا قيم أرد عليهم ، وهملاً بلا راع أربح لهم ، واحذر أن يجمع لهم ذلك بين سلامه العاجل وغنيمه الآجل »

وفى كتابه حجج النبوة « والعجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار ، وترك المتكلمين القول فى تصحيح الاخبار ، وبالاخبار نعرف الناس النبى من المتنبى والصادق من الكاذب ، وبها نعرفون الشريعه من السنه ، والفريضه من النافله ، والحظر من الاباحه ، والاجماع من الفرقه ، والشذوذ من الاستفاضه ، والردّ من المعارضه ، والنار من الجنه ، وعامه المفسدة والمصلحه » وقال « ان كل منقوط ى محجوج ، والحجه حجتان عيان ظاهر وخبر قاهر فاذا تكلمنا فى العيان وما يتفرع منه ، فلا بد من المعارف فى أصله والمعارف فى فرعه ، فالعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما عله الاستدلال واصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الاصل ، ويكون الاستدلال مع عدم الدليل ، والعقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل ، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لابطال إحدهما وجه مع ايجاب الآخر والعقل نوع واحد والدليل نوعان احدهما شاهد عيان يدل على غائب ، والآخر مجىء خبر يدل على صدق »

كان الجاحظ محيطاً بما يحول فى قلوب أولئك الناقدين النافسين ، يعرف أنهم يبغون له العثرة ، و يقعدون له كل حين بالمرصاد فيترفع عن مجادلتهم ، لوقوفه على شأنهم ، ومثل هاته الطائفة كان على الأغلب بهرا بها و برجمها ولا يس بعد الجهل ذنب ، كما قيل ليس بعد الكفر ذنب وقد وصف ن كانوا يعترضون سبيله و يحسدونه حسد لؤم وعداوة ، بقوله « إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسى ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته [1] ، وأكثر ما يكون هذا منهم ، إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير ، والحط والرفع ، والترهيب والترغيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة [2] فإن أمكنتهم الحيلة فى إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذى ألف له ، فهو الذى قصدوه وأرادوه ، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً نقريساً [3] تلعاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معانى ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدوه الى ملك آخر ، ومتّوا [4] إليه به ، وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً الىّ وموسوماً بى وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى ، وأحيله على من تقدمنى عصره ، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب الحكمة و يحيى بن خالد والعتابى ،

---

(١) نصيح خلص

(٢) المغتلمة من الإبل التى غلبتها شهوة الضراب

(٣) النقاب بكسر النون الرجل العلامة ، أو النافذ فى الأمور كما فى الأساس ، والنقرس بكسر النون أيضا الطبيب الماهر النطاسى المدقق كالنقريس

(٤) مت اليه بحرمة ما توصل بقرابة او دالة

ومن أسمه هؤلاء من مؤلفي الكتب ، فماتنى أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذي كان احكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته على ، وبكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه اماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ، ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عن أنفسهم من طلاب ذلك الجنس ، فثبتت لهم به رياسة وأتم بهم قوم فيه ، لأنه لم يترجم باسمى ، ولم ينسب الى بالدق »

هكذا يسير الجاحظ عقول حاسديه بمسبار علمه ، ويضحك ويضحك من لؤمهم وعمايتهم ، وأبت نفسه ان يحاورهم ، وهو جد عارف بقدر ما يكتب ، وبما يرمى اليه من المقاصد في وضع اسفاره واطالما وطن نفسه على اسماع سخف السخفاء في أحكامهم المتحاملة[1] عن الحق ، قال « لان كل من التقط كتاباً جامعاً ، وباباً من امهات العلم مجموعاً ، كان له غنمه ، وعلى مؤلفه غُرمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كده ، مع تعرضه لمطاعن البغاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة » وبديهى أن المتأولين والحسدة لا يرضيهم منه الا ان ينقطع عن التأليف لتساويهم في قصورهم ، ولذلك كان من الطبيعى ان لا يناقشهم لانهم ظلموا المنطق في حواره ، وأبهموا وما ابانوا في وجوه اعتراضهم على افكاره ، والكلام المجمل يحتاج الى تفصيل ، وهم عاجزون عن الإدلاء بحق ، وهو في غُنية عن ان يعرض لكلام من قتلهم الحسد

على انه عرض في الحيوان لاولئك الذين ينالون منه بالباطل بقوله « ولولا سوء ظنى بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ، وظهر اصطناع الكتب في هذا

(١) حانف مال

الشعر ، لما احصت فى مداراتهم واستمالتهم ، وتوقيق نفوسهم ، وتسجيع قلوبهم ، مع كثرة فوائد هذا الكتاب ، الى هذه الرياضة الطويلة ، وإلى كثرة هذا الاعتدار ، حتى كأن الذى أقدمهم إياه أستمده منهم ، وحتى كأن رغبتى فى صلاحهم ، رغبة من رغب فى دينارهم » وقال فى عرض كتاب آخر « وقد جمعنا فى هذا الكتاب جملاً التقطناها من افواه اصحاب الاخبار ، ولعل بعض من لم يتسع فى العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام ، يظن أن تكلفنا له من الامتداح والتشريف ، ومن التزيد والتجويد ، ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره كلا والذى حرّم التزيد[1] على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج[2] الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا الا من ضلَّ سعيه » وما أحلى هـذا القسم وما اجمل مغزاه

ولما كان المعتزلة يتشددون فى الحديث وتأويله ورواته ، و يردون كثيراً مما لم يثبت من طرق موثوق بصحتها ، و يسمون المنكرين منه على علاته الحشوية ، أبت نفس الجاحظ بالضرورة ان تكون فى الحديث حاطب[3] ليل ، فما كان من الاحاديث مرضى الاسناد صحيح المخرج قبله ، وما كان مسخوط[4] الاسناد فاسد المخرج نبذه وكان الشهاب الزهرى يقول عن الحديث ورواته يخرج الحديث من عندنا شبراً ، و يعود فى العراق ذراعاً وكان مالك بن انس يقول اذا جاوز الحديث الحَرَّتين ضعف شجاعته ، وكان يسمى الكوفة دار الضرب لانها تصنع الاحاديث كما تضرب النقود ، وكان احمد بن حنبل يشك فى التفسير و يقول ثلاثة ليس لها اصل التفسير والملاحم والمغازى

(١) التزيد فى الحديث الكذب

(٢) البهرجة أن يعدل بالشىء عن الجادة القاصدة إلى غيرها

(٣) حاطب ليل مخلط فى كلامه (٤) المسخوط المكروه

هكذا روى أبو عثمان الحديث وأرواه ، وفهم « تأويل الأحاديث ، وأى ضرب يكون مردوداً ، وأى ضرب منها يكون متأولاً ، وأى ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل » وقال « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون »

غلب الصدق على الجاحظ حتى ليتحاشى الحط على احد من أهل الملل والنحل ، وما جور القول على من يخالفه اثنا كان وكائنا من كان ، « ولم يذكر محاسن الخوارج ، ولم يخبر عن مآثرهم لانه يتولاهم[1] ، ولا لانه يميل اليهم ، ولكنه خبر انهم مع مروقهم من الدين وخروجهم عنه وجهلهم به ، احسن او صادقا من الرافضة ، يخبر عن توثبهم للكذب على من عاداهم ، وجرأة الرافضة على الكذب عَلَى اعدائهم ، وخبر عن شعر الخوارج وتواجههم على ديونهم ، ووصف اصحابهم بالنسك والفضل ، ثم خبر عن شعر عمران بن حطان وحبيب ابن خُدرة واشباههما من شعراء الخوارج » قال الجاحظ « وهذا شعر السيد فانظروا فيه لتعلموا صدق الجاحظ ، وانه لم يزيد على الرافضة حرفاً واحداً ، وقال ان الجاحظ بين في كتاب فضيلة المعتزلة ان الرافضة يقطعون آل أبى طالب عن العلم والعمل جميعاً ، و يوهمونهم أن المعاصى لا تضرهم ، وان الواحد منهم يشفع فيمن اراد ان يشفع ، وانه لم يسلم خلفه اصحاب رسول الله من المهاجرين والانصار من شتمهم وعداوتهم ، ولم يسلم من يتولوه من آل على بن يثبطهم عن العلم ، ويزهدهم فى العمل الصالح المقرب لهم الى الله ، فلم ينج منهم ولى ولا عدو »

ومن اجل هذا قال المسعودى فى كتب الجاحظ انها حسنة « ان لم تدع الى نصب » ، واهل النصب هم المتدينون ببغضة على بن ابى طالب فانهم نصبوا له

---

(١) تولى احد ولينا

أي عادوه رمنهم الحوارح والمعترله يحملون فى أمير المؤمنين عثمان بعد الاحداث التى أحدثها ، وا كثرهم يولاه ويناول له ؛ ومعظمهم على البراءه من معاويه وعمرو بن العاص ومن شايعهما ؛ ولا نعرف السرّ فى انحرافهم عن بنى أميه ، مع ان المعتزلة كانوا معتدلين فى الحكم عَلَى على بن أبى طالب يعطونه حقه من دون زياده ، ومعاويه وآله وانصاره جمعوا شمل الاسلام ولا نعتقد مع هذا ان رسالة النابته التى نسبت اليه وفيها اقذاع بالاموين هى من نالنعه ، كما لا نعتقد ان كتاب التاج وكتاب الاخلاق هما له ايضاً

يقول شيخنا طاهر الجزائرى ان الجاحظ قد سلك طريق التوريه كما سجل عليه ذلك بعض عصريه من ابناء نحلته كابى جعفر الاسكافى وتوريه الجاحظ توريه عاقل ذى بصيره ، إذا موه يكاد يظهر الحق من خلال تمويهه ، وقد يصرح بغير ذلك فى موضع آخر ؛ فالعاقل ذو البصيرة ينتفع بكلامه كيف كان ونقل ابن ابى الحديد ان الجاحظ الف كتاب العثمانيه انتصر فيه للخلفاء الراشدين الا انه أظهر ما يشعر بالنصب ، لما اوجبه طبيعه النصره على رغم بعضهم ، فتصدى له من أبناء نحلته الامام ابو جعفر الاسكافى فنقض كتابه ، وأطلق لسانه فى الجاحظ ؛ ومن ذلك قوله القول ممكن ، والدعوى سهله سيما على مثل الجاحظ فوله لغو ومطلبه سجع ، وكلامه لعب ولهو ؛ يقول الشيء وخلافه ، ويحسن القول وضده قال قاضى القضاة عبد الجبار فى طبقات المعتزله نقض الاسكافى كتاب الجاحظ فى العثمانيه فى حياته ، ودخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال من هذا الغلام السوادى الذى بلغنى أنه تعرض لنقض كتابى ، وابو جعفر جالس ، فاختفى منه حتى لم يره وكان ابو جعفر علويّ الراى محققاً منصفاً ، قليل العصبيه ، الف سبعين كتاباً فى علم الكلام اه

ووول اسادىا إن الحاحط ود ىعمد الى التو ىه ، وىعو ىهه ىمو ىه العاول ، كلام يحىاح إلى شرح فليل فان الحـاحط ود ىىفل ىعص المسائل على علاىها لا ىعرص لها ىىمد كما ووع له أن ىال من امىرى المؤمىس عمر ىں عـىد العرىز ومعاو ىه اىں أبى سفىان فىسب الى معاو ىه فى رسالىه الفىاں ما ىعدح فى عدالىه وما كان معاو ىه ىالمستهىر ولا ىالمىهتك ، ولم ىحرا حصومه اں ىىهموه ىسى مں دلك وعرىب من ابى عىمان اطلاوه هدا الفول مع حىه للحو حى فى معارعه اعدائه ولفـد شهدىاه ىدافع عں الحوارح لمـا امحىه ىسكىهم وامىىاعهم عں الـكدب على من حالفهم ، و ان لم ىعل ىفولهم فى ا كفار من رصى ىالتحكىم ، وحط من الرافصه لمـا رآهم ىصعون ما لا ىحل من الـكدب على الرسول وعلى محالفىهم ، واصلاهم ناراً من ىعده لمـا وصعوا آل على فى مىرله لا ىرصاها العفلاء من درىىه ، وفالوا ، ىعصمهم وان المعاصى لا ىصرهم

ومں هدا الصرب اسارىه الى ما ووع ىىں احمد ىں حىىل والمعىصم فى مساله حلو الفرآن فال الحاحط وىعد فىحں لم ىكفر الا من اوسعىاه حجه ، ولم ىمىحں الا اهل الىهمه ، ولىس كسف المىهم من التحسس ، ولا امىحان الطىں من هىك الاسىار ، ولو كان كل كسف هىكاً وكل امىحان تحسساً ، لـكان الفاصى اهىك الىاس لسىر ، واسد الىاس كسفاً لعوره ، والدىں حاصوا فى العرش ، اىما ارادوا ىفى التسىىه فعلطوا ، والدىں أىكروا امر المىران اىما كرهوا أن ىكون الاعمال أحساماً وأحراماً علاطاً ، فان كانوا فد اصابوا فلا سىىل علىهم ، و اں كانوا فد احطاوا فان حطاهم لا ىحاوز ىهم الى الـكفر ، وفولهم وحلافهم ىعد طهور الحجه ىسىىه للحالق ىالمحلوق ، فمں المدهں ىں اىں المرىں وفد فال صاحىكم للحلىفه المعىصم ىوم جمع الفعهاء و المىكلمىں والفصاه والمحىاىں

إعداراً و اندارآً امسحسى وأنت نعرف ما فى المحنه وما فيها من الفسه ، ثم امسحسى من بين جميع هده الأمه قال المعتصم احطات بل كدبت وحدت الخليفه على ود حسبك ومدك ، ولو لم نكن حسبك على بهمه لأمعى الحكم فيك ، ولو لم تَحَفْك على الإسلام ما عرض لك ، فسؤالى إياك عن نفسك ليس من المحنه ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كسف العوره ، اد كانت حالك هده الحال ، وسبيلك هده السبيل وقيل المعتصم فى دلك المجالس ألا بعث الى اصحابه حتى يشهدوا اقراره وىعاسوا انقطاعه فينقص دلك استبصارهم فلا يمكنه جحد ما اقر به عندهم فابى ان يفعل دلك وانكره إلى آخر ما دكر

مذهب الجاحظ فى الدين كمذهبه فى العلم ، مذهب العقل وصدق الحس لا يحكِّمُ غيرها ، ولا يَحكُمُ سواها لا جرم ان احلاف اهل السنه والجماعه مع المعتزله احلاف لا يعتد به كثيراً ، والمسائل المختلف فيها لا تمس بأصل من أصول الدين ، فمن قال مثلاً بان الله يرى فى الآخره له أدلته من الكتاب ، ومن قال بان الله لا يرى يأول بعض الآيات لإثبات قضيته ، ومن قال ان الفاسق مخلد فى النار او لا مخلد ، فلا يعلق على كلامه كبير امر فى الدين يقول ابن حزم « ان أقرب فرق المعتزله الى اهل السنه اصحاب الحسين بن محمد النجار وبشر بن غياث المريسى ثم اصحاب ضرار بن عمرو وأبعدهم أصحاب ابى هذيل »

ومن يثبت له كالجاحظ كل هده الحسنات فى الدفاع عن الدين ، لا يضيره اذا رأى رأى غيره فى مسائل طفيفه والناس منذ كانت الدنيا لا يتفقون فى كل الامور فقد شهدنا الجاحظ نفسه يخالف احد أساتذته فى بعض الآراء فما قدح دلك فيهم ، ولا عُدَّ عمله من سوء الادب وإذا ادركنا ان معظم ما كتبه فى

الدين قد فقد بتحمل مبلغ سعة الدعاية التي دُبرت عليه وعلى كتبه خاصة وعلى المعتزلة عامة . يقول ابن أبي الحديد ان المرتضى لما رأى الجاحظ وافق فرصة مرة استجاد قوله فكناه ، مع أنه ما كناه أصلاً قال « فسبحان الله ما أشد حب الناس لعقائدهم »

رأينا الجاحظ يجادل أهل الكتاب بالحسنى فنفى عن النصارى لما جاء محاجيهم معرفة الفلسفة ، و يقول ليس لهم « الا حكمة الكتب من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون[1] وكتب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العُلوى والمجسطي والهندسة والطب ليست للنصارى ، بل هي لارسطاطاليس وبطلميوس واقليدس وجالينوس وديمقراط وابقراط وغيرهم » « هؤلاء الناس من أمة قد بادوا و بقيت عقولهم ، وهم اليونان ، ودينهم غير دينهم ، وأدبهم غير أدبهم اولئك علماء وهؤلا صناع أخذوا كتبهم لقرب الجوار ، وتداني الدار ، فمنها ما أضافوه الى انفسهم ، ومنها ما حولوه الى ملتهم » وقال ان أكثر من قتل من الزنادقة — ممن كان ينتحل الاسلام و يظهره — هم الذين آباؤهم وامهاتهم نصارى ، على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ، ومواضع التهمة لم تجد اكثرهم الا كذلك » قال « ومما عظم النصارى في قلوب العوام ، وحببهم الى الطغام ، ان منهم كتاب السلاطين وفراش الملوك ، وأطباء الاشراف ، والعطارين والصيارفة ولا تجد اليهودى الا صباغاً أو دباغاً أو حجاماً ، أو قصاباً أو سعاباً[2]

وذكر أن المسلمين يحبون النصارى اكثر من اليهود ، لان النصرانية كانت فاشيــة في العرب وعليها غالبة ، الا مُضَر فلم تغلب عليها يهودية

(١) البزيون السندس (٢) السعاب اللثم وحرفته السعابة

ولا مجوسيه ، ولم تفشُ فيها النصرانية ، الا ما كان من قوم منهم ، نزلوا الحيرة يسمون العباد ، فانهم كانوا نصارى وهم معمورون[1] مع نبذ[2] نسير فى بعض القبائل ، ولم تعرف مصر الا دين العرب ثم الإسلام ، وغلبت النصرانيه على ملوك العرب وقبائلها على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقُضاعه وطى فى قبائل كثيره وأحياء معروفه ، ثم ظهرت فى ربيعه فغلبت على تغلب وعبدالقيس وافناء[3] بكر ثم فى آل ذى حَدَن[4] خاصه وجا الإسلام وليست اليهودية غالبه على قبيله ، الا ما كان من ناس من اليمانيه ، ونبذ يسير من جميع اياد وربيعه ، ومعظم اليهوديه انما كان بيثرب وحِمْيَر وتَيماء ووادى القرى فى ولدِ هارون دون العرب ، فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى ، المُلكُ الذى كان فيهم ، والقرابه التى كانت لهم ، ثم رأت عوامنا أن فيهم ملكاً قائماً ، وأن فيهم عرباً كثيره ، وأن بنات الروم وَلَدن لملوك الاسلام ، وأن فى النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفه حكماء ، ولم يروا ذلك فى اليهود

وقال فى وصف حال الفلسفه عند اليهود « انهم يرون أن النظر فى الفلسفه كفر ، والكلام فى الدين بدعه ، وأنه مَجلبه لكل شبهه ، وانه لا علم الا ما كان فى التوراه وكتب الانبياء ، وان الايمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقه ، والخروج إلى الدهريه ، والخلاف على الاسلاف وأهل القدوه ، حتى أنهم ليبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام سالك سبيل أولئك »

وقال فى علاقه المسلمين بالنصارى « على أن هـذه الامه لم تبتل باليهود

---

(١) المعمور الخامل (٢) النبذ الشئ القليل اليسير

(٣) الهاء محركة الكثير ، وبالسكون الجماعه (٤) قيل من أقيال حِمْيَر

ولا المجوس ولا الصابئين ، كما ابتليت بالنصارى ، وذلك انهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف الاسناد من رواياتنا ، والمتشابه من آى كتابنا ، ثم يَخْلُون بضعفائنا و يسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك ربما تبراوا الى علمائنا واهل الاقدار منا ، و يشغبون على القوى ، ويُلَبِّسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى انه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من احد »

ويفسر هذا أن الجاحظ عُنى بالرد على من نال من الاسلام ، ولم يتخلَّ حتى عن الكتابيين ، واحسن تعليل صلات النصارى بالمسلمين ، واعترف بان من دانوا بالنصرانية يعرفون كيف يدخلون الشبه على عقول الاغمار من المسلمين ، وقال ان النصارى ليسوا اهل حكمة ، وان الحكمة خاصة باليونان ، و انما النصارى اهل صناعات رفع الى بلادهم شىء من علوم اليونانيين ، واليونان مخالفون للنصارى فى دينهم ونارتحهم وادبهم ، واليهود لا يعرفون شيئاً غير التوراة ، و يسدون ما عداها من العلوم ، وصناعاتهم حقيرة ، وصناعات النصارى شريفة ، وان ما عطف قلوب جمهور المسلمين على أبناء النصرانية الا الصلات الكثيرة التى باصلت بين النصارى والعرب بالمصاهرة والاختلاط ولان فيهم ملكاً قائماً

كثر الزنادقة فى عهد الجاحظ واهتم لذلك الخلفاء ، فقال هو بالعرب الى أيديهم قائلاً « اجمعوا على ان قتل البعض احيا للجميع ، وان اصلاح الناس فى اقامة جزاء الحسنة والسيئة ، ولكم فى القصاص حياة ، والقَوَد حياة ، وهذا شىء تعمل به الامم كلها غير الزنادقة ، والزنادقة لم تكن قط أمة ، ولا كان لها مُلك ومملكة ، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق »

وأجاب من قال له ان الزنادقة كانوا حرصى على كتب المقالات بالورق

النقى الأسص ، والحجر الاسود واسحاده الحط « ان إنفاق الرنادقه على تحصل الكتب ، كانفاق النصارى على البيع ، ولو كانت كتب الزنادقه كتب حكم ، وكتب فلسفه ، وكتب مقاييس ، وسنن تبين وتدين ، اولو كانت كتبهم كتباً تعرف الناس أبواب الصناعات ، اوسبل المكسب والتجارات ، أو كتب ارتفاقات ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب ، وإن كان ذلك لا يقرب من عنيّ ولا يبعد من مأثم ، لكانوا ممن قد يجوز ان يظن بهم تعظيم البيان ، والرغبه فى التبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانه على طريق تعظيم المله ، فانما انفاقهم فى ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار ، وكإنفاق النصارى على صلبان الذهب ، وكانفاق الهند على سَدَنه البدده[1] والذى يدل على ما قلنا انه ليس فى كتبهم مَثَل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعه أدب ، ولا حكمه غريبه ، ولا فلسفه ، ولا مسأله كلاميه ، ولا تعريف صناعه ، ولا استخراج آله ، ولا تعليم فلاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا مقارعه عن دين ، ولا مناضله عن نحله ، وجلُّ ما فيها ذكر النور والظلمه ، وتناكح الشياطين ، وتسافد العفاريت لا ترى فيها موعظه حسنه ، ولا حديثاً موبقاً ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسه عامه ، ولا ترتيب خاصه ، فاى كتاب اجهل ، واى تدبير افسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعه والتحرج بالديانه على جهه الاستبصار والحميه ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا يحبون الا ديناً أو دنيا وكل دين يكون اظهر فساداً احتاج من الترويج والتمويه ، ومن الاحتشاد له ، والتغلظ فيه ، الى اكثر ، وقد علمنا ان المعمرانيه

---

(١) البد الصنم معرب بت تد وأبداد بيت الصنم ، والسدنه واحدها سادن وهو خادم الصنم وأطلق فى الاسلام على خادم الكعبه

أسد انتشاراً من اليهودية تعبداً ، فعلى حسب ذلك تكون زندقتهم فى توكيده ، واحتفالهم فى اظهار تعلمه »

وقال فيهم وفيمن تحت مسالكهم « وربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له ان الزنادقة ظرفاء ، وانهم عقلاء وادباء ، وأنهم عباد ، واصحاب اجتهاد ، وأن لهم التصابر فى دينهم ، والبذل لمهجهم ، وأن هناك علماً وعمراً ، وإنصافاً وتحصيلا ، فنزو نحوهم نزو الثّهر الارن(١) ، ويحن إليهم حنين الواله المخبول ، ويصبو فيهم صبابة العاشق المتيم ، ويرى أنه متى انتهى بهم فقد قضى له بذلكَ كله ، ولا يزال كذلك حتى تسهل فى طاعته ، ويرجح عنده أن يزعم انه زنديق »

وقال فى نعت الدهريين « فان الذى نفى الرب ، ويجهل الأمر والنهى ، وينكر حوار الرسالة ، ويجهل الطينة قدمه ، ويجحد الثواب والعقاب ، ولا يعرف الحلال والحرام ، ولا يقرُّ بان فى جميع العالم برهاناً يدل على صانع ومصنوع ، وخالق ومخلوق ، ويجهل الفلك الذى لا يعرف بنفسه ن غيره ، ولا يفصل بين الحدث والقدم ، وبين المحسن والمسئ ، ولا يستطيع الزيادة فى حركته ، ولا النقصان من دورانه ، ولا معاقبة للسكون بالحركة ، ولا الوقوف طرفة عين ، ولا الانحراف عن الجهة هو الذى يكون به جميع الاجرام والابعض ، ودقيق الامور وجليلها ، وهذه الحكم العجيبة ، والتدابير المتقنة ، والنافع المدبرة ، والتركيب الحكيم ، على حساب معلوم ، ونسق روف على غاية ن حقائق الحكمة ، واحكام الصنعة لان الدهريّ ليس يرى ان فى الارض ديناً أو نحلة او شريعة أو ملة ، ولا يرى للحلال حرمة ولا رفه ، ولا للحرام نهاية

(١) الارن النشيط ، وبدرو يثب

ولا نعرفه ، ولا نوقع العقاب على الإساءة ، ولا نرجى الثواب على الإحسان ، وانما الصواب عنده والحق فى حكمه ، أنه والبهيمة سيان ، وأنه والسبع سيان ، ليس القبيح عنده الا ما خالف هواه ، وان مدار الأمر على الاخفاق والدَرك ، وعلى اللذة والألم ، وانما الصواب فيما نال من المنفعة ، وان فشل الف انسان صالح لمنالة⁽¹⁾ الدرهم الردىء »

وقال فى المسانيد اصحاب مانى « ان اناساً حين جهلوا الاسباب والمعانى ، وقصروا فى الخليقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا الى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الاشياء وزعموا ان كونها بالاهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش وأُعِدّ فيها من ضروب الاطعمة والاشربة والمآدب ، ووضع كل شىء من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير ، فجعلوا يسعون فيها يمينا وشمالا ، فلا يبصرون هذه الدار وما أُعِدّ فيها ، وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع فى موضعه وأعد لشأنه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمر وسخط وذم الدار وبانيها »

« فهذه حال هذا الصنف فى انكارهم ما انكروا من الخليقة ، وأنهم لما عدت أذهانهم عن معرفة الاسباب والعلل فى الاشياء ، صاروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفهمون ما هو عليه فى اتقان خلقه ، وصواب هيئته ، وربما وقف الواقف منهم على الشىء يجهل سببه والارب فيه ، فيسرع الى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والاحالة ، كالذى أقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة ، وأشباههم من أهل الضلال تخوّى على من انعم الله عليه بمعرفته ، ووفقه لما فى هذه الخليقة ، والوقوف على ما فى خلقها من لطف التدبير ، وصواب التقدير ،

(١) النال والمنال والمنالة مصدر نلت أنال

بالدلائل القائمة فيها ، أن لا يقصر فى اظهار ما يأمنه عليه من ذلك ، بل يجهد فى نشره و اذاعته و ايراده على المسامع والاذهان ، لتقوى دواعى الايمان ، وتجتنب مكيدة الشيطان »

هذه نموذجات من اساليب الرد على من خالفوا الإسلام ، ولا سيما المانوية والزنادقة والملحدين ممن كانوا يعملون على هدم كل معتقد ، و يأذى الاسلام بدعوتهم ، وتسرى فى اذهان العوام وقال فى المجوسية ولم يرتبط داذين تحول الى المجوسية عن دينه ولم يكن ذلك المذهب الا فى صنعة من اهل فارس والجبال ، وخراسان كلها فارسية فان عجبت من استسقاطى لعمل كسرى ابرويز وآبائه واجداده ووزرائه وكتابه واطبائه وحكمائه واساورته فانى اقول فى ذلك قولا لا يعرفه الا من لبس الى العصبية دهب

راى ابو عثمان ازال العقوبات فى العابثين بالاديان فقال « من لم يعمل باقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل فى موضع القتل ، واحيى فى موضع الاحيا ، وعفا فى موضع العفو ، وعاقب فى موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، واعطى ساعة الاعطاء ، خالف الرب فى تدبيره ، وظن ان رحمته فوق رحمة ربه ؛ وقد قالوا بعض القتل احياء للجميع ، و بعض العفو اغرا ، كما ان بعض المنع اعطاء ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، و شر منه من كان شره صرفاً ، ولكن اخلاط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والاعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فان الناس لا يهابون ولا يصلحون الا على الثواب والعقاب ، والاطماع والإخافة ، ومن اخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم يسخر وعرف بذلك ، و من عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه ؛ فخير الخير ما كان ممزوجاً ، و شر الشر ما كان صرفاً ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده ، لكان الله عز وجل اولى

بذلك الحكم ، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأمة في جميع الأقطار ، وفي جميع
الأعصار ، على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على أن الصواب فيه دون
غيره ، وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام
وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء
وذلك المكروه محبوباً »

ويراعي سمعك في تلاوة الجملة الآتية رد على من لم يحسن من العلماء تعليل
أمية رسول الله ، وكيف جاءه فأحسن حجاجه ، ودله على قصور علمه وضعف
منطقه ، قال « وكان شيخ من النصرانيين يقول إن الله إنما جعل نبيه أمياً
لا يكتب ، ولا يحسب ولا ينسب ، ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ،
ولا يتعمد البلاغة ، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، ويقصره على
معرفة مصالح الدين ، دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر ، وعيافة الطير ،
ومن العلم بالأنواء وبالخيل ، وبالأنساب والأخبار ، وتكلف قول الأشعار ،
ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب ، كان ذلك أدل على
أنه من الله ، وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ، ليكون
أنقص حظاً من الحاسب والكاتب ، ومن الخطيب الناسب ، ولكن ليجعله
نبيًّا ، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى ؛ فإنما نَقَصَه ليزيده ، ومنعه
ليعطيه ، وحجبه عن القليل ، ليجلي له الكثير

قال الجاحظ وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير ، وقال بمبلغ علمه
ومنتهى رأيه ، ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة ، وأداة قرض الشعر وجميع
النسب ، قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم
صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة ،

وكان اذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، و اذا احتاج إلى الخطابة كان اخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، ولو كان فى ظاهره ، والمعروف من شأنه انه كاتب حاسب وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم اعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لامره ، على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم ، ولكنه اراد ان لا يكون للشاعر مُتَعَلَّق عما دعا اليه ، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب و ان رق ، وليكون ذلك أخف فى المؤنة ، وأسهل فى المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الامور التى كانوا يتكلفونها و يتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته ، صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة ، فأما فى غير ذلك ، فإنه اذا شاء كان انطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب ، واقوف من كل قائف ، وكانت آلته أوفر ، وأداته اكمل ، الا انها كانت مصروفة الى ما هو ابعد ، و بين ان تضيف اليه العادة الحسنة وا متناع الشيء عليه من طول الهجران له فرق»

قال « ومن العجب ان صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام فى حال معجزة قط ، بل لم يره الا وهو و ان طال الكلام قصر عنه كل مطيل ، و ان قصر القول اتى على غايته كل خطيب ، وما عدم منه الا الخط و اقامة الشعر ، فكيف ذهب ذلك المذهب ، والظاهر من امره عليه السلام غير ما توهم »

و يخيل الى من يتدبر هذا الكلام انه لم يفهم من أمر الرسول عالم من المحدثين والقدماء ما ادركه الجاحظ من هذه الصفة البشرية فى النبى خاصة ، و اذا فهمه فيستحيل عليه ان يكتب فكره بهذا البيان

انظر اليه ينقد على السلف فى تقصيرهم فى سيرة الرسول ، يقول ان الناس

الدين جمعوا القرآن فى المصاحف بعد أن كان متفرقاً فى الصدور ، والدين جمعوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقاً غير محظور ، والدين حصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان لو كانوا جمعوا علامات النبى صلى الله عليه وسلم و برهانه ودلائله وآياته ، وصنوف بدائعه ، وأنواع عجائبه ، فى مقامه وظعنه ، وعند دعائه واحتجاجه فى الجمع العظيم و بحضرة العدد الكثير الدين لا يستطيع الشك فى خبرهم إلا الغبى الجاهل والعدو المائل لما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد ، ولا دهرى معاند ، ولا متطرف ماجن ، ولا ضعيف مخدوع ، ولا حدث مغرور ، ولكان مشهوراً فى عوامنا كشهرته فى خواصنا ، ولكان استبصار جميع اعدائنا فى حقهم كاستبصارهم فى باطل نصاراهم ومجوسهم ، ولما وجد الملحد موضع طمع فى غبى يستميله وفى حدث يموه له ، ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الدين نطقوا بالسنتنا واستعانوا بعقولنا على اغبيائنا واغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر و اظهار البارز والاحتجاج الواضح اه

كان الجاحظ على سعة صدره ، وطول أناته ، لا يغفر التخليط لأى كان ممن عاصرهم او تقدموا زمنه ، نافسهم و نافسوه خصوصاً اذا قصروا فى الكلام وادعوا ما ليس فيهم وخاضوا فيما لا يحسنون الخوض فيه فقد رأيناه آنفاً ينحى الجا سديداً على الخليل بن احمد وعلى عبد الله بن المقفع ، لانهما تكلما فى الكلام اموراً عدها جرأة على العلم و من رأيه ان الرجل اذا اتقن الصنف والصنفين من العلوم يجب أن لا يدعى غيرهما ، و يحجم عن ماهيات العلوم الاخرى فلا يتطاول إلى ما لا يعلم ، فالخليل بن احمد صاحب العروض والنحو كان يجب ان ينتهي فى فنه لا يتعداه ، وكذلك عبد الله بن المقفع كان المفروض فيه ، وهو ما هو فى البلاغة والحكمة واختراع المعانى ، ان لا يتعدى ذلك الى البحث فى الكلا

ولذلك أوجع الجاحظ هذين المؤلفين العظيمين لأنهما تعدّيا إخصاصهما في العلم ، وعدّها شذوذاً لم يُسمع فيهما ذكاؤهما النادر ، وجهلهما إحصائهما في الفنون الأخرى قال في كتابه طبقات المغنين بعد أن ذكر ابن الخليل بن احمد واضع علم العروض فلما أحكمه وبلغ منه ما بلغ احد في تفسير اللحون فاستدرك منه شيئاً ورسم له رسماً احتذى عليه من خلفه ، واستعمله من عني به ، وكان اسحاق بن ابراهيم الموصلي اول من حذا حذوه وامتثل هديه واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل ابن احمد قبله وقال في الموصلي انه الف في الغناء كتباً مفتنة « وسهل له فيها ما كان يستصعباً على غيره ، فصنع الغناء بعلم فاصل ، وحذق راجح ، ووزن صحيح »

ويقابل المرء يبدو متى عالج عملاً ليس منه بسبيل ، فقد كتب المسعودي في سنان بن ثابت الحراني لما وضع كتاباً في الأخلاق يقول « انه انتحل ما ليس من صناعته ، واستنسخ ما ليس من طريقته ، وهو وإن احسن فيه ، ولم يخرجه عن معانيه ، فانه عيب لانه خرج عن صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته ، ولو اقتصر على علمه الذي انفرد به من انواع الفلسفة ، لكان قد سلم مما تكلمه ، وأبى عما هو أليق بصنعته ، ولكن العارف بقدره مغرور ، والعالم بمواضع الخلة مفقود »

كل هذا يعالجه الجاحظ في نطاق الانصاف والادب بأسلوب لا يخلو من لذع وتهكم ومن أقواله وان امرأً اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب واضح البرهان ، على اختلاف اهوائهم وتعنتهم لكل ما ورد عليهم ، فان قال قائل هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره ، وتطعن فيه وترى غيره ، قلنا ان الروافض ليست مما نشتغل ، لأن من كان اذانه غير اذاننا ، وصلاته غير صلاتنا ، وطلاقه غير طلاقنا ، وعتقه غير عتقنا ، وحجه غير حجنا ، وفقهاؤه غير فقهائنا ، وامامه غير امامنا ، وقرآنه غير قرآننا ، وحلاله غير حلالنا ، وحرامه غير حرامنا فلا نحن منه ولا هو منا

سئل الحاحط مره ما ناويل هـده الآنه (وكدلك أحد ر بك اذا أحد القرى وهى ظالمه ، إن أحده أليم شديد) فقال ناو يلها بلاوتها وبحن إدا سلما ماهى الصنعه أو التثقيف او الفن فى كلام الحاحظ نقول ندبروا كلامه ندركوا مبلغه من الصنعه وادا كان لا بد من تحليل صنعته نقول كان اساع ابى عثمان فى اللغه لا نسبه اساع اللغويين ، اسبطن من أسرارها ما يقل استبطان مثله على غيره ، وعرف طوائف من الالفاظ تصلح فى الأدب ، وطوائف تصلح فى الزراعه ، وأحرى للصناعات واعمال الحياه ، وغيرها للدساب و طالب الـ مى ، عدا ما حص بمعرفته من الالفاظ الصالحه لـكل سان كان حد عارف عما يحار و يطرح ، يقدر اللفظه تحرسها وزنها ، وما سوقع ن نا ير نوو يها ويلحصها اذا قرنت الى أختها ، و بمير الثقيله والخفيفه ، والمانوسه ن الوحسيه ، فيحتار ما يؤدى حمله حق الادا ، فابداعه فى فنه يرجع اولا الى ما يحار ن الالفـاظ كان بحاثاً وباء فى آن واحد يجود يحسن احجاره ، و يحسن رصفها فى البناء ، والمهاره كل المهاره فى ابراز المتماثل ن المواد الى حا ب ما يوائمها ، وقد يستجيد البانى أجمل الاحجار لبنائه ، واذا لم يحسن الهندسه فقد البناء روعته المشعرة بان البانى عليم بالجمال يقول الـ سكرى « ان المعانى مشتركه بين العقلاء ، فربما وقع المعنى الجيد للسوقى والنبطى والزنجى ، و انما يتفاضل الناس فى الالفاظ ورصفها وتاليفها ونظمها »

اعظم ما يدور حوله صـنعه الحاحظ إذاً اداؤه فى تصميده ن نحر الالفاظ الملائمه امواجه فى صدره هو لم يستعمل الا ما عذب فى المذاق ، وحلا فى

السمع ، وما تحذلق قط فا كره حش الالفاظ على اداء صمصف المعانى ، وما ع
الى سهل اللفظ للافصاح عن سهل المعنى ، وهواه أبداً ان يختير ألفاظاً لمعانيه
لا معانى لالفاظه يسير مع الطبع ، ولا يتكلف السجع ، ويكتفى منه بما جا
عفواً فى الاحاسيس ، مجانفاً عن حسونه العمل ، ووعوثه (١) التعقيد ، وآ
صنعته ولوعه بتصوير المعانى ، وتقريبها من الأذهان لتخرج المالى تشىء يس
فى نفسه اذا عرفنا كل هـــذا كشف لنا بعض الغطاء عن ماهيته ا
البداعة وفنه

وقد افصح عن صنعته بقوله « ومتى ابكل صاحب البلاغة على الهو ،
والوكال (٢) ، وعلى السرقة والاحتيال ، لم ينل طائلا (٣) ، وشق عليه
النزوع (٤) ، واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوء العادة والوجه الصار ا
يحفظ الفاظاً بعينها من كتاب بعينه ، او من لفظ رجل ، ثم يود ان يجد لتلك
الالفاظ قسمها من المعانى ، فهذا لا يكون الا مجلا فقيراً ، وحائفاً مروفاً ، ولا يكو
الا مستكرهاً لالفاظه ، متكلفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف ، منقطع النظام
فاذا مر كلامه بنقاد الالفاظ وجهابذة المعانى استجهروا عقله ، وبهرجوا علمه
ثم اعلم ان الاستكراه فى كل شىء سمج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو
فى الطرف اسمج ، وفى البـلاغة اقبح ، وما احسن حاله ما دامت الالف
مسموعة من فمه ، مسرودة فى نفسه ، ولم تكن مخلدة فى كتبه ، رجز اسكـ

(١) وعث الطريق كسمع وكرم تعسر سلوكه ، والوعث لمكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام والطريق العسر
(٢) الوكال هو الاتكال من تواكلوا مواكلة ووكالا اذا اتكل بعضهم على بعض
(٣) الطرب بطائل والطائلة الفضل والقدر والغنى والسعة
( ) النزوع النسبة

ما اذا أعدت النظر فيه زادك في حسنه » ومعنى قوله هذا ان خير الكتاب ، من لم يستظهر ألفاظاً بعينها ، ليكررها على الاندماج في تراكيبه وبلا انتقال من الالفاظ الا السهل ، حتى يجوز رضا النقاد ، وأن يجعل نصيحته لدواوين المعاني لا لدواوين الالفاظ « ويسر العلماء بن هنا رسم المعنى قبل ان يهتى المعنى » عشماً للفظ الذي يريد الخامة ولعل السبب في أنه لم يات من اللغويين كتاب عظماء كونهم حصروا اذهانهم في الالفاظ ، وما عانوا مواطن الاستعمال ، فلاوا حافظتهم بالجيد والرديء ، وعدوه كله من الجيد ، لانه كان من محفوظهم ، فاذا جاءوا يدبسون استعملوا كل ما وجدوا امامهم او ذكروه ، فقصروا في الديان ، وانقطعوا عن اللحاق بالبلغا

وفى نظره « ليس الكتاب إلى شيء احوج منه الى افهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلى الرويه ، ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن الفاظ السفلة[1] والحشوه ، ويحطه بن غريب الاعراب ووحشى الكلام ، وليس له ان يهذبه جداً ، وينقحه ويصفيه ويروقه ، حتى لا ينطق الا بلب اللب ، وباللفظ الذى قد حذف فضوله ، وبعرقه واسقط زوائده ، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه ، فانه ان فعل ذلك لم يفهم عنه ، الا بان يجدد لهم إفهاماً ، مراراً وتكراراً ، لان الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت افهامهم لا تزيد عن عاداتهم ، إلا ان ينعكس عليها ويوجد بها »

فالطريقه عنده اذاً الا يكثر المنشئ من التصفيه والتروق في الالفاظ ، ولا يرسل كلامه في الناس ، مغترباً بما جادت به قريحته بادى الراى فهو يريد التنقيح ، ولكنه لا يوصى بالاكثار منه ، لان في التعمق الزلل ولما كان

(١) سفلة الناس (بكسر السين) كفرحه واسافلهم وغوغاؤهم

على علم بان « قسه الرحل نشعره ، وفسه بكلامه وكسه ، فوق فسه بجميع بعمه » اوصى من بكسب كتاباً « ان لا تكسه إلا على ان الناس كلهم له اعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرع له » قال أبو زيد البلخى ما احسن ما قال الجاحظ « عمل المسىء مشغول ، وعمل المصفح فارغ » قال أبو عثمان « ثم لا ترضى بذلك حتى تدع كتابه عقلاً ولا ترضى بالرأى الفطير ، فان لابتداء الكتب فتنة وعجباً ، فاذا سكنت الطبيعة ، وهدأت الحركة ، وتراجعت الاخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه ، فيوقف عند فصوله ، توقف من يكون وزن طمعه فى السلامة ، أنقص من وزن خوفه من العيب »

دل الكاتب بهذا على الوقت المناسب لاعادة النظر فيما كتب اما هو فكان يحسن اختيار الزمن لتحرير كلامه فى فوائده المعهودة احسانه اختيار موضوعه وقد حكى تلميذه المبرّد عنه قال رأيت الجاحظ يكتب شيئاً فيبتسم ، فقلت ما يضحكك ؟ قال اذا لم يكن القرطاس صافياً ، والمداد نامياً ، والقلم مواتياً ، والقلب خالياً ، فلا عليك ان يكون غائباً وهذا الكلام لا يصدر عن غير متفنن ، ومن غيار الجاحظ ، ولذلك جاءت كتبه كثيرة الحموية والمائية ، تبسم وتغازل وترقص وتغنى

قال الجاحظ « وليس فى الارض انسان الا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعتريه الغلط فى شعره وفى ولده ، الا ان الناس فى ذلك على طبقات من الغلط فمنهم المغرق المغمور ، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ ، ومنهم من يكون حظوه مستوراً لكثرة صوابه ، فما احسن حاله ما لم يمتحن بالكشف ، ولذلك احتاج العاقل فى استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقى ، ومن اعادة النظر والتهمة ، الى اضعاف ما يحتاج اليه فى سائر ذلك »

وانظر اليه بعد هذا يصور لك كاتباً « خلا بعلمه عند فقد خصومه ، واهل المنزلة من صناعته » ويقول ان « صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه ، فما اكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة ، لانه ابتدا الضرب وهو ساكن الطباع ، فاراه السكون ان الصواب في الإقلال ، فلما ضرب تحرك دمه فاشاع فيه الحرارة ، فزاد في غضبه ، فاراه الغضب أن الرأى في الإكثار ، وكذلك صاحب القلم ، فما اكثر من يبتدي الكتاب ، وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة »

فهذا نمت مرية الجاحظ من الصنعة معروبه الى موهبه الفطرة المفطور عليها لا يطيل كلامه ولا يحبره ، ولا يرسله حالا ، يسيل سيلا ، بل يطرقه اذا خلا بنفسه ، فيحذف فضوله ، واذا اضاف إلى ذلك تخير العذب السائغ من الألفاظ للإفصاح عن المعاني الصريحة ، كان في ذلك البلاغة وجماع الصنعة المعجزة انظره مثلاً في كلامه على الخصاء في الانسان كيف يعبر في جمله قصيرة عن معانٍ كثيرة دقيقة ، ويقول في سهولة وتهكم « وكل خصاء في الدنيا فانما اصله من قِبَل الروم ، ومن العجب انهم نَصارى ، وهم يدَّعون من الرأفة والرحمة ورقة القلب والكبد ، ما لا يدعيه أحد من جميع الاصناف » فهذا الايجاز واللفظ المنتقي ، صور المعنى الذي يريد لنقض دعوى النصارى التفرد بالرحمة والشفقة ، وقال انهم المتفردون بين الأُمم في ارتكاب هذه الكبيرة

وشرح هذه العادة في الرد على الروم بقوله ومما يدل على قلة رحمتهم ، وفساد قلوبهم ، انهم اصحاب الخصا من بين جميع الامم ، والخصا اشد المُثلة ، وأعظم ما ركبه الانسان ، ثم يفعلون ذلك باطفال لا ذنب لهم ولا دفع عندهم ، ولا نعرف قوماً يُعرفون بخصاء الناس حسب ما كانوا الا بلاد الروم والحبشة ، وهم في

عبرهما فلىل واقل قليل ، على انهم لم سعلوا الا منهم ، ولا كان سب فى دلك عيرهم

لا حرم أن فن الحاحظ يحسن تصوبره ، لا يترك محالا لان يدعى عليه القارئ اول قصور ، يصور لك كالمصور المبدع بالعبارة ، وقد يبسطها او يمصها ، و يصور بالاساره ، و بالشاهد والواقع ، حتى لا يحرج من كلامه الا وقد وعيت أموراً يخيل إليك انك سُحرت ، لما عمَر به صدرك وقلبك مما املى عليك ومن اهم مافى الحاحظ من صنعه ان كلامه قليل الاستعارات والكنايات والمجازات والتشبيهات ، لا يأخذ منها الا بقدر معلوم عند الحاجه ، لان صفا ديباجته ، ونصاعه معانيه ، لا يحوجانه الى الاستعانه بما يزوقه به حمله والقوى فى امتلاك ناصيه الكلام فى غُنيه عن هذه التهاويل والزحرف[1] والطلا تَ صُل ، و ان حَسُن فى الفن للنظره الاولى ، والعبرة بما يحيه من المقاطيع والمساميه ولىس معنى هذا انه اسقط الكنايه والاستعارة والمجاز والتمثيل حمله ، فانها الاقطاب التى تدور البلاغه عليها كما قال عبد القاهر ، وهى التى نوه بذكرها البلغا ، ورفع من اقدارها العلماء ، وصنعوا فيها الكتب حتى صار الكلام فيها نوعاً من العلم مفرداً حصوصًا الاستعاره والمجاز وخصله احرى وهى ان الحاحظ ليس من ارباب الخيال الواسع ولا العمق ، هو حلىق ان يعدّ فى حماعه المحسوسات ارباب الفلسفه الحسيه ، ولذلك كان بريره فى النثر اما سعره فلا يعدى حدَ الحكايه ، وتصوير حال وحَدَث ، واطالما بياسده وبدوقه

للحاحظ فصول كبيره يحله المحل الارفع من الابداع فى تصوبره ، ومما به

---

(١) الزحرف بالضم الذهب وكمال حسن الشى ومن القول حسنه بتحسين الكذب ومن الارض ألوانها ، والتهاويل الألوان المختلفه ، وزينه التصاوير والنقوش والحلى

ووصفه لا تقلّ عن معانيه فى الحكاية والرواية . انظر الى حكاياته ورواياته فى كتاب البخلاء ، وأمعن النظر فقط فى أقوال الكندى ، وخيّل بن يساحرون الدور وأخلاقهم وبلاغتهم ، تدرك قوة الجاحظ على الإبانة فى شؤون الحياة . وانظره فى رسالته مدح النبيذ وصفة أصحابه ، تدلى اليك بحجته فى المدح ، وحجته فى الذم ، ثم تحكى لك ولا تبالى أن حذاق الملوك وأصحاب العنايات التامة ، احتاجوا أن يداووا نفوسهم بالسماع الحسن ، و شدّوا من مَتنهم بالشراب الذى اذا وقع فى الجوف حرّك الدم ، و اذا حرّك الدم حرك طباع السرور ، ثم لا يزال رائداً فى مكيال الدم ، زائداً فى الحركة المولدة للسرور قال « هذه صفة الملوك وعليه سوا امرهم ، جهل ذلك بن جهله وعلمه من علمه » تأمل قوله جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه ، فان فيه صنعة ، و تنطوى على معان كثيرة

كتب رسالة النبيذ الى صديقه الحسن بن وهب ، ومما قال فى مدح النبيذ انه « اذا تمشى فى عظامك ، والتبس باجزائك ، ودب فى جماجمك ، مَنحك صدق الحس ، وفراغ النفس ، وجعلك رخى البال ، خليّ الذرع ، قليل الشواغل ، قرير العين ، واسع الصدر ، فسيح الهم ، حسن الظن ، ثم سد عليك ابواب الهم ، وحسن دركك الظن وخواطر الفهم ، وكفاك مؤونة الحراسة ، وألم الشفقة ، وخوف الحدثان ، وذل الطمع ، وكد الطالب ، وكل ما اعترض السرور وافسد اللذة ، وقاسم الشهوة ، واخل بالنعمة ، وهو الذى يرد الروح فى طباع النسان ، و يرد النسان فى بساط الصبيان ، وليس يخاف سار به الا مجاورة السرور الى الاشر ، ومجاورة الاشر الى البطر ، ولو لم يكن من أياديه و ه ، ومن جميل آلائه ونعمه الا انك ما دمت بمرحه بروحك ، وبراوح بينه وبين

دملك ، فقد اعفاك من الجد ونصبه ، وحبب إليك المزاح والفكاهه ، و بغّض إليك الاستقصاء والمحاوله ، وازال عنك بعض الحشمه ، وكد المروءه ، وصار يومه حماماً لانام الفكره ، وسهيلاً لمعاوده الرويه ، لكان فى ذلك ما يوجب الشكر و يطلب الذكر » ، و بالغ الذى حواه هذا الكلام حسب تعاطى التندد حى لمن لا يتعاطاه !

وأنت اذا نظرت الى رسالته فى القيان تراه إذا وصف تلك الوجه الحسن يكاد يبصره بعينك ، و اذا عرّض للقبيح يعرك منه أى نفور ألا يعجب منه اذا تلوت فيه اسطراً فلله فى وصف حال المغنيه فى عصره اذ يقول «وكيف تسلم القَينه من الفتنه أو يمكنها ان تكون عفيفه ، و انما تكتسب الأهواء ، وتعلم الالسن والاخلاق بالمنشا ، وهى إنما تنشا من لدن مولدها الى أوان وفاتها ، بما يصدُ عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والاخانيث ، و بين الخلعاء والمجان ، ومن لا تُسمع منه كلمه جِد ، ولا يَرجع الى ثقه ولا دين ، ولا صيانه مروءه ، وتروى الحاذقه منهن اربعه آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين الى أربعه ابيات ، عدد ما يدخل فى ذلك من الشعر ، اذا ضُرب بعضه ببعض عشره آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله الا عن غفله ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، و انما بنيت كلها على ذكر الزنا والقياده والعشق والصبوه ، والشوق والغلمه ، ثم لا تنفك من الدراسه لصناعتها منكبه عليها ، تاخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تخميس[1] ، و اسنادهم مراوده ، وهى مضطره الى ذلك فى صناعتها ، لانها ان جفتها تفلتت ، و ان اهملتها نقصت ،

(١) التخميس كالخمس المغازلة والملاعبة والمطارحون من يعلمون اغنا نها طرحت عليه اسالة وطارحته علم و غنا و طارحا

وإن لم تسعد منها وقعت ، وكل واقف فالى نقصان اقرب ، وانما فرق ما بين أصحاب الصناعات ، وبين من لا يحسنها التزيد فيها ، والمواظبة عليها ، فهى لو أرادت الهدى لم تعرفه ، ولو تعب العقه لم تقدر عليها وان ثبت حجه الى الهُدَى ثل عنها بحث على المفكر زال عنها خاصه ، لان فكرها وقلبها ولسانها ويدها مشاغل بما هى فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك فى نفسها لمن ولى مجالسها عليه وعليها »

ألست تلمس فى مفردات هــذا الكلام ومركباته فن الجاحظ ، تأمل قوله « ان جمعها تقلب وإن اهملها نقصت » وقوله « تأخذ عن المطارحين الذين طرحهم كله تحمس وإسادهم مراوده » وقوله « وكل واقف فالى نقصان اقرب » ، ونحن اذا اكثرنا من ايراد الشواهد من اقوال أبى عثمان ، فذلك لنخرج منها بدليل حسى نسقط به حجة خصومه فى دعواهم انه كان يقول الشئ ونقيضه ، على أن هذا ايضاً ضرب من البلاغة ، وأسلوب من أساليب الصنعة ، لا يتيسر مثله لغير افراد فى البلغاء ، وقد تؤتى الكاتب وضوعه على نفسه ، رغبة للوصول الى ذروة الوانا مُغرية ، ولكنه قد لا يرضى غيره ولا يلائم حاجة لامور بعينه

اسمع للجاحظ قطعه اخرى يعرض الك فيها جملة حال النساك ويصف لك طعامهم ، ويصف لك الدواعى التى اهابت بهم الى التنسك المصنع ، وتركوا الكدح فى الحياة ، ورضوا ان يكونوا حَلمه طعمليه على رزق غيرها قال « وجدنا لجميع اهل النقص ، ولاهل كل صنف منهم نسكا يعتمدون عليه فى الاعمال ، ويحتسبون به فى الطاعه وطلب المثوبه ، ويفزعون اليه على قدر فساد الطباع ، وضعف الاصل ، واضطراب الفرع ، مع خبث المنشا ،

وقلة التثبت والتوقف ، ومع كثرة التلف والإقدام مع أول خاطر ، فسكتُ المرتب المرتاب من المتكلمين ان يتحلى بزى الناس بالرتبه ، و يتربص باصابه ما يجد فى نفسه الى خصمه ، خوفاً من أن تكون قد فطن له ، فهو يستر ذلك الداء بزى الناس به ، ونسكُ الخارجى الذى يتحلى به و يتربا بحماله ، اظهار استعظام المعاصى ، ثم لا يلتفت الى مجاورة المقدار ، و الى ظلم الا ماد ، ولا يقف على أن الله تعالى لا يحب ان يظلم أظلم الظالمين ، وأن فى الحق ما وسع الجميع ، ونسكُ الخراسانى ان يحج و ينام على قفاه ، و يقعد الرياسه و بنهما للشهاده ، و يبسط لسانه بالحسبه وقد قالوا اذا نَسَكَ الشريف تواضع ، و اذا نسك الوضيع تكبر ، وتفسيره قريب واضح وسك الكوفى والجندى طرح الديوان وزيارة السلطان ، ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ ، ونسكُ الخصى لزوم طرسوس ، و اظهار مجاهده الروم ، ونسك الرافضى ترك النبيذ ، ونسك النبطى ترك شرب النبيذ ، ونسك المغنى الصلاه فى الجماعه ، وكثرة التسبيح والصلاة على النبى ، ونسكُ اليهودى التشدد فى السبت و اقامته ، والصوفى اظهار النسك بين المسلمين اذا كان فَسلاً[1] يعض العمل يطرف واظهر تحريم المكاسب وعاد سائلاً ، وحل فى مسألته وسيلته الى تعظيم الناس له و اذا كان النصرانى فسلاً نذلاً منبتاً للعمل ترهب ولبس الصوف ، لانه واثق انه متى لبس و تربا بذلك الزى وتحلى بذلك اللباس ، واظهر تلك السيما انه قد وجب على أهل اليسر والمروه منهم ان يعولوه و يكفوه ، ثم لا يرضى بان يربح الكفايه باطلاً حتى اسطال بالمراءه فاذا رمى المتكلم المرتب اهل المراءه ظن انه قد حوّل ريبته الى خصمه ، وحوّل براءة خصمه اليه ، و اذا صار كل واحد من هذه الاصناف الى ما ذكرنا فقد

(١) الفسل الرذل الذى لا مروءة له كالمفسول ج أفسل وفسول

بلغ الأمنية ووقف على النهاية ، فاحذر ان تكون منهم »

وزاد فى مكان آخر ذاكراً الدواعى التى دعت الحشوية الى التنسك ، فقال « ان نسك الحشوى غرو الروم لما أن كانوا هم الذين حشوه ، وقال إن نسك المتكلم التسرع الى اكفار اهل المعاصى ، وان يرمى الناس بالجبر او بالتعطيل او بالزندقة ، يريد أن يوهم اموراً منها أن ذلك ليس الا من بغضه للدين والإغراق فيه ، ومنها ان يقال لو كان نَطِفاً [1] أو مرتاباً أو مخسجاً [2] على نيته ، لما رمى الناس ولرضى منهم بالسلامة ، وما كان ليرميهم إلا بالذى فى قلبه ، ولو كان هناك من دل الريبة شىء لقطعه ذلك عن التعرض لهم ، او التسمية على ماء فى ان حركهم له ان يتحركوا ، ولم نجد فى المتكلمين انطف ولا اكثر عيوباً ممن يرمى خصومه بالكفر »

أرأيتم ابا عثمان يختم جملته الجميلة بقوله « فاحذر ان تكون منهم » بانى بها بعد ان وصف النساك ووصف سخفهم وقصرهم ، وبعد ان نبههم واسقطهم حذر منهم فعممه فقول « ولم نجد فى المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوباً ممن يرمى خصومه بالكفر » والمتكلمون هنا رجال الدين ، ولم لا يكره النساك ويدعو الناس الى كراهيتهم وهو الذى لا يقول بغير العمل فى المجتمع البشرى ؟ ومن مذهبه ان البارى تعالى منح عبده عقلاً وعرفه طرق الخير والشر وهو مسؤول عن عمله ، ولعلك أدركت ايضاً ان خطاب الجاحظ فى النسك كان موجهاً لكل من يقرأ كلامه عربيًّا كان أم اعجميًّا ، مسلماً كان ام كتابيًّا ، موافقاً كان ام مخالفاً لان الكاتب كاره للنساك على هذا الوجه مهما كانت صورهم

---

(١) النطف المتهم بريبة والفاسد

(٢) مخسج عليه نيته

وبحلتهم ، بعمد المضارّ التى يحلونها على المجتمع الإنسانى عامه ، وكلام الجاحظ فيهم سوى فى نفسك اثراً اذا تدبرته ، وهذا من صنعته وفنه ، وقد صَاغ كلمه لا يجرى فى غير ابداع ، فقد عقد فصلاً فى الشعر يكثر ويقل فى القبائل الواحد لدواع وبواعث ، لا لمكان الخصب من أرضهم ، ولا لانهم اهل مدر أو كالوبر ، وقد يكون هذا بعضهم رديئاً وباقى فيهم الشاعر « وانما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والأعراق مكانها » ، وقد ختم كلامه بقوله « وما أعلم فى الأرض نعمه بعد ولايه الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً »

وكذلك تأمل صنعته فى اثباته عن رايه فى عدم تغليظ حجاب النسا « ثم لم يزل الملوك والاشراف اماء يجلسن فى الحوائج ويدخلن فى الدواوين ، ونسا يجلسن للناس ثم كن يبرزن للناس احسن ما كن واشد ما يبرزن به ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب والدليل على ان النظر الى النساء كلهن ليس بحرام أن المراه المعنسه تبرز للرجال فلا يحتشم من ذلك ، فلو كان حراماً وهى شابه لم يحل اذا عنست ، ولكنه امر افرط فيه المفرطون حدّ الغيره ، الى سوء الخلق وضيق العطن[1] ، فصار عندهم كالحق الواجب » يدبر قوله ولكنه افرط فيه الخ ، فان فيه صنعه ، وكذلك قوله فى كتاب النسا ... ، ولا نقول احد ممن يعقل ، ان النسا فوق الرجال ، او دونهم بطبقه او طبقتين او باكثر ، ولكنا راينا أناساً يزرون عليهن اشد الزرايه ، ويحقرونهن اشد الاحتقار ، ويبخسونهن اكثر حقوقهن ، وان من العجز ان يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والاعمام ، الا بان ينكر حقوق الامهات والاخوال ،

(١) ... واسع العطن اذا كان رحب الذراع

فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن ناساً يفخرون بالجلد وقوة المُنَّة ، وانصراف النفس عن حب النساء ، حتى جعلوا شدة حب الرجل لأَمَتِه وزوجته وولده دليلاً على الضعف ، وبابا من الخَوَر ، لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب . قال : ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكبر وأظهر ، فليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات ، وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم . انظر أيضاً هذه الجملة بل مجموع العبارة الا ترى فيه حسناً من الكلام لا يحسنه كل انسان

دع هذا واسمع الى أبي عثمان يكتب في رسالة الفخر بالجارية « كل ثوب من اللباس والفرش ، اذا كان ألين وأنعم وأنقى كان أرفع ، وكل علق من الجواهر والأحجار ، اذا كان أصفى وأضوأ فهو أنفس ، وكل حيوان من الوحشية والأهلية ، إذا كان أجسم وأطوع فهو آثر والخير ، وكل انسان من السرية والوضيع ، اذا كان أعقل وأنبل فهو أجمل ، وكل امرأة حرّة او أمة ، اذا كانت أكثر سكوناً ، وأجمل حالا ، وأنزر طمعاً ، واشكر للناس فهي أصون ، وكل طير من السهلية والجبلية ، اذا كان آلف كان آثر ، وكل طارف وتالد ، اذا كان أزكى وأجل فهو أهنأ ، وكل عدو صغير او كبير ، اذا كان جميعاً فهو أعدى وأشد حسداً ، ومن لم يعرف ماواه فمحدور قربه » تأمل هذه القوافي التي لا تختلف ، وأنعم النظر في قوله « من لم يعرف ماواه فمحدور قربه » اما هو من شريف القول الذي يستسيغه كل أحد ويذهب في تأويله مذاهب ؟ ثم تراه في هذا الفصل يعود فيقول : والدول تنقل ، والأرزاق مقسومة ، فأجملوا في الطلب ، وارحموا المسكين ، واعطفوا على الضعيف ، تجاوزوا به وتنالوا ،

والقضاء خالب بحلب الامور ، وحعر النوم ما بدهب الإعياء والكسل ومعرفة الاسماء بالحواس الحس ، حوده السيء بالنطر ان تكون حسناً رائعاً ، و بالخاشوم ادا كان طيباً ارجا ، و بالمذاق اذا كان حلواً عذباً ، و بالسمع ان تكون صافى الوقع والصوت ، و باللمس أن تكون لساً ناعماً وكانب العجم تقول الفامه والبصر سر تكان ، والطعم والحس معمعان ، والفطنه والحفظ رفيقان ، والسمع والمنطق محتمعان ورعم سانور الملك انه ليس ينبغى للعاقل ان نعتد نقول سبعه من الناس نقول السكران والدلال والمصحك والعليل والعرّاف والنمام والنساء

الجاحظ مبعه النفس فى صنعبه ، كيف قلّب براعبه فكتب ، وبرنجانه الانس اذا جد وهزل ، سحلى صنعبه فى وصفه و رواسه وحكايته ، وفى حداله ونهر ره ، ربى بحمعه ونقله ، ونطلُ الانفس على روحه من كل باب ، وحيث تقلبتَ فى رياض كلامه تشرف على الوان الاحسان ، و باسر عقلك اذا طالب عسرلك له فتستسلم اليه مؤمناً ، و ان كنت من ضعاف الايمان فيما يحاول سوقك إليه ، واستاعك فيه

ونحتم هذا الفصل صغير رسم فيه الحاحط صوره أحرى من صُوَر صنعبه ، فى موضع حد الشبه صور الهزل رهو فى وصف الدناب نال ن فاحى اا سيره ورصمه فى الحى « نهايه الفصاحه والاتساع » قال « كان لنا بالبصره قاص نقال له عبد الله بن سرار لم بر الناس حا كما زمتاً[1] ركيناً ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك كان يصلى الغداه فى منزله ، رهو قريب الدار من مسجده فما فى محلسه و يحتى ولا يتكى ،

---

(١) الزمت الوقور وكاسكت اوقر منه

فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا تَحِلُّ حبوته ، ولا يُحِلُّ[1] رجلا على اخرى ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنى ، او صخرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود الى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة العصر ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد الى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، اذا بقى عليه شيء من قراءة العهود والشروط[2] والوثائق ، ثم يصلى العشاء الآخرة وينصرف فالحق يقال لم يقم فى طول تلك المدة والولاية مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه فى طوال الايام وفى قصارها ، وفى صيفها وفى شتائها وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ، ولا يشير برأسه ، وليس الا ان يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ بالتيسير من الكلام الى المعانى الكثيرة

« فبينا هو كذلك ذات يوم (فى مجلسه) وأصحابه حواليه ، وفى السماطين بين[3] يديه سقط على انفه ذباب فاطال المكث ، ثم تحول الى موق عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على الموق ، وصبر على عضه ، ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على انفه ، من غير ان يحرك ارنبته ، او يغضن وجهه ، او يذب باصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله واوجعه واحرقه ، وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل ، اطبق جفنه الاعلى على جفنه الاسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك الى ان يوالى بين الاطباق والفتح ، ف ... حتى ربما سكن

(١) فى رواية ولا يحول رجلا عن رجل ، والحبوة بالفتح والضم ، اسم من احتبى بالثوب اشتمل او جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها

(٢) فى رواية من ورا السجلات

(٣) فى رواية والسماط بين يديه ، وسماط القوم بالكسر صفهم

حمه ، ىم عاد الى موقه باسد من مرىه الأولى ، فعمس حرطومه فى مكان ، كان قد آداه فيه قبل دلك ، فكان احياله اقل ، وعحره عن الصبر عليه فى الثاىيه اقوى ، فحرك احفانه ، وراد فى سده الحركه ، وألحّ فى فتح العين ، وفى ىابع الفتح والإطباق ، فىحى عىه ىقدر ما سكىت حركىه ، ىم عاد الى موصعه ، فما رال يلحّ عليه حى اسىفرع صبره وىلع مجهوده ، فلم يجد ىدّاً من أن ىدبّ عن عيىه ىىده ففعل ، وعيون القوم ىرمقه ، وكأىهم لا ىروىه ، فىحى عىه ىقدر ما رد ىده ، وسكىت حركىه ، ىم عاد الى موصعه ، ىم الحاه الى أن دىّ عن وحهه ىطرف كمه ، ىم ألحاه الى أن ىابع دلك ، وعلم ان فعله كله ىعين مَن حصره من أمىائه وحلسائه ، فلما ىطروا إليـه قال اسهد أن الدىاب الحُّ من الحىفسا ، وارهى ىن العراب ، قال واسىغفر الله ، فما اكىر من اعحىه ىفسه ، فاراد الله عزّ وحل أن ىعرفه ىن صعفه ما كان عىه مسىوراً ، وقد علمىم اىى ، عىد ىفسى وعىد الىاس ، من أررن الىاس ، فقد علىى وفصحىى اصعف حلقه ، ىم ىلا قوله ىعالى (وإن ىسلىهم الدىاب سىئاً لا ىسىىقدوه مىه صعف الطالب والمطلوب) ، وكان ىىن اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان ىىساً فى أصحابه ، وكان احد من لم ىطعن علىه فى ىفسه ، ولا فى ىعرىص اصحابه المىاله »

ولا ىىقص هده الصوره البدىعه الا ان ىمسك الحاحظ ىرىسه المصور ، وىعمد الى اصباغه ولىفىه ، لىصور الماصى ىىده وىقاطيع وحهه وراسه وعىىىه ووحىىىه ولحىىه وسىىلاىه وىدىه ورحليه وعمامىه وقلىسوىه أو دىىه وحىىه وقفطاىه وسراوىله وحرامه وحداىه ، لىصىف الى صورىه صوره أحرى ىصوّر فاصى البصره صوره لا ىصل إليها المصور المبدع ، صور لما ىعىوىاىه ساعه ىسطا علىه

القناب ، وصور ما ندر منه ، وما انطوى عليه من وفار فى حم ح حالاته ، ثم انى على حسن سيرته وقلة فضوله ، فى حد كان الهزل فى معانيه و اشاراته ، لا فى ألفاظه ورصفها

تقر ننا حمال فن الجاحظ واستحلناه نتناول كل موضوع من عامه اطرافه ، لا نبى حاجه فى نفس سامع ونائل ، سهدناه مهما نعمت منعت من جهابذه النقد نستحيل عليه ان نقول انه قال كذا ، وكان الاولى ان نقول كذا ، وهذا من بعد مرماه فى الصنعة

علم و بحث

نقدم ان الجاحظ لم نقف معارفه عند حد المنقول ، وانه تعداها الى الاخذ من كل معقول ، وأن العلوم التى انجهت إليها همته ، احذفه فاخرجت منه عالماً فوق العلماء ، ولم يكن صَحَفيا ناخذ ن الكتب ما انفق ، بل كان نظاراً محققاً ندرس الاشياء ، و نعللها بحثاً وتفتيشاً كان مباحثه فى العلم مطولا واسعاً ، وهو فى كل ما خاض غماره احصائى وأعظم من كل احصائى تتناول كل ما تقع عليه الحس ، ونظره العين ، وتتشوف اليه الا نفس ولانس نظره فى كل ما عانى النظر المجرد ، بل نظر « الفلسفه والعرا ب التى صححتها التجربه ، وابرزها الامتحان ، وكشف قناعها البرهان » لا نراه وهو نفكر و نحمد التفكير ، و نبحث فنكشف عن الحقائق ، الا داعياً الى استعمال العقل ، وتجويد التفكير ، لان « مع عدم الفكرة نكون عدم الحكمه » وفى التفكير « مشحذه للأذهان ، ومنبهه لذوى العقله ، وتحليل لعقده البلاده ، وسبب لاعتياد الرويه ، وانفساح فى الصدور ، وعزاء فى النفوس ، وحلاوه نقاسها الروح ، وتمره تعدو العقل »

قال « إن كثرة السماع للأخبار العجيبة ، والمعاني الغريبة ، مشحذة للأذهان ، ومادة للقلوب ، وسبب للتفكير ، وعلة للتنقير عن الأمور ، وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً ، وأكثرهم تفكراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملا ، كما أن أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب ، ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى ، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصم »

قال « والذي صير الانسان إلى استحقاق قول الله عز وجل (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً) ليس هو الصورة ، وأنه خلق من نطفة ، وأن أباه خُلق من تراب ، وأنه يمشي على رجليه ، ويتناول حوائجه بيديه ، لأن هذه الخصال كلها مجموعة في البله والمجانين ، والأطفال والمنقوصين والفرق الذي هو الفرق ، إنما هو الاستطاعة ، والتمكين من وجوه الاستطاعة ، وجودة العقل والمعرفة ، أفتظن أن الله عز وجل يخص بهذه الخصال بعض خلقه دون بعض ، ثم لا يطالبهم إلا كما يطالب بعض من أعدمه ذلك وأعراه منه ؟ فلم أعطاه العقل إلا للاعتبار والتفكر ؟ ولِمَ أعطاه المعرفة إلا لإيثار الحق على هواه ؟ ولم أعطاه الاستطاعة إلا لإلزام الحجة ؟ »

ويحذر المرء من الاغترار بما ألف وبما يعرض له بادي الرأي فيرى « أن الناس يحتاجون إلى طبيعة ، ثم إلى معرفة ، ثم إلى إنصاف ، وأول ما يبدي به صاحب الانصاف أمره ، أن لا يعطي نفسه فوق حقها ، وأن لا يضعها دون مكانها ، وأن يتحفظ من شيئين ، فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما ، أحدهما تهمة الإلف ، والآخر تهمة السابق إلى القلب » وقال « فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما تريك العقل ، وللأمور

حكماں حكم طاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجه »
« ولعمرى إن العيون لتحطئ ، و إن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن ، وما الاستبانه الصحيحه الا للعقل ، اد كان زماماً على الاعضاء ، وعياراً على الحواس »

دعا الى التفكر ودعا إلى الملاحظه ، قائلا « لا تشفى الا الملاحظه » ودعا إلى الشك ، ومں لم يسك لم ينظر ، و ں لم ينظر لم يبصر ، و ں لم يبصر بقى فى العمى والحيره كما قال الغزالى اما هو فيقول « اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبه لها ، تعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبه له ، وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن دلك الا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان دلك مما يحتاج اليه ثم اعلم ان الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على ان اليقين طبقات فى القوه والضعف » وقد قال شيخه النظام « الشاك اقرب الىك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل احد عن اعتقاده إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك »

ومع اعتداده بما يكسبه العقل من حقائق الكون لم يتجاوز الى اكثر مما كتب له ادراكه ، قال « ولو وقفت على حجاج بعوضه وفقه معتبر ، وتاملته تامل متفكر ، بعد ان يكون نافذ النظر ، سليم الآله ، غواصاً على المعانى ، لا يعتريك من الخواطر الا على حسب صحه عقلك » وقال « والإنسان و ان أضيف الى الكمال ، وعرف بالبلاغه ، وقاس العلما ، فانه لا يكمل ان يحيط علمه بكل ما فى جناح بعوضه أيام الدنيا ، ولو استمد بكل نظار عظيم ، واستعان بكل كتاب واع ، وكل كتاب فى البلاد ودراسه للكتب ، وما أشك ان عند الوزراء فى دلك ما ليس عند الرعيه من العلماء وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء ،

وعند الأسماء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الاسماء ، وما عند الله عز وجل اكبر ، والخلق فى بلوغه اعجز » قال لو كان الأمر « على ما تشتهيه الغرير[1] ، والجاهل بعواقب الامور ، لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو اليه ، ولتعطلت الأرواح من معانيها ، والعقول من ثمارها ، ولعدمت الاسماء حظوظها وحقوقها »

أهاب بالنفوس ان لا تعبر عما رأت وسمعت ، وان لا تتهوى الغرائب الا باصحابها والنظر فيها ، وحب التكشف والتنقيب ، ودعا إلى التعمل فى النطاق الذى يأبى الخوض فيه قائلاً « وباب من هذا الشكل فكم أعظم حاجة الى ان يعرفوه ، ويقفوا عنده ، وهو ما يصنع الخبر الشائع فى السمع ، ولا سيما اذا صادف من السامع قلة تجربة ، فان قرن بهن قلة التحرية وقلة التحفظ ، دخل ذلك الخبر الشائع الى مستقره دخولاً سهلاً ، وصادف موضعاً وطيئاً ، وطبيعة قابلة ، ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة فى ازالته » وقال « ان الناس قد استغنوا عن التدبر ، وكفوا مؤونة البحث والتنقير ، لقلة اعتبارهم ، ومن قل اعتباره قلّ علمه ، ومن قلّ علمه قلّ فضله ، ومن قلّ فضله كثر نقصه ، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير اتاه ، ولم يذم على شر جناه ، ولم يجد طعم العز ، ولا سرور الظفر ، ولا رَوح الرجاء ، ولا برد اليقين ، ولا راحة الامن »

كان اذا رأى أن « ليس الى رد الخبر سبيل لمواترته ومرادفته ، ولان العيان قد حققه ، والتجربة قد صححت البينة » زاد اعتقاداً فيما كان لا يعتقده ولا يعتقده كثير غيره و يريد الناس ابداً ان يجربوا بانفسهم فقد ذكر عند

(١) الغرير المخدوع او الشاب لاتجربة له

كلامه على اقوال العلماء أن عرق الخال انزع من عرق العم ، وان نصف الأمهات فى الأولاد اكثر ، وأنها على الشبه أغلب — ان أكثر ما تلد الأمهات الاناث ، وكذلك الناس وجميع الحيوانات قال فإذا أردت ان تعرف حق ذلك من باطله فاحص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك ، وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر انها اكثر رجالهم او نساؤهم

ونبّه أرباب العقول الى من تعبث بها ، فقال « وقد ابتلينا بضرب من الناس ، ودعواهما كثيرة ، احدهما أن يبلغ بن حبه للغريب ان يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين ، وقلبه قراراً لغرائب الزور ، ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُّرف ، لا تقف على الصحيح والسقيم ، فهو يدخل العيب فى السمين ، والممكن فى الممتنع ، و يعلق بادنى سبب ، ثم يدفع عنه كل الدفع ، والصنف الآخر هو ان بعضهم يرى ان ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم ، الا بن خاف التقذر[1] من الكذب » وقال فى التحذير من صنف من هذه الاصناف المضرة « وهؤلاء وما اشبههم يفسدون العلم ، و يتهمون الكتب ، ويضرهم كثرة اتباعهم ، ممن تجده مُستهتَراً بسماع الغريب ، ومغرماً بالطرائف والبدائع ، ولو اعطوا بدلاً من هذا الاستهتار نصيباً من التثبت ، وحظاً من التوقى ، لسلمت الكتب من كثير من الفساد »

و يحذرك جهده من تحريف المحرفين من العوام ، والمضللين ممن كان يسميهم من الخواص ، لان فى الخواص دخلاء ايضاً ، و ان كانوا مولهين و مشهورين ، قال انهم « لا يدينون بالحقيقة ، ولا يحمدون الا ظاهر الحيلة ، ومن الدليل على بذالة طبعهم ، والعلم بسفالة رأيهم ، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه ، وقضاؤهم

(١) التقذر الاجتناب من قذر الشئ كرهه واجتنبه

بالعلم لمن لا يعرفونه » وهو يرى بعض الخواص أصر على ستر العقل من العوام، ولطالما حرب بلاهة الخواص فى قلبه ، وهو لا يبرح يهزأ بهم ، ويبين ما يجئ المصنوف من رواياتهم ويعلم « أن الناس موكلون بحكاية كل غريب ، ومنسرون للإخبار عن كل عظيم ، وليسوا للحسن احكى منهم للقبيح ، ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر ، وعلى قدر كثرة السيء تكون حكايتهم له واستماعهم اليه » ، « وقد ترك هذا الجمهور الاكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة[1] جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً ، فليس الا لا أو نعم الا ان قولهم لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم نعم ، موصول منهم بالرضا ، وقد عزل الحق جانباً ، ونابت ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن »

وعال التحريف فى الناس ، وفشو الجهل فيهم بقوله « الناس لم يؤتوا فى اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر ، ولكن للناس ناس وعادات ، وتقليد للآباء والكبراء ، ويعملون على الهوى ، وعلى ما يسبق الى القلوب ، ويستثقلون التحصيل ، ويهملون النظر ، حتى يصيروا فى حال متى عاودوه وأرادوه ، نظروا بابصار كليلة ، وأذهان مدخولة[2] ، مع سوء عادة ، والنفس لا تحب اذا كانت مستكرهة ، وكان يقال الطبع اذا كره عمى ، وبنى عمى الطبع جسا[3] وغلظ وأهمل ، حتى يألف الجهل ، ولم يكن بفهم ما عليه وله »

فهو من هذا النظر يربأ بمن يحاول تعليمه عن تقليد من يرى تقليدهم ، ويريده ابداً على أن ينظر بعقله ، ويستثبت الاخبار ، ولا يسمع لنقله

(١) الحكومة : القضاء

(٢) المدخول : المهزول ومن فى عقله دخل ، ونخلة مدخولة عفنة

(٣) جسا : كدعا جسوا صلب وجسا : هاذا

الغرائب منها ، وان يستند أبداً على التجربة والملاحظة ، وأن يرى الأمور مع عللها وبرهاناتها ، ويمده على أن يلاحظ ويتدبر ويحس ، ويكون في حسه صادقاً حازماً ، لا يهمل شيئاً في عالم الكون والفساد ، يهتم للذرة كما يهتم للذّرة ويقول « أوصيك أيها القارئ المتفهم ، وأيها المستمع المنصت المتصفح ، أن لا تحقر شيئاً أبداً لصغر جثته ، ولا تستصغر قدره لقلة ثمنه ، ثم اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة ، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الإنسان ، وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله »

فكان الفيلسوف ديكارت في القرن السابع عشر — وكان يقول بعدم التسليم بشيء الا بعد تمحيصه بنور العقل وتحقق وجوده ، ويرفض كل ما قام على الظن والتخمين ، وما ألفته العادة وأتى من العرف — كأنه قرأ الجاحظ وعرف فلسفته في هذا الشأن ، وتعبيرهما في هذا المعنى متشابه ، كأن الواحدة منقولة للأخرى ، أو الأخرى أخذت عن الاولى

وكأن الجاحظ وهو يدعوك الى الاستنباط لا الى الحفظ والاستظهار يقول رأي أحدث علماء التربية من اهل الحضارة اليوم ، وعبارته « وكره الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ لمكان الاتكال عليه ، واغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا الحفظ عذق الذهن لان مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه الى برد اليقين ، وعز الثقة ، والقضية الصحيحة ، والحكم المحمود ، انه متى أدام الحفظ اضر ذلك بالاستنباط ، ومتى ادام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحفظ »

الجاحظ يردم المنافذ التي تتسرب منها الجهالات ، ويحمي على ضلال الناس ، ويتبع منهم سلفاً فاسداً وقد بلغ من جرأته في البحث ، وعبرته على

العلم ، و بعد نظره فى المسائل ، ان ردّ على سيحه النظام وقال إن عسه الذى لا يفارقه سوء ظنه ، وحودة قياسه على العارض ، والخاطر السابق الذى لا يوى عثله ، وأنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ، و ينسى أن بدء امره كان ظناً ، فاذا ايقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكايته المستبصر فى صحة معناه وقال مرة فى سبحه الآخر ابى عبيده « ولولا ان ا كون عاباً ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك بعض ما سمعت من ابى عبيـده ومن هو ابعد فى وهمك من ابى عبيدة » ويلوم من يقبلون الاخبار بدون نقد ، وممن لامهم على ذلك ، ابو زيد الانصارى ، وبعه من جهة وانكر عليه من اخرى تساهله فى التعليق على الروايات المدخوله فهو برى العلم وصحة النظر فوق كل اعتبار ، ولا كبير عنده امام النقد ، وفى ميدان الجدال و احقاق الحق ، قال فى رجل نظر بعض النظر بصوب العلمـاء لبعض السكال حتى زعم ان الا رركلها يعرف حقها وباطلها بالاعلب إنه « مات ولم يخلف عقباً ، ولا واحداً يدين بدينه ، فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكن اسات ، ولـكنى على حال ا كره التنويه بذكر من يحرم بحرمه الكلام ، وشارك المتكلمين فى اسماء الصناعة ، ولا سيما ان كان ممن ينتحل بعدم الاستطاعه »

وقال مره « ورأينا اقواماً يدعون فى كتبهم الغرائب الـكثيره والامور البديعه ، و يخاطرون من اجل ذلك بمروءتهم ، و يعرضون باقدارهم ، و يسلطون السفهاء على اعراضهم ، و يجرون سوء الظن الى اخبارهم ، ويحكمون حساد النعم فى كتبهم ، ويمكنون لهم من مقالتهم ، وبعضهم يبطر على حسن الظن بهم او على التسليم لهم والتقليد لدعواهم ، وأحسبهم حالاً من يحب ان يتفضل عليه ببسط العذر له ، و يكتفى الاحتجاج عنه ، ولا يبالى أن يمنّ بذلك على عقبه ،

أو من دان بدينه ، أو اقتبس ذلك العلم من قبل كتبه »

وناقش غير مرة ارسطو فى كتاب الحيوان ورد عليه فى بعض استقراءاته وقال فيه « وزعم صاحب المنطق فى كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر أن ثوراً سَفِد وألقح من ساعته بعد أن خُصى » قال « فإذا افرط المادح فى المدح ، وخرج من المقدار ، وافرط المتعجب فى التعجب ، وخرج من المقدار ، احتاج صاحبه الى أن يثبته بالعيان ، أو بالخبر الذى لم يكذب مثله ، و الا فقد تعرض للتكذيب ، ولو جعلوا بدل حركتهم خبراً وحكاية ، وتبرأوا عن عيبه ما ضرّهم ذلك ، ولكان اصون لاقدارهم وأتم لمروآت كتبهم » ورد عليه دعواه فى ان اناث العصافير اطول اعماراً ، وان ذكورها لا تعيش الا سنة ورد عليه زعمه أن فى بلدة طيسفون[1] حية صغيرة شديدة اللدغ ، الا ان تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك ، فقال لم افهم هذا ولم كان ؟ ورد عليه زعمه أن الطير الكبير الذى يسمى باليونانية اغسولنس يجلب الدارصينى[2] من موضعه فيفرش به عشه فقال « لست ادفع خبر صاحب المنطق عن خبر الدارصينى ، و ان كنت لا اعرف الوجه فى ان طائراً ينهض من وكره فى الجبال أو بفارس او بالبدو فيعمد نحو بلاد الدارصينى وهو لم يجاور موضعه ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر أن يكون من الاوابد ، و ان كان من القواطع[3] ، وكيف يقطع

(١) لعلها طيسفون مدينة كسرى التى فيها الايوان على ثلاثة فراسخ من بغداد وطيسفون ايضا قرية بغزو أما طيفون أو طيغون فلم نجد لها ذكرا

(٢) الدارصينى شجر هندى يكون بحوم الصين كالرمان تعرب دارجينى أى شجر الصين

(٣) قال ابو زيد الأنصارى إذا كان الشتا قطعت إلينا الطير والغربان (أى جاءت) من بلادها فهى قواطع وإذا كان الصيف رجعت فيه فهى رواجع ، والطير التى تقيم بارضنا صيفا وشتاء اوابد

الصحصحان[1] الاملس و بطون الأودية وهضاب[2] الجبال ، بالدوسم فى الجواء والمصىّ على السمت ، لطلب ما لم يره ولم يسمه ولم يذقه ، وأحرى فانه لا يخلف منه بثماره ورحليه ما يصير فراساً له ومهاداً الا بالاختلاف الطويل ، وليس بالوطىء الوبير ، ولا هو له بطعام فانا و إن كنت لا أعرف العلة ، فلست انكر الامور من هذه الجهة فانكر هذا » والجاحظ ينظر إلى الحيوان فى تولده وتشابه وموطنه وخصائصه وبرنيه ثماره وورقها و اطعامها من لبن أو لعاب او نبات او غير ذلك ، و يعرف تأثره بالحر والبرد و بالشمس والظل ، وحَذَره من الآدميين الى غير ذلك ، فكيف يجوز له عقله ان يقطع ذلك الطير ألوفاً من الاميال لبنى عشه بمادة ليست له طعاماً ولا هى مما يسلمه ، ما دام عقله رائده الذى لا يكذب ، وحيلته بحثه ونظره

وقال فى راى ارسطو وزعمه أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الاسنان لطول مكثه فى بطنها « وهذا جائز فى ولد الفيل غير منكر ، لأن جماعة نساء معروفات الآباء والانساء قد ولدن اولادهن ، ولهم اسنان نابتة كالذى رووا فى شأن مالك بن انس ومحمد بن عجلان وغيرهما ، وقد زعم ناس من أهل البصرة ان خاقان بن عبد الله الاهتم استوفى فى بطن امه ثلاثة عشر شهراً ، وقد مُدح بذلك وهجى ، وليس ذلك بالمستنكر ، و ان كنت لم ار قط فاله بعرف شى من هذا الباب ، وكذلك الاطباء ، وقد رووه كما علمت ، ولا اقر ان الولد يخرج راسه من بطن امه حتى يأكل سبعة ثم يدخل راسه ، وليست اراه محالاً ولا ممتنعاً فى القدرة الا فى الطبيعة ، وارى جائزاً [illegible]

(١) الصحصح والصحصاح والصحصحان ما استوى من الارض

(٢) الهضبة الجبل المنبسط على الارض او جبل خلق من صخرة وجمعها هضب وهضاب واهاضيب

غير مستحيل ، إلا أن قلبى لبس بقبله ولبس فى كونه ظلم ولا عبث ولا خطأ ، ولا يقصر فى شىء من الصفات المحموده ، ولم يجد القرآن بنكره والاجماع يدفعه ، والله هو القادر دون خلقه ، ولبسب اب بانكاره ، وان كان قلبى سديد الميل إلى رده ، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ، ولا يعرف إلا بالعيان الباهر ، والخبر المتظاهر » أى انه فى هذه المسأله سال القائلات والاطباء فما صححوا له هـذا الخبر ، ولذلك رده قلبه مع أن القدرة لا تدفعه ، والطبيعة لا تنكره ، والشريعة لا ترده ، وإن كان من الامور التى لا يعرف بالقياس بل بالعيان

مثال آخر من نقده العلمى هزأ ببعض المفسرين فى دعواهم أن السنور خُلق من عطسه الاسد ، وان الخنزير خُلق من عطسه الفيل عند ما زعموا « ان أهل سفينه نوح لما تأذوا من كثره الفار وشكوا ، سأل ربه الفرج ، فامره ان يأمر الاسد فعطس ، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وانثى ، خرج الذكر من المنخر الايمن ، والانثى من المنخر الايسر ، فكفاهم مؤونه الجرذان ، ولما تأذوا برائحه نجوهم [1] شكوا ذلك الى نوح ، فشكى الى الله تبارك وتعالى ، فامره أن يأمر الفيل فسلح فسلح خنزير ، فكفوهم مؤونه رائحه ذلك النجو » قال « وهذا الحديث تأويل عند العوام ، وعند بعض القصاص »

مثال غيره وقد قال الناس فى قوله تعالى (انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ، وزعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة يكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا ما عنى الا الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقه الجن ومردتهم ، فقال

(١) النجو ما يخرج من البطن من ريح أو غائط ، والسلاح كغراب النجو ، وسلح كمنع وأسلح

اهل الطعن والخلاف كيف يجوز ان يصرف الدليل لشيء لم نره فنتوهمه ؟ ولا وصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفريع بها ، وعلى انه لو كان شيء ابلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشأن كذلك ، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، او صوره لهم واصف ، صادق اللسان ، بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق « وكل قول يكذبه العيان ، فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وادل على معاندة شديدة ، أو غفلة مفرطة »

وبعد فانك ترى الجاحظ وهو يطلق العنان لقلمه في كتاب الحيوان ، يزيف الخرافات والترهات ، في عصره وقبل عصره ، ويورد عليك مدايبه ومباحاته ، فيقع في نفسك انه لو حا كم له في عقلا اللها لجاب كتب الاقدمين من الإسرائيليات والسخافات ، مما يحمله من دخلوا في الإسلام حناق او رفاق ، وأنه لا يضر الدين اذا حمل على هامشه ، فوسعوا عما وصفوا دائرة الضلالات ، ويهرجوا ديناً سادجاً ، وما كان ما أدخلوه فيه من اصله ولا من منبه

ثم تأمل قوله « رووا عن وائلة ابن الاسقع ، انه زعم ان من الدلائل على ان السوط كان علي ، ان الناس لم يجدوا في طول ما كانوا اسقط في جوفها تنصا قط فان كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور سنده اهتم ، المعروف بعوف القراءة ، ودوه الفطنة صحيحاً ، فما أعظم الصدق عا ... ، وما احلى الخبر أن يكون صحيحاً » ، ومثله قوله في رد قول ... في الكركدن وصرهم الدليل به في السده رأموه ... وبرع انه ... طيحا على ورفعه بقرنه الواحد الذي في وسط جبهته فاز ... كانه لا يحس حتى يقطع

على الايام ، وهذا القول بالخرافة أشبه ، وأعجب من القول فى ولد الكركدن ، ما خبرنا به ناس من أهل النظر والادب وقراءة الكتب ، وذلك انهم يزعمون أن البقرة لا تضع ولدها ابداً الا وهو مطوى نافق ، وانها تعاش وتنهش ، الا أنها لا تعمل » ، قال « ولو كنت احسن فى كتبى على تكذيب العلماء ، ودرّاس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر »

ومما قال « وفى السمندل لأنه غريبة ، وصفة عجيبة ، وداعية إلى التفكر وسبب التعجب ، وذلك أنه يدخل أتون النار فلا يحترق له ريشة » وقال فى مكان آخر « خبرنى عن فارة البيش[1] واغتدائها السموم ، وعن الطائر الذى يدعى السمندل وطيرانه فى جاحم الاتون ، فلا السم المجهز يضر تلك الفارة ، ولا النار المضطرمة تحرق من ذلك الطائر ريشه » وقال هذا الطائر فى طباعه وفى طباع ريشه مزاج من طلاء النفاطين ، واظن هذا الطلاء من طَفَل وخِطمى ومَغرَة وقد كنت رأيت عوداً يؤتى به من ناحية كرمان لا يحترق ، وكان عندنا نصرانى فى عنقه صليب منه ، وكان يقول لضعفاء الناس هذا العود من الخشبة التى كان المسيح صُلب عليها ، والنار لا تعمل فيه ، فكان يكسب بذلك ، حتى فطن له وعورض بهذا العود وزعم تمامة أن الإنسان ان اخذ من هذا الطحلب الذى يكون على وجه الماء فى منافع المياه فجففه فى الظل واحرقه فانه لا يحترق

ومما قال « ربما لا اكتبه لك من الاخبار العجيبة التى لا يجسر عليها الا كل وقاح أخبار بعض العلماء ، وبعض من يؤلف الكتب ليقراها

(١) البيش بالكسر نبات كالزنجبيل رطبا ويابسا ، وربما نبت فيه سم قتال لكل حيوان وبرتابه فار البيش ، وهى فار تغتدى به والسبانى تتعدى به ايضا ولا تموت ، ودوا المسك مقاومه (القاموس)

الناس ، وبدارس أهل البصرة وبحفظها ، زعموا أن الصنع يكون عاماً ذكراً وعاماً
انى ، وسمت هذا من حماعه منهم من لا استحير تسميته »

من حمله علوم الجاحظ الطب والكيمياء والظواهر الجويه والطبيعه والأخلاق وعلم النفس ، الف فى المعادن والاصباغ كما الف فى التجاره ، ونقل عن حُنين بن اسحق وسلموبه وعيرهم من علماء عصره وكان يعرف النقص فى كتب الأطباء والعلوم حتى قال « وما كان أحوجنا واحوج جميع المرضى ان يكون جميع الاطباء متكلمين ، وإلى ان يكون المتكلمون علماء . فان الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد فى الأصول التى يدورون عليها من الخلل ما نجد » وكان يقف على تربيه بعض الاشجار والنبات ويقف على تربيه بعض الدواجن وغيرها من الحيوانات ، ليصدر اذا كتب عن خبره وقد الف فى الاشجار كتاباً قالوا انه يماثله ككتاب الحيوان وكان شعاره « اذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم انه ما يريد ان يفلح » ، وقال « وكلام كثير قد جرى على السنه الناس ، وله مضره شديده ، ومثله مره ، ثم اصر ذلك قولهم لم يدع الأول للآخر شيئاً ، قال ولو ان علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمه فى اسماعهم ، تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا »

من أجل هذا توسع الجاحظ فى بحثه ، وكان على علمه الغاص يسال جميع طبقات الناس عما يهمه ويريد ان يفهمه ، فيصف الماديات والمحسوسات ، ويسترشد حتى بآراء الحراس ، ويتحدث حتى الى الحُواة والحرازين وارباب الصناعات ، ويسال الحشوه وأرباب البطاله ، وقد ياخذ بآرا البحريين اذا رووا له غرائب فيلها عقله ، أو يردها ولا يقرها اذا كانت حديث خرافه ويحدث

الى كل من عنده « طرائف من الكلام ، وعجائب من الأقسام » وقد روى أسماء كثيرة عن الاعراب فى البادية وعن العامة فى المدن ، فالحكمة ضالته يلتقطها حيث يجدها

قال فى رسالة « الحنين الى الاوطان » رأيت عبداً أسود حبشياً لبنى اسد قدم من بنى اليمامة فصار ناطوراً ، وكان وحشياً مجنوناً لطول الغربة مع الابل ، وكان لا يلقى الا الاكرة فلا يفهم عنهم ولا يستطيع افهامهم ، فلما رآنى سكن إليَّ وسمعته يقول لعن الله ارضاً ليس بها عرب ، قاتل الله الشاعر حيث يقول

حر الثرى مستعرب التراب

ابا عثمان ان هذا العريب فى جميع الناس كمقدار القرحة فى جلد الفرس ، فلولا ان الله رق عليهم فجعلهم فى حشاه لطمست هذه العجم آثارهم اهـ فالجاحظ لم يحتقر هـذا الحديث الذى ندر عن لسان عبد مستوحش واورده مثالاً على موضوعه فى الوحشة التى تعترى النازح عن وطنه ونحن بهذا الحديث القصير أيضاً ادركنا ان العراق لم تكن تعرّبت كله فى طرفى المائة الثانية والثالثة ، وان الاكرة والفلاحة ظلوا على سريانيتهم ، وان العرب كانوا الى قلة على كل حال

ولم ير ابا عثمان على كثرة ما خاض غماره من الابحاث مسَّ الموضوعات التاريخية بالمعنى الذى بدا المؤرخون فى عصره يخوضون فيه ، على طريقة الرواية وتصحيح السند ور بما لم يهمه ذكر الحروب ووصف الملوك فى عدلهم وجورهم ومولدهم وتوليهم وموتهم ، ولا حدث اعدائهم وبين بلادهم ومساعيهم ومطاعمهم ومؤامراتهم ودسائسهم ، ولا طبقات الرجال فى موالدهم ووفياتهم ، وما صرفوا فيه عقولهم واعمارهم وجاءوه من مآثرهم بل كان التاريخ الذى يشغل

وله وقله وصف الناس وذكر أخبار من عاصرهم مما فيه تعليم وتثقيف فهو المؤرخ الاجتماعي في عصره ، يورد لك من مشاهداته ومرويّاته ما يوسع أفق نظرك ، ويدلك على مواطن الحسنات والسيئات في عامة من تألف بهم محيطه

رأى التاريخ السياسي وتاريخ الرجال صنو المضطرب ، وقد تسرب اليه أخطاء لا يغفرها ، فارخ للأمة ، والكلام فيها واسع المجال ، وكما كان في التاريخ هو في الفلسفة قرأ ما كُتب وتُرجم في عصره ، فما نقل آراء أرسطو مستحسناً لها كلها ، ولا شغف بافلاطون ولا بغيره من فلاسفة اليونان ، بل نظر في العلوم المادية كعلوم الحياة والاحياء وعلم الاجتماع على النظر الفلسفي واهمه من الفلسفة روحها ، وابتعد عما قد يكون فيها من خيال ومحال ، وعبارة تامة انه كان من اصحاب النظر العملي ، وما يعدى في الالهيات حد المنطق الصحيح ، والمصادر السليمة التي تدعمها الحجة ولا ينكرها الا مكابر

يقول لك جساً ان « غرائب الدنيا كثيرة عند كل من كان كاملاً بغرائبها وكان له في العلم اصل ، وكان بينه وبين النفس نسب ، وأكثر الناس لا تجدهم الا في حالتين اعراض عن النفس ، واهمال المفس ، واما في حالة تكذيب وانكار ، فيسرع الى اصحاب الاخبار ، وتتبع الغرائب ، والرغبة في الفوائد ثم ترى بعضهم ان له بذلك الكذب فوائد ، فان ذلك من باب الوقي وحدس من استعظام الكذب ، وانه لم يكن كذلك الا من جاز الرغبة في الصدق ، او من السبب معاندة للاقرار وقهراً بالحق »

ومن استقرائه العلمي في الذباب قوله « وعندنا بالبصرة في الذباب أعجوبة ، لو كانت بالشامات[1] او بمصر لادخلوها في باب الطلسم وذاك ان التمر يكون

(١) الشامات بلاد الشام

مصسو ناً فى سادر التر فى سق السباس ، فلا برى على ىء منها دبابه ، لا فى الليل ولا فى النهار ، ولا فى البرد ولا فى أنصاف النهار بم وقد يكون الا اصر ، ولاصحاب المعاصر ظلال ، ومن سان الدباب الفرار من الس س إلى الظل ، و اما للك المعاصر بين بمره رطبه ودبس ، بم لا يكاد برى فى تلك الظلال والمعاصر فى انتصاف النهار ، وفى وقت طلب الدبان السكن ، إلا دون ما براه فى المبرل الموصوف بقله الدبان وهـدا سىء يكون موحوداً فى جميع السوق الدى فيـه السباس فان يحول سى من ىلك البادبه الى جميع ما يقابلها فى بواحى البصره عسبه من الدبان ماعسى ان لا يكون بارض الهند ا كثر منه ولىس بين حر بره دُبىس و بين موضع الدبان الا فبص الـ صره ، ولا بين ما يكون ن دلك بهر أدرب ر بين موضع الدبان مما بقابله إلا فرسحان ، وهو دلك النهر وبلك المعصره ، ولا يكون بلك المسافه الا مائه دراع او اربد سيئاً او أنقص سيئاً

رأعجو به أحرى ، رهى عندى اعجب من كل ى صدَّرنا به جمله القول فى الدباب فمن العجب ان يكرن بعض الحيوان لا ينام كالعصافير واا وط ، فانهما اذا كان الليل فان احدهما يدلى من عصن الشجره و بضم عا ه رحليه و ر كس راسه ، بم لا يزال يصيح حى برى اا رر ، والآحر لا يزال ىد عل فى زوايا ىـ ه ، ولا يأخذه القرار حوفاً على نفسه ، فلا يزال كدلك ، وقد عـ و ل دلك مما على ظهر الاسجار ما يسمى باللىف ، فيفسه بم و ل منه حـ لا ، بم عمل م ه كهـ ه اىفه بم حـ له مدلى بدلك الحبل ، وعقده بطرف عصن ن تلك الاغصان ، الا أن دلك رصنع ر سح و لداخله بحـ مه ، بم يحد عسبه فيه ، ياوى الـ ه محافه على نفسه »

* * *

كان الجاحظ كان كالطائر ينتقل من شجرة الى شجرة ، ومن حديقة إلى حديقة ، يلتقط الزهرة والحبة ، ومن كان يظن أن الرجل الذي يؤلف فى علوم الدين والجدل والرد على المخالفين ، وهو فى أصله امام دينى وصاحب مذهب وعَلَم من أعلام الشريعة — من كان يظن انه يؤلف فى الحيوان وفى الزرع وفى السحر والنحل ، وفى كل ما يعرض له من الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية والادبية — من كان يظن أن للجاحظ كتاباً فى الامصار وعجائب البلدان أسبق من كتاب البلدان لابن الفقيه ، رآه المسعودي ووصفه بانه فى نهاية الحسن ، قال « وان كان الرجل لم يسلك البحار ، ولا اكثر الاسفار ولا تقرى[1] الممالك والامصار » ثم ما رحل الجاحظ رحلات المسعودي ، واقتصر على الرحلة فى ارض العراق والشام والجزيرة وفارس والروم و بلاد العرب فقط وليس من المتيسر لكل انسان فى دهره ان يطوف الارض ، فان هذا ما كان يتيسر الا للفرد بعد الفرد ، وفى العصر بعد العصر

وصف الجاحظ الامصار وهواها وتأثيرها فى الطباع والاجسام ، ووصف تأثير الهواء فى الانسان والحيوان فى حرة بنى سُلَيم ، فقال تأثير البدية [illegible] الكامات الحية فان كان وصفه الامصار فى جغرافية كوصفه اهل الامصار [illegible] ما بعده ، فانه من احسن ما كتب فى الجغرافية الانسانية والطبيعية والوصفية قال فى الامصار « انما قلت كل من نزلها [illegible] من طباعهم وسماتهم ، ولا بد للهاشمى فصيح الوجه كان او حسناً ، او دميماً كان او بارعاً تاماً ، من ان يكون لوجهه وسماته طابع يعرفه بها [illegible]

(١) [illegible] ارضا ارضا [illegible]
كانه [illegible]
[illegible]

وجمع العرب فلقد كانت البلدة تسهل ذلك فتبذله ولقد تحرمه وتدخل النقص عليه ، وتبين آثارها فيه ، فما ظنك بتصنعها في سائر الاجناس ، ولفساد عقولهم ، ولوم طبع بلادهم ، لا تراهم مع تلك الاموال الكثيرة ، والضياع الفاشية ، يكون من النبل البيان ما تجده اوساط اهل الامصار ، على الثروة واليسار ، والمال منسبه كما تعلمون ، وقد يكتسب الرجل بغيرهم المال الكثير فلا يرضى لولده حتى يعرض له المؤدبين ، ولا يرضى للسانه بمثل الذي كان يرضاه في ذلك وليس في الارض صناعة مذكورة ، ولا ادب شريف ، ولا مذهب محمود لهم في شيء منه نصيب وان خسّ ولم ارها وجنة حمراء اصلا ولا صبية ، ولا دماً ظاهراً ولا فرساً من ذلك ، وهي قتالة للغرباء ، على ان حُمَّاها خاصة ليست للعرب باسرع منها الى القريب ، ووباؤها وحماها في وقت انكشاف الوباء وزوع الحمى عن جميع البلدان ، وكل محموم في الارض فان حماه لا تنزع عنه ولا تفارقه ، وفي بدنه منها بقية فاذا نزعت عنه فقد اخذ منها عقد نفسه البراءة الى ان يعود الى الخلط ، وان يجمع في جوفه الفساد ، وليست كذلك الاهوار لانها تعاود من نزعت عنه من غير حدث ، كما تعاود اصحاب الحدث لانهم ليسوا يؤتون من قِبَل النهم ، ومن قبل الخلط والاكثار ، وانما يؤتون من عين البلدة » وقال ايضاً رب بلد يستحيل فيه العطر وتذهب رائحته كقصبة الاهواز

وقال في حَرّة بني سُلَيم في عالية نجد « انهم ليجدون المماليك للرعي والسقي والمهنة والخدمة من الروم والصقالبة على نباهتهم ، فما يقدرون لابثه أبطأ حتى تلد هم الحَرّة الى الوان بني سُلَيم ولقد بلغ من امر هذه الحَرّة ان ظباءها وتعالبها وحميرها وخيلها وابلها كلها سود ، قال والسواد والنقاص هما من قبل خلقة البلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن قبل

قرب الشمس و بعدها ، وشدة حرها ولينها ، وليس ذلك من قبل مسح ولا عقوبة ، ولا تسوية ولا تمسيح ، على ان حَرّة بنى سُلَيم تجرى مجرى بلاد الترك ، فانك اذا رأيت الترك ، ورأيت إبلهم ودوابهم ، وكل شىء لهم جسدته سداً واحداً ، وكل شىء لهم تركى المنظر »

و بهذا رأيناه يقول بتطور الاحياء بحسب البيئة وتعاقب الايام ، و يعلل ذلك تعليلاً مقبولاً كما يعلل أسباب احمرار عذوبة المطر والملح ، و لوجه مياه البحر وكل ما يصفه من انواع الحيوان وصفاً وصفاً دقيقاً ، كأنه رآه المرء بعد المرة واجرى تجاربه عليه ودقق فيه ، ونظر ما قاله فيه من قبله ، فما وافق الحس والعقل من اقوالهم قبله ، وما لم يوافق عليه ردّه مع ايراد الاسباب الداعية له الى رده

ربما قال : « ان حمرة الا ثمار تلبس فى غيرها من البلدان ، منها ان عدد المد والجزر فى جميع الدهر فى وزن واحد ، فمثل عدد حاجتهم اليه ، و يزيد عند استغنائهم عنه ، ثم لا تبطئ عنها الا بقدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها ، لا تمطلها عطشاً ولا غرقاً ، ولا تغمرها طماً ولا عطشاً ، تجىء على حساب معلوم ، وتدبير منظم ، وحدود ثابتة ، وعادة قديمة ، يزيدها القمر فى امتلائه ، كما يزيدها فى نقصانه ، فلا يخفى على اهل الغلات متى يحتلبون ، و يتهيئون ويزرعون ، بعد ان يعرفوا موضع القمر ، وكم مضى من الشهر ، فهى آية عجيبة ، ومفخرة وأحدوثة ، لا تجاوز المحل ، ولا تحسر عن الحطة[1] »

وقال ايضاً : « من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم ، ان يميتوا ذكر اعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون ، كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية ، على ذلك هم فى ايام الاسلام ، كما هدم عثمان صومعة

(١) خطة رسم و خاطوم سنه السدید

عُمْدان ، وكما هدم الآطام الى كاىت ىالمدىىه ، وكما هدم رىاد كل فصر ومصىع كان لاس عامر ، وكما هدم اصحاىىا (العىاسىون) ىىاء مدن الشامات لى مروان »

ىكلمك الحاحط ىاره فى رعىاب الىاس فى العلوم ، و ىدكرك ىاىه لم ىطهر له العله فىها ، الا اىه ىعحب من الوسط فى صىاعىه ، و ىىكاب ىطرىه عىر مؤاىسه ، فىعول « صار طلب الحساب احف على ىعصهم ، وطلب الطب أحب الى ىعصهم ، وكدلك الىراع الى الهىدسه ، وىىهب اهل الىحوم ىالىحوم ، وىحد واحداً ىلهح ىطلب العىا والالحان ، وآحر ىلوىح ىسهوه العىال ، حتى ىكىب مع الحمد ، وآحر ىحىار وراقاً ، وآحر ىحىار طلب الملك ، وىحد حرصهم على فدر العلل الىاطىه المحركه لهم ، ىم لا ىدرى كىف عرص لهدا هدا السىب دون الآحر ، الا ىحمله من الفول ، ولا ىحد المحىار لىعص هىده الصىاعات على ىعص ، ولم لما احىار دلك فى حمله ولا ىىفصىل ، اد كان لم ىحرِ مىه على عِرق[1] ، ولا احىاره على ارث وليس العحىب من رحل فى طىاعه سىب ىصل ىىىه و ىىن ىعص الامور ، و ىحركه فى ىعص الحهات ، ولكن العحب ممن ىموت عماً ، وهو لا ىطمع له فى معرفه الوزن ، ليس له حرم حسن ، وكىف ان فاىه ان ىكون لمّا و ى حصه ، ان ىكون مطرىاً و ىعىى عامه »

واحىح للاما « فال ىعص من احىح للعله الى من احلها صارا كىىر الاما أحطى عىد الرحال من اكىر المَهىراب[2] ، ان الرحل فىل ان ىملك الامَهَ فد ىال كل سىء مىها وعرفه ، ما حلا حطره الحلوه ، فافدم على اىىاعها ىعد وفوعها ىالموافقه ، والحره اىما ىسىىار فى حمالها الىىا ، والىىا لا ىُىصرىى من حمال الىىا ىىحاب الرحال و ىىافقىىن فلىلاً ولا كىىراً ، والرحال ىالىىا اىصر ، و اىما

---

(١) ىعىى اصل كل سىء (٢) المهىره الحره العالىه المهر

تعرف المرأه من المرأه ظاهر الصفه ، واما الخصائص التى تقع بموافقه الرجال فانها لا تعرف ذلك ، وقد يحسن المراه تقول كأن انفها السيف ، وكأن عينها عين غزال ، وكان عنقها ابريق فضه ، وكان ساقها جُمّاره ، وكأن شعرها العناقيد ، وكان اطرافها المدارى ، وما اشبه ذلك ، وهناك اسباب أُخر بها تكون الحب والبغض »

وقال فى رسالة فى النساء « ورايت اكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذه هذا الامر يقدمون المجدوله ، والمجدولة من النساء تكون فى منزله بين السمينه والممشوقه ، ولا بد من جوده القد ، وحسن الخرط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من ان تكون كاسيه العظام ، بين الممتلئه والقصيفه[1] ، وانما يريدون بقولهم مجدوله[2] جوده العصب وقله الاسترخاء ، وان تكون سليمه من الزوائد والفضول ، ولذلك قالوا خمصانه وسيفانه[3] ، وكانها جان ، وكانها جدل عنان ، وكانها قضيب خيزران ، والتثنى فى مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك للضخمه والسمينه ، وذات الفضول والزوائد ، على ان المحافه فى المجدوله اعم ، وهى بهذا تجب على البيان الضخام ، وعلى الممشوقات والقضاف ، كما تجب هذه الاصناف على المجدولات ، وصفوا المجدوله بالكلام المنثور ، فقالوا اعلاها قضيب ، واسفلها كثيب »

ونحن بعد كلامه هذا يحق لنا ان ندعى ان الجاحظ كان يعرف كل شى

ومما قاله « ولَ معنى سمعناه فى باب معرفه الحيوان من الفلاسفه ، وقرانا

(١) القصافه والقصف محركه وكعنب النحافه وهو قضيف ج قضفه ب

(٢) المجدول المطوى العصب المحكم الفتل

(٣) رجل خمصان بضم واحد ب خمص الحشى ضامر البطن والجمع خمصانه وخمص من خمائص وسيفانه ...

في كتب الأطباء والمتكلمين ، إلا ونحن قد وجدنا قريباً منه في أشعار العرب ، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا »

ولذلك رأيناه يقرب الفلسفة من الأذهان ويمزجها بالأدب وأشعار العرب ليخرجها عن جفائها ؛ ورأيناه مع وقوفه على العلوم اليونانية ينقد بعض ما لم يدخل في دائرة الحس والعقل ، ولا يأخذه قضايا مسلمة كفعله في إنكار أحاديث الجن وما يرى من الشعر في رؤوسهم ، فقال إن للناس في هذا ضرباً من الدعاوى ، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحسينها ؛ ومن أسمرها أنه قوله « إنهم أحصوا أصناف نخل البصرة ، دون نخل المدينة ، ودون مصر واليمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان ، ودون الكوفة وسوادها وجزيرتها ، والأهواز وما يليها ، أيامَ المعتصم ، وإذا ثلثمائة وستون ضرباً من نُخل معروف ، وخارجي موصوف ، وبديع غريب ، مع طيب عجيب »

وقال في كتابه الأمصار أكبر الدور غلة ثلاث : دار الطبيخ بسر من رأى ودار الزبير بالبصرة ، ودار القطن ببغداد ؛ ومما قاله في وصف البصرة أنه لا يعرف مصراً جاهلياً ولا إسلامياً أفضل من البصرة وأنها قبة الدنيا وأسطة الأرض وفرضة البحر

ومن ملاحظاته « واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مخيرين في الأمور المتفقة والمختلفة ، لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ، وفي هذا ذهاب المعاش وبطلان المصلحة ، والبوار والتوى ، فإذا لم يكونوا مسخرين بالأسباب مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة جميعهم وعن البيطرة والقصابة والدباغة ، ولكن لكل صنف من الناس مزين عندهم

ما هم فيه ، ويسهل ذلك عليهم ، فالحائك اذا راى تقصيراً من صاحبه ، أو سوء حذق او خرقاً قال له يا حجام ، والحجام اذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له يا حائك ، ولذلك لم يجمعوا على اسلام ابنائهم في غير الحياكة والحجامة والبيطرة والقصابة ، ولولا ان الله تعالى اراد ان يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف ، لما جعل واحداً قصيراً وآخر طويلاً ، وواحداً حسناً وآخر قبيحاً ، وواحداً غنياً وآخر فقيراً ، وواحداً عاقلاً وآخر مجنوناً ، وواحداً ذكياً وآخر غبياً ، ولكن خالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يطيعون ، وبالطاعة يسعدون ، ففرق بينهم ليجمعهم ، واحب ان يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة ، فسبحانه وتعالى ما أحسن ما ابلى واولى ، واحكم ما صنع واتقن ما دبر ، لان الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ، ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الاقوات ، ولبطل اصل المعاش ، فسخرهم على غير اكراه ، ورغبهم من غير دعاء ، ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الاسماء الا احسنها ، ومن البلاد الا اعدلها ، ومن الامصار الا اوسطها ، ولو كان كذلك لتشاجروا على طلب الواسط ، وتشاحروا على البلاد العليا ، ولما وسعهم بلد ، ولما تم بينهم صلح ، فقد صار بهم التسخير الى غاية ، فكيف لا يكون كذلك ، وانت لو حولت ساكني الآجام الى الفيافي ، وساكني السهول الى الجبال ، وساكني الجبال الى الانجاد ، وساكني الوبر الى المدر ، لاذاب قلوبهم الهم ، ولاتى عليهم فرط النزاع

ومما استطرناه قوله لما ولى خالد بن الوليد كسر الاصنام التي كانت فرس بعدها ، ورمى عزى بالسيف حتى احرقت عانه يحدثه « وما اسلك فى انه قد كانت

السدنة[1] حيل وكيس ، ولو سمعت أو رأيت بعض ما أعد الهند من هذه المحار في بيوت عباداتهم لعلمت أن الله تعالى قد منّ على جملة المسلمين بالمسكامين الذين نشأوا فيهم » ، قال « وما زالت السدنة يحتال للناس من جهة النيران بأنواع الحيل ، كاحتيال رهبان كنيسة الرُّها لمصابيحها ، حتى إن رب قناديلها ليسوقد لهم من غير نار في بعض ليالي أعيادهم ، ومثل ذلك احتيال السادن لخالد بن الوليد حين رماه بالشرر ليوهمه أن ذلك من الأوثان غضبة على ترك عبادتها وإنكارها والتعرض لها حين قال : يا عزى كفرانك لا سبحانك ، إني رأيت الله قد أهانك » ، قال « وجعلت فرس وقد أهوى خالد بسيفه إلى العُزى يصيح يا عُزى خبليه ، يا عزى عورّيه ، ولبيس ، تبى من بهاو بالهم ، وعلاها بالسيف حتى كسرها »

وقال في الرد على من زعم أن خالد بن سنان لم يكن من ولد إسماعيل نبي فيه « المتكلمون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون أن خالداً كان أعرابياً وبرياً ، ولم يبعث الله قط نبياً من الأعراب ولا من أهل الوبر ، وإنما بعثهم من أهل القرى وسكان الحضر ، والله أعلم حيث يجعل رسالته »

وذكر الشياطين في بعض كتبه ومما قال « إنا وإن كنا لم نر شيطاناً قط ، ولا صورة لنا صادق ، ففي إجماع العرب والمسلمين وكل من لسانه منطق على ضرب المثل بقبح الشيطان ، وهو دليل على أنه في الجملة أقبح من كل قبيح ، والكتاب إنما نزل على الذين نبت هذا في طبائعهم غاية المنتهى » ، وقال « ليس من الناس من رأى شيطاناً قط على صورته ، لكن لما كان الله جل

(١) سدن سدنا وسدانة خدم الكعبة أو بيت الصنم وعمل الحجابة ، فهو سادن ج سدنة

فى طبائع جميع الامم استقباح صورة الشيطان واستسماجه وكراهه ، واجرى هذا على ألسنة جميعهم ضرب المثل به فى ذلك ، رجع بالاخبار والسمر و بالاضافة والتفريع إلى ما جعله فى طبائع الاولين والآخرين والسوح والصبيان والرجال والنساء »

وانكر انشقاق القمر كما هو رأى كثير من اهل الذكر ، فقال انه لم يتواتر الخبر به ، وانه لو انشق حتى صار بعضه فى جبل ابى قبيس لوجب أن يخالف التقويم بالحساب لانه قد علم سيره فى كل يوم وليلة ، فلو انشق القمر لكان وقت انشقاقه لا يستتر ، فاما قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر ، فان معناه سينشق

ومن ملاحظاته « لا تلتقى ثلاثة اسماء باعيانها الا فى الملوك السادة ، الا ترى ان بهرام بن بهرام بن بهرام فى ملوك العجم ، والحارث بن الحارث بن الحارث فى ملوك غسان ، والحسن بن الحسن بن الحسن فى سادة الاسلام » وقال « ثلاثة بنو اعمام فى زمن واحد ، سمى كل واحد منهم عليا ، وكل واحد منهم فقيه عالم عابد يصلح للامامة على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، وعلى ابن الحسين بن على بن ابى طالب بن عبد المطلب وعلى بن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب ، ثم بعدهم ثلاثة بنو اعمام وسمى كل واحد منهم محمداً وكل منهم فقيه عالم عابد يصلح للامامة محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ومحمد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب بن عبد المطلب ومحمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب ، وهذا [illegible] ما [illegible] فى العالم [illegible] فى الائمة ، وهذه فضيلة لا يشركهم فيها احد » [illegible] هذا [illegible] بالاستيناس [illegible] اللذى من [illegible] [illegible] عبره لا [illegible] فى خاطره

ومن [illegible] [illegible] « وقد علمنا ان داعى الله [illegible] [illegible] فى [illegible]

أصناف الخوارج وتقدمهم فيها انما هو بسبب الديانة ، لانا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم يقاتلون مثل قتالهم ، ونجد السجستانى وهو عجمى ، والشامى والجزرى والحرورى وهم عرب ، ونجدُ باهرت وهى بلاد عجم ، كلهم فى القتال والنجدة سوا ، وفى ثبات العزيمة والقوة والشدة متكافئين ، فاستوت حالاتهم فى النجدة مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم ، اما فى هذا دليل على ان الذى سوى بينهم هو التدين بالقتال ؟ » وهذا ضرب من كشف روح المتمذهبين بالمذاهب لا نراه لاحد ممن كتب فى عصره فى فلسفة الديانات والاديان

وقال فى نار المجوس « ما زال الناس كافة ، والامم قاطبة ، حتى جاء الله بالحق ، مولعين بتعظيم النار ، حتى ظن كثير من الناس لافراطهم انهم يعبدونها وزعم اهل الكتاب ان الرب أوصاهم بها فقال لا تطفئوا النار من بيتى ، ولذلك لا تجد الكنائس والبيع وبيوت العبادات تخلو من نار ابداً ليلا ونهاراً فاما المجوس فانها ابرض بمصابيح اهل الكتاب حتى اتخذت البيوت للنيران ، واقامت لها السدنة ، ووقفت عليها الغلات الكثيرة ، وسجدت لها على جهة التعبد والمحبة ، واتخاذ الشكر على النعمة ، وقد ضرب المثل بنار المجوس بن صحب قوماً فلم يرعوا حق صحبته بهم وخدمته اياهم فقال

عمرى لنعم امسد حربكم فوجدتكم نار المجوس

وذلك انها لا تفرق بين من يعبدها ويسجد لها ، وبين من يتبرى منها ويعاديها ، بل تعم الجميع بالاحراق اذا امكنها »

وقال « الا كلها تضرب الامثال بها فى الشئ الذى يسمع به ولا يرى كما قال ابو زياد

وما خبر لا كعنقاً مغرب صَوَّرَ فى بسط الملوك لها مثلُ

يحدث عنها الناس ن غير رؤيته سوى صورة ما ان غير ولا يخلو

وما أكثر من سكران يكون في الدنيا حيوان يسمى كركند وعنقا مغرب ، وان كانوا يرون صوره العنقاء مصوره في بسط الملوك وحيطان قصورهم ، واسمها عندهم مسموع » ومن غريب تخمينه في النمل قوله « والذر عما أخلى الله من الامم عن بلادهم » ومن تخميناته « و يزعم اهل السرح انهم لم يجدوا في ضروب الحيوان اشبه بالانسان تركيباً واعضاء وجوارح ، ولم يروا اقرب منه خلقه وصوره وادنى اليه شبهاً ومشاكله من القرد ، وان من تقدم حالسوس من الاطبا لم يفصلوا قط انساناً ، ولم يشرحوا آدمياً ، وانما عرفوا تلك الامور الغامضه والسرائر الكامنه بما فصلوا من اجسام القرود ، وبعض من وجد من الاهلي على بدره في بعض معارك المهلب » ، وقال في عجائب البحر « وليس ذلك باعجب من شيء عاينه جميع من يركب البحر وذلك ان الطائر من طيره يطير في الهواء ، فيتبعه طائر صغير ، فاذا اخرجه ذلك ذرق ، فتلقاه الطائر فابتلعه ، فلا هو يخطئ بذلك الذرق حلق الطائر الصغير ، ولا الطائر الصغير يخطئ بكون ذرقه ، وما يعيشه من ذلك الطائر الكبير ، والدخس من دواب البحر ومما يعايش السمك وليس بسمك ، وهو يعرف الغريق ويدنو منه حتى يضع الغريق يده على ظهره فيسبح به ، والغريق يذهب معه ، ويستعين بالاعتماد عليه والتعلق به حتى ينجيه ، وهذا عند البحريين مشهور لا يدافعونه »

وقال في علة فشو الفاحشة في بعض الناس « ولو كانت هذه النبوه سائغه في الاعراب لعشقوا الغلمان ، ولو عشقوهم لنسبوا بهم ، ولجاءهم فيه باب من النسيب ، ولهاجوا به وتفاخروا ، ولنافسوا في الغلمان ، ولجرى في ذلك ما لا يخفى ، ولحدث فيه اشعار واخبار ، والذي يدل على سلامتهم من ذلك

عدم هذه المعانى ، وان كان هناك سىء من هـذا فلس هو الا فى بعض ن
ىىرل قارعه الطر ىق او ىعرب الاسواق ، وهؤلا لىس فىهم ن حصال الأعراد ه
الا الحوهرىه ، فاما الاحلاق والفصاحه والا مه والفروسـ ه فهم على حلاف
دلك كله

كان ىقال أر ىعه لم ىُلحقوا ولم ىسـبقوا أبو حنىفه فى فقهه ، والحا ل
فى ادىه ، والحاحط فى ىالىفه ، وأبو تمام فى سعره ؛ وحفى على من ىصفح ىآا ف
الحاحط واساعه فىها ، ورأى ما حوت من آثار حفظه وىدو ىه واسىمرابه
واسىىاحه ان ىعدر الناس فى كل عصر لاعحابهم ىما كىب ، ولا اسىىكرن ن
الاسىىاط ىان العالم كانوا برفون صدرر كىىه كما سوقع المحدثون اا وم صدور
صحف الاحبار ، وورود الاداعات فى الايام العصىبه ؛ وكان هو ىعرف ا مسه
هده السهره الطائره و ىعرفها له الناس قال ، ىعضهم للحاحط ملك فى علمك
مقدارك من الادب ىىسد قوله

منطق صاىب وىلحن احىا ىاً وحىر الحدىث ما كان لحنا

، ىفسره على انه اراد اللحن فى الإعراب ، ا انما وصفها بالطرف والفطىه ،
وانها ىورى فى لفظها عن اسىاء قال قد فطىب لدلك ىعدُ ، ولما اسار علىه
ىافده ان ىعىر ىفسىره قال كىف لى ىما سارب ىه الركىان ؟

من البراهىن على اساع سهرىه فى حىاىه ما قىل لابى هفان وقد طال
دكر الحاحط لِمَ لا ىهحو الحاحط وقد ىالك وأحد ىحىىمك ، فقال ا لى
ىحدع عن عقله ؟ ىالله ! ىرصع رساله فى ارىعه ا ى لما امسىب الا ىالصىن سهره ،
له ولىف فىه الف ىىب لما طنّ منها ىىب فى الف سىه

كتب ورسائل

لىس فى وسع الباحث بعىں حد لعلم الجاحظ ، ىىھى ىه إلى معرفه ما عاب علىه ، وما اسىه ىأليفه ىعلمه من معلمات العلم فى عصره ىىحب فى جميع المطالب بحثاً ممىعاً ، فلا ىرى فى معالاتها حالاً ، ولا فى وضعها وىصىيفها عثاىه ، ولقد راىىا معلمات رماىىا للعاب العلم الحديث ىوارر فيها عسرات ورىما مىات ىں العلما والباحىں ، حىى ىىكىب لها الاحاده ، وىقع من ىفوس ارىاب المدارك موقع الاستحسان ، ومعلمه الجاحظ كتبها ىىفسه ، لم ىساركه مسارك فى إعداد موادها ، ولا فى وضع أبوابها ، واسىكار فصولها ، وكلها امه درسه وبحثه ، ىصدرها فى اىساق ممىں ، وبحه ىالغ ، ورىما كان من ابحاثها ما اوىرح عليه الحرص فيه ، فىكىب ما اراد وما أريد منه ، لكانه المفتى الحجه ىىسمى فى علوم الدنيا والآخره ، فلا ىلحق عباره احد ، وهو أبداً الفارس المجلى فى كل حلبه ، لم ىلحقه احد فى طرىقه ، وحارل ىما لدىه عىر واحد فى العصور الىالىه

الاكىار من التاليف مع الاجاده فيه هو وجه الغرابه فى الجاحظ ، الف خمسىں الا ىىاىه مولف ، ىىں رساله فى ىضع صفحات وكىاب فى ىضعه مجلدات ، رآها كلها ىسىط ابن الجوزى فى اول القرن السابع فى ىىىد الى حد ىه ىغداد الف كل هذا وجوّده ىطرىقه كان ىىں ىفسه ان لا ىعىل اسىدلاىالكذب ، ولا ىدخل الباطل فى ىضاعىف الحق ، ولا ىىكىر ىقول الزور ، ولا ىلىمس ىمويه صىعىه ىاللفظ الحسن ، وىسىر قىح كلامه ىالىالىف الرىق ، ولا ىسىعىں على اىضاح الحق الا ىالحق ، وعلى اىضاح الحجه الا ىالحجه ، ولا ىىمىل الى دراسه ىامه واوهامه ، وىىدعى الى ىفصىلها والاشاده

يذكرها ، بالاشعار المولدة ، والاحاديث الموضوعة ، والاسانيد المدخولة ، وبما لا شاهد عليه الا دعوى قائله ، ولا مصدق له الا من لا يوثق بمعرفته . وقد نصح لمن يتكلمون قراءة الكتب ومدارسة العلم ، ان لا يقفوا على الكلمة الضعيفة ، واللفظة السخيفة ، وعلى مواضع من الكلمة قد عرض له فيها من استكراه ، ويقول لمن هذا حاله « لوجعل بدل شغله بقليل ما يرى من المذموم ، شغله بكثير ما يرى من المحمود ، كان ذلك أشبه بالادب المرضى ، والخيم[1] الصالح ، واشد مشاكلة للحكمة ، وابعد من سلطان الطيش ، وأقرب الى عادة السلف وسيرة الاولين ، واحذر ان يهب الله تعالى له السلامة فى كتبه ، والدفاع عن حجته ، يوم مناضلة خصومه ، ومقارعة اعدائه »

ويعوذ بالله فى كل موطن « من فتنة القول وخطله ، ومن الاسهاب وتحجم خطبه » ، ويؤكد « أن فتنة اللسان والقلم ، اشد من فتنة النساء ، والحرص على المال » ، واستعاذ من التكلف لما لا يحسن ، كما استعاذ بالله من العجب بما يحسن ، والعجب بما يكون منه والثقة بما عنده ، وربما ان يكون من المحسنين ، يعوذ من رسالة ظاهرها زهد وباطنها رغبة وقال « ان اسقط الكلام واوعده ، وأبعده من السعادة وانكده ، ما اظهر البراءة واضمر الحرص ، وتحلى بالقناعة وتبطن الطمع واستشعر ذله الافتقار ، وافصح منه واخبث ان ظن صاحبه انه مموه حتى زهو طاهر ، ومتاويله يعقد الغور ، وهو قريب القعر »

أخرج الجاحظ التأليف من طور الرواية ، إلى طور جمع فيه الى الرواية الدراية ، ودعا الى تحمل الصدق ، وتجرد اليقين ، مستمداً من العقل ، داعياً

(١) الخيم بكسر الخاء الطبيعة

الى التفكير الصحيح ، قائلاً « إن من شكر النعمة فى معرفة مساوى الناس ومراشدهم ، ومضارهم ومنافعهم ، الا يحتمل ثقل مؤونتهم فى تقويمهم ، وأن يتوخى ارشادهم ، وإن جهلوا فضل ما نُسدي اليهم ، فلن يصان العلم بمثل بذله ، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره » ، « ويعرف أن الحق مر والحد صعب ، ولا يصبر على مطالعة الكتب الطويلة إلا من تجرد للعلم وفهم معناه ، وذاق من ثمرته ، واستشعر قلبه من عزه ، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكد والكثرة من السآمة ، وما أكثر من تقاد الى حظه بالسواجير[1] ، وبالسوق العنيف ، وبالإخافة الشديدة »

ويرى أبا عثمان فى كتبه ينقل عن أرقى الطبقات وادنياها ، ويقرن العلماء نقل عنهم فيذكر اسماءهم ، واشار الى انهم كانوا علماء فقط لتعرّف قارئه مبلغ الرواية المنقولة من الضعف والقوة ، قال مرة « حدثنى بعض اهل العلم ممن طال ثواؤه فى ارض الجزيرة ، وكان صاحب أخبار وتجربة ، وكان كلفاً بحب التبيين ، معترضاً للأمور يحب ان يُفضي الى حقائقها ، ويتثبت اعيانها وعللها ، ويخبر أجناسها ، ويعرف مقادير قواها ، وتصرف أعمالها ، وتنقل حالاتها ، كان يعرف للعلم قدره ، وللبيان فضله » ، وروى عن ابراهيم بن السندي كثيراً ، ونوه به ، وقال فيه « انه كان مولى امير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لابناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ، ويحفظ ايامهم ، ويدعو الناس الى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم ، وكان فخم المعانى ، فخم الالفاظ ، لو قلت ان لسانه كان اردّ[2] على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير

(١) الساجور خشبة تعلق فى عنق الكلب وسجره شده به كسوجره

(٢) قال هذا أرد انفع ، ولا راد فيه لا فائدة منه كلا مرد

وسنان طرير[1] لكان ذلك قولاً ومذهباً » ، ووصفه فى البيان والتبيين بقوله « كان رجلاً لا نظير له ، وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً ، وكان عروضياً وحافظاً للحديث ، راوية للشعر شاعراً ، وكان فخم الألفاظ ، شريف المعانى، وكان كاتب القلم ، كاتب العمل ، وكان يتكلم بكلام رؤبة ، ويعمل فى الخراج بعمل زاذان فروخ الاعور ، وكان منجماً طبيباً ، وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالماً بالدولة وبرجال الدعوة ، وكان أحفظ الناس لما سمع ، واقلهم نوماً ، واصبرهم على السهر » انظر إليه كيف يكرر فعل « كان » مرات فى نصفه اسطر ! يا ما أحلاه فى مكرراته وفى موجزاته وروى عن ثمامة بن اشرس احد شيوخه فى الحديث فقال « ان الصفات التى وصف بها ثمامة بن اشرس جعفرَ بن يحيى كأَن ثمامة قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره ، وما علمت انه كان فى زمانه قرَوى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه »

والظاهرة المتجلية فى كتب أبى عثمان انه يثبت نقل الدلك كلام الا علاء ومذاهب العلماء والحكماء ، يروى لك « نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الاعراب ، ونوادر كثيرة من كلام المجانين واهل المِرّة من الموسوسين ، ومن كلام اهل الغفلة من النَوكى ، واصحاب التكلف من الحمقى » يجعل بعضها فى باب الهزل والفكاهة ويقول « ولكل جنس من هذا موضع يصلح له ، ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة الى بعض الهزل » و « ان المزاح جد اذا اجتلب ليكون علة للجد ، وان البطالة وقار ورزانة ، اذا تكلفت لتلك العاقبة » فهو يكره النغمة الواحدة يرددها ، فيختار من الاصوات ما به ل

---

(١) السنان الطرير هو الرمح المحدد ، والسيف السيف المصقول المرفوع على الناس

فى النفوس ، فتسلبها و تطربها وهو يعلمها ، و يلعب بالالباب ، فى كل رسالة له وكتاب يتجلى فى اقواله ورزانته واستطاعته ووفرة المادة ، ووفرة البحث ، وكثرة ما يعلّم ، ويقصّ ما يعلم ، فيكسبه اعيان متحركة عن جامدة جمود حروفها ، ياخذ من كل وجوه الاجادة بأوفر نصيب ، ويدور على « حسن الافهام مع قلة عدد الحروف »

ما كتب الجاحظ وألّف الا عن تاعب ، وكان فى الأكثر يقدم فيعرض ما حمله على التأليف ، قال فى وصف كتاب الحيوان « وهـذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لانه وان كان عربيا اعرابيًّا ، و اسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، و بين وجدان الحاسة و احساس الغريزة و يشتهيه الفتيان ، كما يشتهيه الشيوخ ، و يشتهيه الفاتك ، كما يشتهيه الناسك ، و يشتهيه اللاعب ذو اللهو ، كما يشتهيه المجدُّ ذو الحزم ، و يشتهيه الغفل ، كما يشتهيه الاريب ، و يشتهيه الغبى ، كما يشتهيه الفطن » ، ثم ذكر مزاعم الناس فى رسم الكتب ، والسبب الذى يدعوهم إلى اسقاطها ، فقال « وليس هذا الكتاب يرحمكَ الله فى ايجاب الوعد والوعيد ، فيعترض عليه المرجى ، ولا فى تفضيل على فيتعصب له العدوى ، ولا هو فى تصويب الحكمين فيتسخطه الخارجى ، ولا هو فى تقديم الاستطاعة فيعترضه من يخالف التقديم ، ولا هو فى تثبيت الاعراض فيخالفه صاحب الاجسام ، ولا هو فى تفضيل البصرة على الكوفة ، ومكة على المدينة والشام على الجزيرة ، ولا فى تفضيل العجم على العرب ، وعدنان على قحطان ، وعمرو على واصل ، فيرد بذلك الهذلى على النّظامى ، ولا هو فى تفضيل مالك على أبى حنيفة ولا هو فى تفضيل

امرىء القيس على النابغه ، وعامر بن الطفيل على عمرو بن مَعدى كَرِب ، وَعبَّاد ابن الحصين على عبدالله بن الحُر ، ولا فى تفضيل ابن سُرَيج على الغريض ، ولا فى تفضيل سيبويه على الكسائى ، ولا فى تفضيل الجعفرى على العَقيلى ، ولا فى تفضيل حلم الاحنف على حلم معاويه ، وتفضيل قَتاده على الزُّهرى ، فان لكل صنف من هذه الأصناف شيعه ، ولكل رجل من هؤلاء حـــزباً وعدداً من مخاصميهم وسفهائهم ، والمتسرعون منهم كثير ، وعلماؤهم قليل ، وانصاف علمائهم اقل »

قال « وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الاراده فيه ، أول ذلك العله الشديده ، والثانيه قله الاعوان ، والثالثه طول الكتاب ، والرابعه انى لو تكلفت كتاباً فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتاب العَرض والجوهر ، والطفره والتولد ، والمداخله والغرائز والتحاس[1] ، لكان اسهل واقصر اياماً ، وأسرع فراغاً ، لانى كنت لا افرغ فيه الى تلقط الاشعار ، وتتبع الامثال ، واستخراج الآى من القرآن ، والحجج من الروايه ، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب ، وتباعد ما بين الاشكال فان وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ، ومن سوء تاليف ، ومن تقطيع نظام ، ومن وقوع الشىء فى غير موضعه ، فلا تنكر بعد ان صورت عندكَ حالى التى اعتريت عليها كتابى ولولا ما أرجو من عون الله على اتمامه ، اذ كنت لم التمس به الا إفهامك مواقع الحجج لله ، وتصاريف تدبيره ، والذى اودع أصناف خلقه من اصناف حكمه ، لما تعرضت لهذا المكروه ، فان نظرت فى هذا الكتاب ، فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا تذهب مذهب المتعنت[2] ، ومذهب من اذا راى خيراً كتمه ، واذا راى شراً اذاعه »

---

(١) التحاس مثله الطبعه (٢) المتعنت طالب الزله

ومما قال فيه « وما عندى لك من الحيلة الا أن أصوره لكَ فى احسن صوره ، وأقلبك منه فى الفنون المختلفة » ، « فان وجدت الكتاب الذى كتبته لك بخلاف ما وصفت ، فأنقص من نشاطك له على قدر ما نقصك مما بسطك اليه لقراءته ، وان وجدتنى ، اذا صح عملك وانصافك ، قد وفيتك ما ضمنت لك ، فوجدت نشاطك بعد ذلك مدخولاً ، وجدتك ملولاً ، فاعلم انا لم نؤت الا من قبولك وفساد طبعك ، ومن اشارك لما اضرَّ بكَ »

وقال فى مقصده الذى يرمى اليه بطريقته فى تأليفه هذا « ورايت ان جملة الكتاب وان كثر عدد ورقه أن ذلك ليس مما يمل ، ويعد عليّ فيه بالإطالة ، لانه وان كان كتاباً واحداً فانه كتب كثيرة ، وكل مصحف منها فهو أم على حده ، فان اراد احد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الاول حتى يهجم على الثانى ، ولا الثانى حتى يهجم على الثالث ، فهو ابداً مستفيد ومستطرف ، وبعضه يكون جماما[1] لبعض ، ولا يزال نشاطه زائداً ، ومتى خرج من آى القرآن صار الى الاثر ، ومتى خرج من اثر صار الى خبر ، ثم يخرج من الخبر الى شعر ، ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حكم عقلية ، ومقاييس سداد ، ثم لا يترك هذا الباب ، ولعله ان يكون اثقل ، والملال اليه اسرع ، حتى يفضى به الى مزح وفكاهة ، والى سخف وخرافة ، ولست اراه سخفاً ، اذ كنت انما استعملت سيرة الحكماء ، وآداب العلماء ، وانا بالله تبارك وتعالى اذا خاطبت العرب والاعراب ، أخرج الكلام مخرج الاشارة والوحى[2] والحذف ، واذا خاطبت بنى اسرائيل او حكى عنهم جعله مبسوطاً ، وزاد فى الكلام ، فأصوب

(١) الجمام نبيح أوبه ا احه

(٢) الوحى الاشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والالهام والكلام الخفى وكل ما ألقيته إلى غيرك

العمل اتباع آثار العلماء ، والاحتذاء على مثال القدماء ، والاخذ بما عليه الجماعة »
وقوله هذا فى شأن تأليف القرآن من ابدع ما اهتدت اليه قوة مفكرة

قال ابو على الحسن بن داود فخر البصرة باربعة كتب كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل وزعم بعض علماء الافرنج ان كتاب الحيوان اقرب الى ان يوسم بكتاب أدب منه الى ان يعد كتاباً فى طبائع الحيوان ، وجوابنا لمن ادعى هذه الدعوى ان ما جمعه الجاحظ فى صنوف الحيوان وان غيره من العرب والعجم كافٍ بان يعد السابق المبرز فى هذا الفن ، والسفر الكثير الذى بين يديك لا تزرى بما كتب ، وهو يملى على الناس روح عصره كتب الجاحظ كتابه اوائل القرن الثالث من الهجرة ، والعلم كما قال زيتسه لم يتجاوز عصره من فرنكلين الى أنشتين اكثر من مائة وخمسين سنة وفى كتابه خلاصة من الشعر الجيد ، واجمل الحكايات والنوادر ، وربما ما كان من نوع الادب الرائع ، وهناك امتع الفوائد الادبية والمسائل الدينية ، واجمع من هذا كله كلامه على احساس الحيوان وربما كتب ما كتب فيه الا عن تجربة وعيان وفيه كلام على الناس وبلادهم وهوائهم وأمزجتهم وعاداتهم الى غير ذلك مما لا يظفر به باحث فى كتاب واحد فاذا كان الغرائب والطرائف « ربما شاهد من كتاب منزل ، او حديث مأثور او خبر مستفيض ، او شعر معروف او مثل مضروب ، او يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبائع ... من اكثر من قراءة الكتب ، او ... فارس الاسفار وركب البحار ، وسكن الصحارى ، واستذرى الهضاب ، ودخل فى ... ومشى فى بطون الاودية » — الانسان بالجاحظ يقف على عمق فائدته

واما كتابه البيان والتبيين فقد دخل فيه على موضوعه رأساً وبداه بقوله

« اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من السلاطة والهذر ، كما نعوذ بك من العيّ والحصر ، وقديماً تعوذوا بالله من شرهما ، وتضرعوا الى الله فى السلامة منهما » يقول صاحب الصناعتين ان البيان والتبيين كثير الفوائد جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة والاخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، الا أن الابانة عن حدود البلاغة ، واقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتشرة فى اثنائه ، فهى ضالة بين الامثلة لا توجد الا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير »

الجاحظ فى البيان والتبيين يكثر من الشواهد ، ويقلل من القواعد ، وضمنه هزلاً وجداً ، وكأنه كان يشعر بأن كتابه غير منسق ، وكان الامثل به ان يضع كل شئ فى مكانه فاعتذر مرة بقوله « وكان فى الحق ان يكون هذا الباب فى اول الكتاب ، ولكنا اخرناه لبعض التدبير » وقال فى مناسبة اخرى « وهذا الباب يقع فى كتاب الانسان من كتاب الحيوان ، وفى فصل ما بين الذكر والانثى تاماً ، ليس هذا الباب يدخل فى باب البيان والتبيين ولكن قد يجرى السبب فيجرى معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب ، لان خروجه من الباب إذا طال له بعض العلم ، كان ذلك اروح على قلبه ، وازيد فى نشاطه »

اراد الجاحظ فى البيان والتبيين ان يعلم طالب البلاغة بالعمل كما تعلم هو البلاغة ، وكان البيان فى عهده تُعلَم على هذه الصورة وبعده قام العلماء بوضع

قواعد فلما أفادت الكاتب والشاعر ، اللهم الا الوقوف على ما علاوا له ، واستشهدوا به ، وسموا له من الفوانس وكان معطم ن كسب لهم الاحاده فى كل رمى فى فى المسور والمنطوم ممن لا بعماون كثيراً مما فاله علماء البيان فال ان نُعَـلِّم بالدوق والعمل ، لا بالقواعد والقوانس والجاحط كان فى كتابه هدا عملياً سانه فى كل ما كتب وكدلك هو فى النحو فقد قال فى فصل رياضه الصبى « وأما النحو فلا تسعل قلبه منه الا بقدر ما يؤديه الى السلامه من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام فى كتاب كتبه ، وسعر ان انشده ، و سئ إن وصفه ، رما راد على دلك فهو مشغله عما هو اولى به ، ومدهل عما هو ارد عا ه منه ، من روايه المثل والشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع »

والغالب أن البيان والتبيين على كثره إمتاعه لم سطر فيه الجاحظ طرفه أخيره ، فقد رايناه دكر قصيدة سلمه بن خُرسب فى قتال عبس ودبيان من بنى ، رنسهم فى المره الثانيه لسلمه بن الحارث الإيادى وهى القصيده التى انشدها الجاحظ لسهل بن هرون فقال والله لكانه سمع رساله عمر بن الخطاب الى ابى موسى الاسعرى فى سياسه القضاء وتدبير الحكم

وقال فى السبب الذى دعاه الى تاليف كتابه « الدلائل والاعتبار » وفيه مباحث من سواهد آثار الصانع فى صنعه ، وتنبيه على أسرار قد اودعها ما يشاهده المرء من فطرته ، تضطره الى معرفته وتسهد بوحدانيته ، وتخبر عن جلال عظمته وكمال قدرته ، بان انه الف مثل كتابه هدا جماعه من الحكما المتقدمين فما وصحوا معانيه ، ولا بينوا المشكل منه ، فمنهم جبرا ئل بن نوح الانبارى ، وقد الف فى معناه تودروس اسقف طرسوس رسمى كتابه المدبر ، ونقله بواحده عمه من السريانيه الى العربيه ، فافسد ه بنار دل الالسنه وسوء العباره ، و مها كتاب

بطمه باور بطوس أسقف فورس كتبه بالرومانية ، ونقل بعده إلى السريانية ثم الى العربية ، فجرى مجرى الاول المقصود بتداول المثل والعبارات ، ومنها كتاب ألف فى أيام بنى أمية ، بطمه سوعسحت مطران فارس ، وكتبه بالفارسية فاكتسبه استملاقاً اهـ وجمع الجاحظ محاسن ما وجده فى هذه الكتب وزاده عمدار الطاقة ، وشرح ما نقل من غيره ، وبين القول فيما زاده ، وزينه تزييناً يونق السمع ، ويسر القلب ، ويبسط السامع ، ويوجب الحجة على المخالف

وقال فى مقدمة كتابه حجج النبوة والذى دعانا الى تأليف حجج الرسول ونظمها ، وجمع وجوهها وتدوينها ، انها متى كانت مجموعة منظومة نشط لحفظها وتفهمها من كان عسى أن لا ينشط لجمعها ، ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقها على اللفظ الموجز عنها ، ومن كان عسى ان لا يعرف وجه طلبها والوقوع عليها ، ولعل بعض الناس يعرف بعضها ويجهل بعضها ، ولعل بعضهم ، وان كان قد عرفها بجميعها بحذافيرها ، فلم يعرفها من أجل طرقها ، وأقرب وجوهها ، ولعل بعضهم ان يكون قد كان عرف فنسى ، او تهاون بها فنسى ، بل لا نشك انها اذا كانت مجموعة محبرة مستقصاة مفصلة انها ستزيد فى بصيرة العالم ، وتجمع الكل كمن كان لا يعرف الا البعض ، وتذكر الناسى وتكون عدة على الطاعن وعلى بعض من يحدث فى دينه ، عمى عن رشده ، واحفظ وضع خطه ، ان يدعوه العجب بنفسه ، والثقة بما عنده الى ان يدس فى ... ، فيقدم فى بعضها وافسدها ، فاذا قرأها فهمها ، واذا فهمها انتبه من رقدته ، وافاق عن سكرته ، بعز الحق وذل الباطل ، وللاشراف الحجة على الشبهة ، ولان من يفرد كتب فقراءه اليس كمن نازع صاحبه وجاذبه ، لان الانسان لا ... نفسه ، والحق بعد فاخر له ، ومعنا الانفة تحدث التباهى ، وفى المجاذلة ينقل الخضوع ويشتد النزع اهـ

وقال فى معدمة رسالته السصر بالتجاره « سالت ، أكرمك الله ، عن أوصاف ما تستطرف فى البلدان من الامتعه الرفيعه والأعلاق النفيسه والجواهر الثمينه والرفيعه القيمه ، لتكون ذلك مادة لمن حنكته التجارب ، وعوناً لمن مارسه وجوه المكاسب والمطالب » وقال فى مقدمه رساله « الحنين الى الاوطان »

« إن لكل شىء من العلم ، ونوع من الحكمه ، وصنف من الادب ، سبباً يدعو الى تاليف ما كان فيـه مشتتاً ، ومعنى يحدو على جمع ما كان متفرقاً ، و متى أغفل حملة الادب وأهل المعرفه ، تمييز الاخبار ، واستنباط الآثار ، وضم كل جوهر نفيس إلى شكله ، وتاليف كل نادر من الحكمه الى مثله ، بطلت الحكمه وضاع العلم ، وأميت الادب ، ودرس مستور كل نادره ، ولولا تقييد العلما خواطرهم على الدهر ، ونقرهم آثار الاوائل فى الصخر ، لبطل اول العـلم وضاع آخره ولذلك قيل لا يزال الناس بخير ما بقى الاول يتعلم من الآخر »

وهكذا نراه يمس فى مقدمات كتبه ورسائله نفسه فى تاليفها ووصفها ، فقد قال فى مقدمه كتابه البخلا « ذكرت حفظك الله انك قرات كتابى فى تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيل سراق الليل ، وانك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عوره ، وتقدمت بما افادك من لطائف الخدع ، ونبهك عليه من غرائب الحيل ، فيما عسى أن لا يبلغه كيد ، ولا يجوزه مكر ، وذلك ان موقع نفعه عظيم ، وان التقدم فى درسه واجب ، وقلت اذكر لى نوادر البخلا ، واحتجاج الاشحا ، وما يجوز من ذلك فى باب الهزل ، وما يجوز منه فى باب الجد ، لاجعل الهزل مستراحاً ، والراحه جماماً ، فان للجد كداً يمنع من معاودته ، ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته »

وفى كتابه المحاسن والاضداد يقوله « كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان

والمدن والحصون ، مثل بنا أردشير وبناء إصطخر ، وبناء المدائن والسّدير ،
ثم ان العرب شاركت العجم فى البنيان ، وتفردت بالكتب والاخبار والشعر
والآثار ، فلها من البنيان غمدان وكعبة نجران ، وقصر مارد وقصر مأرب ،
وقصر شعوب والابلق الفرد وغير ذلك من البنيان وتصنيف الكتب اشد
تقييداً للمآثر على ممر الايام والدهور من البنيان ، لان البنا لا محالة يدرس ، وتعفى
رسومه ، والكتاب باق يقع من قرن الى قرن ، ومن امة الى امة فهو ابداً
جديد ، والناظر فيه مستفيد ، وهو ابلغ فى تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير
« وكانت العجم تجعل الكتاب فى الصخور ، ونقشاً فى الحجارة ، وخلقة
مركبة فى البنيان ، فربما كان الكتاب هو الناتئ ، وربما كان هو المحفور
اذا كان ذلك تاريخاً لامر جسيم ، او عهداً لامر عظيم ، او موعظة يرتجى
نفعها ، او احياء شرف يريدون تخليد ذكره ، كما كتبوا على قبة غمدان ، وعلى
باب القيروان ، وعلى باب سمرقند ، وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المشقر ،
وعلى الابلق الفرد ، وعلى باب الرها ، يعمدون الى المواضع المشهورة ،
والاماكن المذكورة ، فيضعون الخط فى ابعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من
الدروس ، واجدر ان يراه من مرّ به ولا يُنسى على وجه الدهر ولولا الحكم
المحفوظة والكتب المدونة ، لبطل اكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان
الذكر وما كان للناس مفزع الى موضع استذكار ولو لم يتم ذلك لحرمنا اكثر
النفع ولولا ما رسمت لنا الاوائل فى كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت
من انواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق ، فجمعنا
الى قليلنا كثيرهم ، وادركنا ما لم ندركه الا بهم ، لقد بخس حظنا منه واهل
العلم والنظر واصحاب الفكر والعبر ، والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل ،

وورثة الأنبياء ، وأعوان الخلفاء ، ثم ذكر كتب الظرفاء والصلحاء ، وكتب الملاهي ، وكتب أعوان الصلحاء ، وكتب أصحاب المراء والخصومات ، وكتب السخفاء وحمية الجاهلية ، ومنهم من يفرط في العلم أيام خموله ، ويترك ذكره وحداثة سنه » انظر إلى هذه الرشاقة مع الجزالة ، وإلى هذه الإحاطة بكل ما يجب أن يقال في هذا المجال . وهذه المقدمة تشعر بأن هذا الكتاب أو معظمه هو من قلم الجاحظ أو جمعه بعضهم من كلامه وكلام غيره

أما بعد فليس أبدع من هذه المقالة يدلي بها « إلف تفكير وسهر ، ودراسة كتب ، وحلف سنين » لإقناع من يزعم أن مثل هذه الموضوعات ليست مما يحلو بالتدوين ، ويرد بها على من يتهمهم « إملاء بالخرافات ، إقواء على رد الصحيح ، وتصحيح السقيم » قال في سبب تأليفه « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » « إن ذهبنا ، حفظك الله ، نقف هذه الاحتجاجات ، وعدد نقطع هذه الأسباب لا يستعمل المقاومة بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم ، وخصال كل صنف من هذه الأصناف ، سلكنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب الخصومات في كتبهم ، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم ، وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنوفق بين قلوبهم ، إن كانت مختلفة ، ولنزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التقارب في النسب ، وكم مقدار الخلاف في الحسب ، لا يغتر بعضهم ببعض ، ولا يفسده عدو بباطل يموهه ، وبشبهات يزوره ، فإن المنافق العليم والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصور لمن دونه الباطل في صورة الحق ، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم » ، « وأنا أقول إن كان لا يمكن ذكر منافب الأتراك ، إلا بذكر مثالب سائر الأجناد ، فترك ذكر الجميع أصوب ،

والإضراب عن هذا الكتاب أحزم ، وذكر الكثير من هذه الأوصاف بالجمل ، لا يقوم بالتفليل من ذكر بعضهم بالفسح ، لان ذكر الاكثير بالجمل باوله ، وتاب من التطوع ، وذكر الاقل بالفسح معصيه ، وتاب من ترك الواجب ، وقليل الفريضه أجدى علينا من كثير التطوع ، ولكل الناس نصاب من النقص ومقدار من الذنوب ، وانما يتفاضل بكثره المحاسن وقله المساوى فأما الاشتمال على جميع المحاسن ، والسلامه من جميع المساوى دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يُعرف »

وعلى هذا المعنى يتقدم بين يدى نجواه ، الدواعي والبواعث الى التأليف ، خصوصاً وبعض ما يفرده بالتصنيف قد يكون مما يستغرب الكتابه فيه ، مثل رسالته فى فخر السودان على البيضان ، وقوله فى المقدمه انه كتب فى ذلك ما حضره من مفاخر السودان ومثل رسالته فى اخلاق الكتاب ، جرياً على من مدح اخلاقهم ووصف فضائلهم واعمالهم ، وذكر رذائل مذاهبهم وأفعالهم ولؤم طباعهم واخلاقهم مسفوعه بالحجه « اذ كان فى ذلك من البيان ما يبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم » ، وقال فى غرض تاليف رسالته فى الهدايا « فوضعنا فى كتابنا هذا حججاً على من عابها بتلك الفعال ، وسببا لمقادمه الاخوان ، وتنبيها على الصغير الحدث منها ، وحرنا الصغير اذ قد تقدما ، والابادى اعظم ، وكانت أخبار فصيح (ر روى راسب حق فصيح) فيمن اخرج لا ينه لهم ، وصيرته لخلى اسى لا يتعدى فيه الحجه فى اطراح العيره فى غير محرم ولا ريبه »

وذكر فى رسالته بفضل النطق على الصمت انه وجد كلام من زعم ان الصمت افضل من الكلام « كلام امرئ قد اعجب برأيه ، وارتطم فى هواه ، وظن انه قد نسج منه كلاماً ، رائق الفاظاً ، واستتب له ما ابى على نحو ماحده

ومقصده ، أنه كان مثله فى ذلك مثل من يخلص الى الحاكم وحده فناجاه بحجته ، وإنى ساوضح لك ذلك ببرهان قاطع ، وبيان ساطع ، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر ، ومن الحق ما بهر ، بقدر ما أتت عليه معرفتى ، وبلغته قوتى ، وملكته طاقتى ، بما لا يستطيع احد رده ، ولا يمكنه انكاره وجحده » وفى رسالته فى « مدح التجار وذم عمل السلطان » « وهذا الكلام لا يزال يسمع من حشوة اتباع السلطان ، فاما عليتهم ومصاصهم[1] وذوو الابصار والتمييز منهم فيعلمون انهم (اى التجار) أروح الناس ابداناً واهنؤهم عيشاً ، وآمنهم سرباً ، لانهم فى أفنيتهم ، كالملوك على أسرتهم ، يرغب اليهم اهل الحاجات ، وينزع اليهم ملتمسو البياعات ، لا يلحقهم الذله فى مكاسبهم ، ولا تنبو بهم الضرع لمعاملاتهم ، وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وفاز به بحذافيره ، فان أولئك لباسهم الذله ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن هم لهم خول مملوءة ، قد لبسها الرعب ، والفها الذل ، وصحبها ترقب الاجتياح ، فهم مع هذا فى تكدير وتنغيص ، خوفاً من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب ، وتغير الدول ، واعتراض حلول المحن ، فان هى حلت بهم وكثيراً ما تحل ، فناهيك بهم مرحومين ، يرق لهم الاعداء فضلاً عن الاولياء »

ومما قال فى رسالته فى الوكلاء « وأحق من كان فى صفتك ، وأحرى من جرى على درسك ، ان لا يكون سبب تسرعه ، وعلة تسخطه ، الا بعد تثبت ، جمع الخير راجع الى سعة الصدر ، فقد صح الآن ان سعة الصدر اصل ، وما سوى ذلك من أصناف الخير فرع وقد رأيتك حفظك الله تعالى حوب جميع الوكلاء وتحرمهم ، وتسعت على جميع الوراقين وظلمتهم ، وحكمت

(١) مصاص القوم : خالصهم كما فى القاموس

جمع المعلمين ونحوهم ، وحفظت مساويهم ونسيت محاسنهم ، واقتصرت على
ذكر مثالب الاعلام والجلة »

وكانت رسالته فى « الرد على النصارى » جواب كتاب جاءه من أحدهم ،
يذكر فيه من مسائل النصارى قبله ، وما دخل على قلوب أحداثهم وضعفائهم
من اللبس ، وما خاف على جواباتهم من العجز ، وسأله اقرارهم بالمسائل ، وحسن
معونتهم بالجواب قال « وسنقول فى جميع ما ورد علينا من مسائلكم ،
رغبا لا يقع الشك من مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القويه ، والادلة
الاضطراريه » ، وقال فى الابانه عن رسالته فى الاجلاء « ولكَ فى هذا الكتاب
بلابه اسما نفس حجه طريفه ، أو تعرف حيله لطيفه ، او استفاده نادره
عجيبه ، وانت فى ضَحِك منه اذا شئت ، وفى لهو اذا مللت الجد »

وكتب فى كتابه طبقات المغنين ما دعاه الى تاليفه فقال « انه خُص
زمانه بنعمة اشراف اسبغ لهم من آلات الفتوة واسباب المروءة ما كان محجوباً
عن غيرهم ، معدوماً من سواهم ، فحملنى التكلف بهم ، والموده لهم ، والسرور
بتخليد ذكرهم ، وتشييد ذكرهم ، والحرص على تقويم اود ذوى الاود منهم ،
حتى يلحق باهل الكمال فى صناعته ، والفضل فى معرفته وعلى تمييز طبقة طبقة
منهم ، ونسبة اهل كل طبقة ووصفهم بآلاتهم وادراكهم والمذاهب التى
[illegible] بعضهم ، واجملتهم [illegible] عليه وخلصنا جداً بهزل ، ومزجنا
مزجاً يعرفون [illegible] ، ولا [illegible] ولا تجاوزنا
حد [illegible] واستعملنا غير الصدق [illegible] قوماً ، وحابينا آخرين ، ولم نجعل ذلك
محضاً للحق ، بل قصداً للانصاف [illegible] لم نقصد فى وصف من وصفنا [illegible] طبقة
اى [illegible] ولكنا [illegible] اهل زمانه [illegible] السلا

وذلك فى سنة خمس عشرة وماتين وقد تركنا فى كل باب من الابواب
التى صنفناها فى كتابنا فرجاً لزيادة ان زادت ، او لاحقة ان لحقت ، أو نابتة
ان نبتت ، ومن عسى أن ينتقل به الحذق من مرتبته الى ما هو اعلى منها ،
أو يقصر به القصور عما هو عليه منها الى ما هو دونها الى مكانه الذى اليه بلغه
ارتفاع درجته أو انحطاطها ، و من لعلنا نصير الى ذكره من عَزُب عنا ذكره ،
وأنسينا اسمه ، ولم يحط علمنا به ، فنصيره فى موضعه و نلحقه باصحابه ، وليس
لأحد أن يثبت شيئاً من هذه الاصناف الا بعلمها ، ولا يسند امره فيه دونها
و يورد ذلك علينا فنمتحنه ، و نعرفه بما عنده و نصير الى ترتيبه فى المرتبة التى
يستحقها ، بالطبقة التى يحتملها ، فلما استتب لنا الفراغ مما اردنا من ذلك ، خطر
ببالنا كثرة العابثين من الجهال تربت الايدى ، فلم نأمن ان يسرعوا بسفه رأيهم ،
وخفة احلامهم الى نقض كتابنا وتبديله ، وتحريفه عن مواضعه ، و ازالته عن
اماكنه ، التى عليها رسمنا ، وان يقول كل امرئ منهم فى ذلك على حاله ،
و بقدر هواه ورأيه ، و وفقه بمخالفته ، والميل فى ذلك الى بعض ، والذم لطائفة
والحمد لاخرى ، فيهجنوا كتابنا ، و لحقوا بنا ما ليس من شاننا واحببنا
ان ناخذ فى ذلك بالحزم ، وان نحتاط فيه لانفسنا و من صحة كتابنا ، و بادر الى
تفريق نسخه منها وتصييرها فى ايدى اثبات والسند من الذين كانوا فى هذا
الشان ، ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه كصالح بن ابى صالح وكاحمد بن سلام
وصالح مولى رشيد ، ففعلنا ذلكَ وصيرناه أمانة فى أعناقهم ، ونسخه باقيه
فى ايديهم ، روثقنا منهم امناء ومستودعين ، وحفظه غير ضنين ولا متهمين ،
وعلمنا أنهم لا يدعون صيانته ما استودعوا ، وحفظ ما علمته ائتمنوا ، اذا تثبت فيه
بمخالفه ، وأصحت ائمة ما لا يلائمه اهـ »

و بدأ كتابه صناعة القواد بقوله « أرشدكَ الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الالباب ، ووهب لك جميل الآداب ، وجملك بشرف الادب ، كما تعرف زوائد الغنى ، قال ابو عثمان دخلت على امير المؤمنين المعتصم بالله ، فقلت له يا امير المؤمنين ، فى اللسان عشر خصال اداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الاشيا ، وواعظ يعرف به القبيح ، ومعزٍ ترد به الاحزان ، وحاصد يزهى بالصنيعة ، وملهى يونق الاسماع »

وقال فى مقدمة كتابه الحجاب « اطال الله بقاكَ ، وجعلنى من كل سوء فداكَ ، واسعدكَ بطاعته ، وتولاكَ بكرامته ، ووالى اليك مزيد نعمه . اعلم تفضل « اكرمك الله » ان السعيد من وعظ بغيره وان الحكيم من احكمه تجاربه ، وقد قيل كفاكَ ادباً لنفسك ما كرهت من غيرك ، وقيل كفاك من سوء الفعل سمعته ، وقيل ان من نقطة الفهم للواعظ ما يدعو النفس الى الحذر من الخطا ، والعقل الى تحصينه من الردى ، وكانت الملوك اذا اتت ما تجل عن المبارة عاينه ضُرِبَت لها الامثال وعُرِضَ لها بالحديث »

وبهذا يصف غرضنا بعض طريقته فى التاليف

وقد كتب فى صدر رسالة ابيه رادّاً على من جزل الطعن على كتابه يستحف الراى الذى دعا الى ابتدائه والاسداء بذكره « اذ كانت الدنيا لا تسلك من حاسد باغ ، ومن قائل متكلف ومن سامع طاعن ، ومن منافس متعصب كما انها لا تسلك من ذى سلامة مساسلة ، ومن عالم عليم ، ومن حسن النظر ، حسن المحصر ، سديد تحمده على حسن الادب ، وقائل اسرع الى اعراض الناس

والحاصل أن أبا عثمان ابدع فى رسائله وكتبه وفى مقدماتها ، وقد طلب اليه أحد أصدقائه أن يكتب له صفات الشارب والمشروب ، وما قيل فيهما من المدح والعيوب ، وان يميز له بين الانبذة والخمر ، وان يقفه على حد السكر وأن يعرفه السبب الذى يرغب فى شرب الانبذة وما فيها من اختلاف المنفعة وما يكره من نبيذ الاوعية — طلب منه هذا فكتبه ، فكأنه عاش حياته بين المواطن والجرار والقدور والخمارين والسكيرين والمخمورين ، وهذا آية ابداعه وعنوان ناحية فى أدبه يحسن كل شىء ويحسن وصف كل شىء

وقال فى صدر كتابه فى المعلمين أعانكَ الله على سورة الغضب ، وعصمكَ من نزوة الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة الى حب الانصاف ، ورجح فى قلبك ايثار الاناة ، فقد استعملت فى المعلمين تَوكَ السفها ، وخطل الجهلاء ، ومناجسة الادنياء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وتهكم المقتدرين ، وأمن المغترين ، ومن تعرض للعداوة وجدها حاضرة ، ولا حاجة بك الى تكلف ما كفيت

كتب ابو عثمان بعض كتبه عن طلب من أصدقائه ، و منهم من ذكر فيها أسماءهم ومنهم من لم نعرف كما وقع له فى كتاب حجج النبوة ان قال قد اتحدى حفظك الله استهدارك العلم وفهمك له ، وسعيك بالانصاف ومِلْكَ اياه ، وتعظيمك الحق وموالاتك فيه ، ورغبتك عن التقليد ، وزراءك عليه ، و ايثاره كتبك على بعد دارك ، وتقطع اسبابك ، وضرب الى اوان الامكان ، واتساعك عند نشر الذكر ، وفهمت حفظك الله كتابك الاول وما حببت عاقبة من بادل العلم والايثار على الحب والنجب فى الدين والنصيحة لجميع المسلمين ، وقلت اكتب الىّ كتاباً تقصد فيه الى حجاب النفوس و الى اصلاح القلوب ، والى معاتبات السكك وخاطر السبب ، دون الذى عليه اكثر الكتاب

من التطويل ومن التعمق والتعقيد ، ومن تكلف ما لا يجب ، وإضاعة ما يجب ، وقلت كن كالمعلم الرفيق ، والمعالج الشفيق ، الذى يعرف الداء وسببه ، والدواء وموقعه ، ويصبر على طول العلاج ولا يسأم كثرة الترداد الخ

* * *

اطننا الآن حلننا بعض ما خاض الجاحظ غماره ، وجلى فى مضامره من الابحاث ، وما اشبهه بصحيفة عصره السيارة ينطق فيها بلسان حزب الوطن ، وحزب الدولة ، وحزب الدين ، ويدل الناس على مراشدهم ، ويكشف عن عورات المفسدين ، ويعلمهم الفضائل ، ويلهمهم كل ما تستنير به عقولهم لاستصلاح جماعتهم ، يعرفهم بالاسلام من طريقى العقل والنقل ، يثبتهم عما يشككهم ، ويزيد ايمانهم وثوقاً ، ككتبه فى اثبات النبوة ونظم القرآن وفضل ما بين النبى والمتنبى

قال ابن الخياط ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الرد على المشبهة ، وكتبه فى الاخبار واثبات النبوة ، وكتابه فى نظم القرآن علم ان له فى الاسلام غنا عظيماً ، لم يكن الله عز وجل ليضيعه له ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وانه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ ، وهذه كتبه فى نسب لرسالة وكتبه فى تصحيح مجئ الاخبار مشهورة اه

[illegible] لا [illegible] الا اذا صح فى [illegible] ، [illegible] على ان [illegible] ملاحظتهم ، ويرهف حسهم ، [illegible] الدين لا يصلح بغير الدين ، وان الشريعة جاءت لاصلاح الاولى والاخرى ، ونراه كتب دفاتر مشبعة فى [illegible] الرقى وفى الشارب والمشروب [illegible] المسكر ، وفى [illegible] المروءة ، وفى [illegible] والنساء وفضل ما بين الرجال [illegible] فى [illegible] المعلمين الطفيليين [illegible] وفى [illegible] والبرص [illegible]

والعرعان ، وى الأسماء والـكى والالعاب والاسار ، وى الأصنام ، وفى الاس
والسلوة ، وفى حىل اللصوص وعس الصـاعات وأحلاق الشطار ، و نكىب
فى المعادن والىحاره وفى الررع والىحل والرسوں والاعىاب ، وفلما ىرى له محلطاً
ىدكر الى حاىب تحليط عىره من المؤلفىں

دكر الحاحط ىى مروان و ىى أُميه فى رساله ما لهم وما علىهم ، مع انه
لا ىىولاهم ، ىعول المسعودى وقوله ىؤحد ابداً ىىحفط ان الحاحط ألف كىاباً
بإمامه ولد العباس ىحىح فىه لهدا المدهب وأىه لم ىصىف هـدا الـكىاب ،
ولا استقصى فىه الحجح للراىدىه ، وهم سىعه ولد العباس ، لاىه لم ىكں ىدىىه
ولا كان ىعىقده ، لـكں فعل دلك تماحىاً وىطرىاً ، ىم صىف كىاباً استقصى
فيه الحجح برحمه ىكىاب العىاسيه ، ىحىل فىه عىد ىفسه فصائل على ومىاقبه ،
و ىحتح فىه لعىره ، ىم لم ىرص ىهدا الـكىاب المىرحم بالعىا ىه حى أعقىه ىصىىف
كىاب آحر فى امامه المرواىيـه واقوال سىعىهم قال راىىه مىرحماً ىكىاب
اماره امىر المومىں معاويه ں ابى سفىان فى الاىىصار له من على ں ابى طالب
وسىعىه الرافصه ىدكر فىه رحال المرواىيه ويؤىد فيه امامه ىى أُميه وعىرهم ، ىم
صىف كىاباً آحر ىرحمه ىكىاب مسائل العىاىيه ىدكر فىه ما فاىه دكره ونقصه
عىد ىفسه من فصائل امىر المؤمنىں على ومں ىعىه اه وهده الـكىب لم ىصلىا
فى حمله عسرات من كىىه فقدت ، فما استوعىا مما ادعاه علىه المسعودى

راىك ما الله فى عىب علىه من كىىه ، وكأىه حواب لمحالفىه ، راى المسعودى
داحل فى رمرىىهم « وعىبى كىاب السرحاء والىحلاء ، ومفاحر السودان
والحمران ، وموارىه ما ىىں حق الحووله والامومه وعىبى ىكىاب الررع والىحل

والرسوں والاعماب ، واقسام فصول الصاعات ومراتب التجارات ، وبكتاب فصل ما بين الرحال والنسا ، وفرق ما بين الذكور والاناث ، وفى اى موصع تعلب وتعصل ، وفى أى موصع تكن المعلوبات والمعصولات وصاحب أيهما فى اولد اوفر ، وفى اى موصع تكون حقهن أوجب ، واى عمل هو بهن الى ، واى صناعه هن فيها أبلع وعنى بكتاب المحطابه والا دماء ه ، وفى الرد على المحط ىه ، ورعمت انى جاورت فيه حد الحميه الى حد العصبيه ، وأنى لم أصل الى تفصيل العدنانيه الا ببعض المحطا به وعنى بكتاب العرب والموالى ، ورعمت أنى بخست الموالى حقوقهم ، كما انى أعطيت العرب ما ليس لهم وعنى بكتب العرب والعجم ، ورعمت ان القول فى فرق ما بين العرب والعجم ، هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب ساى الى التكرار والترداد والى التكثر والجهل مما فى المعاد من الخطال ، وحمل الناس ا ل وعنى بكتاب الاصنا و ذكر اعلالات الهند لها ، وسبب عبادة العرب اياها ، وكيف اجتمعا فى جهه العله ، مع افترقهما على حمله الديانه وكيف صار عباد البدده ، والمسكرين بعبده الاوثان المنحوته والاصنام المنحوره ، اسد الدنا ين ما ـا ـو ـه رسعه ـعا له راصورهم حدا واسدهم على ـ ح مهم ص أ

ـ ا ـى ى كـ ـ ـن ل و حراهر لا ص ى حا ف

حسس ه ر لاحـ عى ـ ـه رحـ هـ رمحوفه هـ وعـ ه كمـ سرع

لاه ل ى عصب ر طى عى بعصه ، كمـ صـ ر ص الالوان تصبغ ولا تصبغ ر بعضها تصبغ ولا تصبغ وبعضه صبغ وتصبغ ، وما القول فى لا كسر ر الناطف ع ى تكتب ورى ما بين هـ سم ر ـد ـس ، ر كتاب ورى ما بين الجن والانس سرق ما بين الملائكه وحـن ركمـ اءل ى

استيلاء العفريت على سليمان وفى الهدهد ، وفى الذى كان عنده علم من الكتاب ، وما الذى هو ذلك العلم ، وما تأويل قولهم كان

« وعبتنى بكتاب الارفاق والرياضات ، وما القول فى الارزاق والإنفاقات ، وكيف تجرد التجار الخرقاء ، وكيف الاحتيال للودائع ، وبكل ما كتبت إلى اخوانى وخلطائى من مزح وجد ، ومن افصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال ميسمه[1] باقياً ، ومديح لا يزال اثره نامياً ، ومن ملح تضحك ومواعظ تبكى وعبتنى برسائلى الهاشميات واحتجاجى فيها ، واستقصائى معانيها وتصويرى لها فى أحسن صوره ، واظهارى لها فى اتم حليه وزعمت انى قد خرجت بذلك من حد المعتزلة الى حد الزيدية ، ومن حد الاعتدال فى التشيع والاقتصاد فيه ، الى حد السرف والافراط فيه ، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبته مقالة الرافضة ، وان مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية وزعمت ان فى اصل القضية والذى جرت عليه العادة ان كل كبير فأوله صغير ، وان كل كثير فانما هو قليل جمع الى قليل »

وانت ترى ان ذلك العائب لاى عيب لم يترك له كتاباً لم يعبه بالا بهة ، وان كان بلغ من احكامه شوطاً بعيداً ، ثم عاد فقال « وعبت كتابى فى خلق القرآن ، كما عبت كتابى فى الرد على المشبهة ، وعبت القول فى اصول الفتيا والاحكام ، كما عبت كتابى فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وعرب .. بالا بهة وبديع تركيبه ، وعبت معارضتى للزيدية ، وتفضيل الاعتزال على كل نحلة ، كما عبت كتابى فى الوعد والوعيد ، وكتابى على النصرانى واليهودى ، ثم عبت جملة كتبى فى المعرفة ، والتمست تهجينها بكل حيلة ، وصغرت من شأنها ، وحططت

---

(١) اسم الشكوا

من قدرها ، واعترضت على ناسخها والمتعقبين لها ، فعملت كتاب الحيوانات ، وكتاب المسائل ، وكتاب أصحاب الالهام ، وكتاب الحجة فى تثبيت النبوة ، وكتاب الاخبار ، ثم عملت انكارى بصيرة غنام المرتد ، وبصيرة كل جاحد وملحد ، وتفريقى بين اعتراض العمر ، وبين استبصار الملحد ، وعملت كتاب الرد على الجهمية فى الادراك ، وفى قولهم فى الجهات ، وكتاب فرق ما بين النبى والمتنبى ، والفرق ما بين الحيل والمخارق ، وبين الحقائق الظاهرة والاعلام الناصرة ، ثم قصدت الى كتابى هذا بالتصغير »

لقى الجاحظ الألاقى من خصومه الناقدين والمعارضين ، ولكن ذهبت أقوالهم فى الريح ، وذهب هو بالاحسان ، بعد مصنفاته وانتشرت فى الآفاق ، وانقرض المتربصون وما رووا به ، فأى عصر ، وأى مذهب ، وأى جنس خلا من أمثالهم

سياسته ودهاؤه

الجاحظ رجل سياسة أيضاً كما هو معنى معنى[1] ، عرف سياسة أرقى مرتبة سياسة العلماء ومع اعتقاده عادة العلماء كما قال ابن خلدون « النظر الفكرى يغوص على المعانى وانتزاعها من المحسوسات ، وتجريدها فى الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ، ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس » مع اعتقاده هذا اشترك فى الدفاع عن كيان الدولة ، وقصر جهوده على الأمور الكبرى ، ومن دخل فى تفاصيل السياسة العامة وتيسر فيها استكبر غلطه عند ارادته أنواع السياسة فى ثاقب نظره ، ونوع

---

(١) رجل معنى كيس فى حديث ومعنى لخطب ورجل معنى معنى وفنون من اسكام

استدلالاته، من تعميم الاحكام وقياس الامور بعضها على بعض

وأول نظره فى كتبه يشعرك بانه آزر فى خدمة دولته، واستماره فى الفرق ما بين « هاشم وعبد شمس » و « الرسائل الهاشميات » و « العباسية » و « العرب والموالى » و « العرب والعجم » و « وجوب الامامة » و « الدلالة على أن الامامة فرض » و « مناقب الترك » كلها شاهدة انه شاطر السياسيين الى الحد الذى استحاره لنفسه وإنا اذا نظرنا الى اتصاله بوزراء الدولة، والى حرص كل واحد منهم على ان يختص به دون غيره، ندرك ان من سعوا بصحبته للاستماع بفضله وعلمه والاستمتاع بحديثه، لابد ان يحاولوا حمله على معاونتهم فيما هم بسبيله من مسالكهم، علماً منهم بسائر كلامه فى الافكار، ومنهم من كان عاملاً للدولة فى حاضرها، وبهم لمستقبلها، امثال ابن خاقان وابن ابى دواد وابن الزيات

ومن رأى كتاب الفرق ما بين هاشم وبنى عبد شمس، لا يعقل الا ان يشير الى حب بنى هاشم، وهم اصحاب الدولة القائمة، والجاحظ خصوصاً بحكم مذهبه لا يميل الى بنى امية ومن يؤلف « الهاشميات » و « كتاب العباسية » لا يبوحى عن خدمة العباسيين ولا يكتب الا ما يسمع الهاشميين ... آخر ... ان ابا عثمان لو لم يجد هذه الخطة السياسية، يراعى الخلفاء، ... الدعوة ووزراءهم، لاستسمعه اعداؤه، وكان له اعداء فى مذهبه، واعداء فى علمه وفكره، وحساد غلاظ شداد من طبقة العلماء، وطواغيت اغبياء، يكرهون ... ويسرهم كل من يسمع و يسهر هذا وفى أرض المملكة ألوف من المعجبين به، وا كبرهم من الخواص، والعوام ... ساخطون عليهم فى اغلب الازمان البلدان ولولا السياسة التى اتبعها الجاحظ، ولولا ما ادرك المخالف

والمؤلف ، أن له يداً عند السلطان ، وأنه يرعاه ويبسط عليه جناح رحمته ، أماله شيء من أذى العامة والخاصة ، بإيغار أنصار السوء ؟ فأبو عثمان المجد بالنظر مع التي سلكها في بعض بالنعمة يداً عند الخلفاء ورجال الدولة فعدوا له قوة وسنداً

انظر إلى قوله في جملة طبقات الناس «وضرب آخر من الناس همج هامج ورَعاع منتشر ، لا نظام لهم ولا احتشار عندهم ، أعراب أجلاف ، وأشباه الأعراب ، لا يدفع صولتهم إذا هاجوا ، ولا تؤمن هجماتهم إذا سكنوا ، إن اجتمعوا طغوا في البلاد ، وإن أحدثوا آثروا الفساد ، ثم هم موكلون ببغض القادة ، وأهل الثرا والنعمة ، يتمنون النكبة ، ويسمون بالغيرة ، ويسرون بالجولة ، ويرقبون الدائرة ، وهم كما وصفوا الطغام والسفلة »

وقال من رسالة في وصف العوام «قد عرفت ما كان الناس فيه من القول بالعامة ما لهم من الجماعات الكثيرة والقوة الظاهرة وليست للخاصة طاقة بالعامة ، ولا للقلة قوة على الكثرة وقد قالت الأوائل فيهم ، وفي الاستعاذة بالله تعالى منهم ، فقال علي رضي الله عنه نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا وقال واصل بن عطاء ما اجتمعوا إلا ضروا ولا تفرقوا إلا نفعوا فقيل له قد عرفت مضرة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق قال يرجع [illegible] كل [illegible] إلى صناعته [illegible] فيقبح الله هذه الوجوه التي لا [illegible] »

ذلك [illegible] في [illegible] كلاماً [illegible] مثلاً ، [illegible] عليه ، لا [illegible] من أن [illegible] إلى أن هذا [illegible]

ما كسه الا ليعلل من سأن الناقمين على السماسه يومئذ ، وحوابه القــدر أصح
حواب بقوله سامى ، وهذا هو

« السلطان لا يخلو من مأول نافم ، و ن محكوم عا ه ساخط ، و ن م دول
عن الحـكم زارٍ ، ومن معطل متصفح[1] ، ومن معحب برأيه ، دى خطل
بيانه ، مولع بهجين الصواب ، والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع
الأمه ، ور كيل لسكان المملـكه ، يضع نفسه فى موضع الرؤساء ، وفى موضع
المتصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يعذر وان كان مجازُ العذر واضحاً ، ولا يقف
فيما يكون للسك محملاً ، ولا يصدق بان الساهد يرى ما لا يرى الغائب ، وانه
لا يعرف مصادر الراى من لم يشهد وارده ، ولا مسندبره ن لم يعرف مستقبله ،
ومن محروم قد اصطغنه[2] الحرمان ، ومن لئيم قد افسده الاحسان ، و ن
مستبطئ قد احد اضعاف حقــه ، وهو لجهله بقدره ، ولصغر درعه ، وقلة
سكره ، يظن ان الذى بقى له أكثر ، وان حقه اوجب ، ومن مستزيد
لو ارتجع السلطان سالف اياديه الا مص عنده ، ونعمه السالفه عليه ، لـكان لذلك
اهلاً وله مستحقا قد غره الاملاء ، وابطره دوام الـكفايه ، وافسده طول
الفراغ ، وصاحب فتنه خامل فى الجماعه ، رئيس فى الفرقه ، نافق فى الهرج ،
قد اقصاه عز السلطان ، واقام صعره ثقاف الادب[3] ، واذله الحـكم بالحق ،
فهو معمط لا يجد عز التشنيع ، ولا يتسوق بعز الارجاف ، ولا يسترخ الا الى

(١) الزارى العائب ، والمتصفح الذى ينظر فى الأمر بامعان ، وهجين الأمر قبيحه ،
والطالب وا! اد الذى يرسل فى طلب الـكلا

(٢) اصطغنه جعله مسما على اضغن وهو الحقد

(٣) الصعر الميل والثقاف كسحاب ما يسوى به الرماح أى يقومها ، والنعق صوت
ا ا ى نعمه ، والهرج الفتنه والاختلاط

امانى ، ولا باس الا بكل مرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وحارص حبر فيه ، رحالف لا عبا عنده ، يريد ان يسوى بالكفاه ، و يرفع فوق لحاه ، لامر سلف له ، ولاحسان كان من غيره ، ولبس ممن يرب[1] قديماً بدنس ، ولا يحمل بدروس سرف ، ولا يفصل بين بواب المحسنين ، و بين لحفظ لاساء المحسنين ، وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام ، وبواب الكفايه ، ن لا يعرف طبقات الحق فى مراتبه ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله »

كتب هذا الى الفتح بن خاقان وزير المتوكل فى المسكله التى كان يراها حال الدوله من اهم ما تعالج يومئذ ، وهى مساله اللفظ فى الجنس ن سرب ا راك ااه ومن يقرا رسالته فى مدح الاتراك لا يصعب عليه ان يدرك ان لجاحظ على بلاغته رلطف حيلته ، كان ها يحمجم ولا يصرح ، هو يحكم مه ر رسه رمسه به يحب اا رب ، و د ب ر الا م دونهم فى المنزله والجنس ، برى ان سا العرب فى اخلاقه اعقل من رجال اا حم ، و يقول « فما ظنك اراه مسه اذا كانت مقدمه فيهم » ريقول « لم يكن ا مد المطالب فى قريش طير كما انه ليس فى العرب لقرس بطير وكما انه ليس فى العرب للناس صبر »

ك ر دعته من ا سرك فى احس رصرت للا تراك فى الدوله ا كلمه سه عه وسه لى ن يوفق بن ا صاحبين ساحه لد له فى ا ءسا عى ى سب عنصر فى جانب خ ف من هؤلا لا ر ، رقد بدت طلائع لطمهم رتجلى بطشهم وفتكهم ، ركانت تعرف مرامهم وعلى هذا كان لجاحظ على بعض صواب فى كتابه هذا ، و الى معذره فيما موه فيه فقد مع سه ب ارضى الاتراك ، وبعد درايته ان اهدأ الأفكار الثائره ، وتصح صفحات

(١) رب لامر د سامه وهم سه

من كلام الجاحظ افعل فى الناس من عشرات ن رسائل عيره وحطهم ، وهذا سر تمسك رجال الدوله به والصن بصداقه

عالج مما راى مساله تكاثر الاتراك فى الجيش ، ور بما أخ ى اشادته على الترك تعويض بعض العرب عليه ، وهكذا اقتصت سياسه دولته وأ ه وعالج ايضاً مسالة سياسيه اخرى ، عندما مساله الشعوبيه (١) ن اا حم اعدا العرب ، وقد راى الساحر بين العر من يودى الى انقسام المملكه على نفسها ، اذا فسد ركب الجيش ، و اذا فسد تركيب الامه ، فهبّ مما اوته ن حكمه عا ل الشعوبيين ، و تصغر من شانهم ، ر يرفع من قدر العرب ، وما غايته من ذلك الا خدمه الدعوه العباسيه ، و نزل فى الطعن عليهم « واعلم انك لم تر قوماً أشقى من هولاء الشعوبيه ، ولا اعدى على دينه ، ولا اشد استهلاكا لعرضه ، ولا اطول نَصَباً ، ولا اقل غُنماً من اهل هذه اا حله وقد شفى الصدور منهم طول جرم الحسد على ا كبادهم ، و توقد نار الشنآن فى قلوبهم ، وعلاان تلك المراجل الفا ره ، راسعُر ذلك اا يران المضطرمه »

حاربهم فى البيان والتبيين ، وحاربهم فى كتاب الموالى واا رب ، وحاربهم فى رسالة النابته ، ر بما فى مواضع اخرى لم يبـــه اا ا ن اقواله ، وحارب الموالى سكراهيه « العصبيه التى هلك ـ ا عالم بعد عالم ، والحميه التى لا ى د، اً

---

(١) الشعوبيه : لأعجم وفى العقد ان العرب تسمى اعجمى إذا اسلم المسلمانى ، ومنه قال مسلمه السواد ، والمجس عندهم لدى ابو ع ى و ه اعجميه والمرء الذى أمه عربيه وأبه اعجمى و عجمى النصرانى ونحو وان كان فصيحا ، والاعجمى الاخرس اللسان وان كان مسلما ومنه قيل زيا الاعجم ، وكان فى لسانه لكنه ، ودعى الفرس بالموالى فى الاسلام ، وكانوا يسمـ ـ ب ا ا الاحر ر فى الجاهليه ومن قبائل العرب كعبد القيس من كاب عجز هوازن

إلا افسدته ، ولا دنيا الا أهلكتها ، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب السعوبية ، وما قد صار اليه الموالى من الفخر على العجم والعرب » قال « ولبس أدعى الى الفساد ، ولا اجلب للشر من المفاخره
وأي شيء أغيظ من ان يكون عندك يزعم انه اشرف منك ، وهو مقر انه صار شريفاً بعتقك اياه »

فالجاحظ يشكو من خدمة الدولة فى مداواة هذين الجرحين الغائرين فى جسم المملكة ، ناقص من يسارعون فى تحطيم الجنس ، ويسارعون فى تحطيم الامة ، وكان بالكتمان أبى لكل من يدعى هذه الدعوى من الخاصة والعامة ، خلافاً لابن قتيبة الذى ادعى أن الشعوبية الذين عادوا العرب كانوا من السفلة والحشوة واوباش النبط وابناء اكرة القرى ، فاما اشراف العجم وذوو الاخطار منهم ، واهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً

اى ان هذه العداوة كان العامة يضمرونها ويظهرونها للعرب ، والخاصة من الفرس براء منها اما الجاحظ فاعقل من ان يغتر بالظواهر ، ويدرك ان معظم النار من مستصغر الشرر ويقول ان « الفرس اصحاب تقليد ، ولاسيما فى كل شيء مما فى باب العصبية »

[illegible] ذكر الشكر مكدر فى [illegible] ، وانتهى به الكلام الى مدح [illegible] فى هذا الباب ، على اسلوب يعتمد صحة كل ما يرى لك ، امل كلامه فى هذا الباب ، يجعلك تشاطرنا الرأى فى ان الجاحظ بالغ باحظ من حظوظ العباسيين ، [illegible] من ذلك الى مدح من [illegible] محمل صورتهم قال

« [illegible] كوروں من اناس باسكم ثم من فرسان [illegible] ، و [illegible]

العرب بنو جعفر بن كلاب و بنو زُرارة بن عُدَس خاصه ، فاما الا كاسرة م
الفرس فكانوا لا يعدون الناس الا عبداً ، وأنفسهم إلا أرباباً ، وانما يح
الا عن دهماء الناس وجمهورهم ، وكيف كانوا بن ملوك وسوقه ، والكبر
الاحساس الدليله من الناس ارسخ وأعم ، ولكن الذلة والقله ماتعان بن ظهو
كبرهم ، فصار لا يعرف ذلك الا اهل المعرفه كعبدنا من السند ود بنا م
الهرد ، والجمله ان كل من قدر من السفله والوضعاء والمحقر بن ادنى قدره
ظهر من كبره على من تحت قدرته ، على مراتب القدرة مالا خفاء به ، فان كا
دمثاً وأحس بما له في صدور الناس يزيد في ذلك ، واستظهر[1] به طبيعته
ما يظن ان فيه رفع ذلك الخرق ، وخاص ذلك النقص ، وسد تلك الثلمه
فمقدّ ما اقول لك فانك ستجده فاشياً وعلى هذا الحساب بن هذه الجهه صا
الملوك اسوا ملكاً من الحر وشيء فيا به علماً ، وهو انى لم ار ذا كبر قط عل
من دونه الا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه ، واما بنو مخزوم و بنو أم
وجعفر بن كلاب و بنو زرارة بن عدس فابطرهم ما وجدوا لانفسهم بن الفضله
وان كان في قوى عقولهم ودياناتهم فضل على قوى دواعى الحميه فيهم ، لكانو
كبنى هاشم في تواضعهم وفي انصافهم لمن دونهم » و ذكر في مكان آخر ان
بنى مخزوم ضرب بهم المثل ، ووضعوا في كل غايه ، فمثل ابنه بن مخزومى
قال وكانت بنو مخزوم تسمى ريحانه قريش لحظوة نسائها عند الرجال ، وكا
الخا به يولد لاحد آل الحرث بن هشام (المخزومى) فيبنا من النساء مها ، و يرى
اهلها انهم اعفيا لرغبة الخطاب فيها ولذلك قال ابن هَرمة بن قصيده

رمن لم يرد مدحى فان قصائدى   نوافق عند الا كرمين سُوامى[2]

[1] ستظهر به استعان   [2] السوق في المبايعة كالسوام

وسعق عبد المسرى الحمد بالىدى تعاق سات الحارث س هشام

ويهل الثعالى أن الحاحظ لم يترك مريداً فى وصف قرىس ومدحه اياهم وتخصيصه بنى هاسم ، فانه رحمه الله الى تُحَّه فصاحته واسىرف بحر بلاغته فى فصل له وهو قوله العرب كالبدن ، وقرىس روحها ، وهاسم سرها ولبها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهاسم ملح الارض ، وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسَّنام الأضخم ، والكاهل الاعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، رمناهل الظامئ الى الحلم ، والسيف الحسام فى العزم ، مع الاناه والحزم ، والصفح عن الجرم ، والاغضاء عن العثره ، رالعفو عند المقدره ، رهم الانف المقدم ، والسنام الاكوم[1] ، والعز المسمخر ، والصيانه[2] والسر ، ركالما الذى لا ينجسه شىء ، وكالشمس لا تخفى بكل مكان ، ركالنجم للحيران والما البارد للظمآن ، ومنهم الثمران ، والطيبان ، والسبطان رالشهيدان ، رأسد الله ، وذو الجناحين ، وسيد الوادى ، وساقى الحجيج ، رحليم البطحاء ، رالبحر والحبر ، والانصار انصارهم ، والمهاجر من هجر اليهم ار معهم ، ر صديق من صدقهم والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم ، والحوارى حوارىهم ، رذو الشهادتين لانه شهد لهم ، ولا خير الا فيهم او فيهم ار معهم ار يضاف اليهم ، وكيف لا يكونون كذلك و منهم رسول رب العالمين ، وامام الاولين رالآخرين وسيد المرسلين وخاتم النبيين »

مثال آخر سبب انه كان يغلو فى مدح بنى هشم وهو قوله كاتب الطرائين

(١) الاكوم المرتفع

(٢) الصب و الصيانه نصبهما و خفضان خاص والضمير و الاصل والحار من الشىء ، و الصيانه الستر وشمخر طال والمسمخر الجبل العالى

تقع كثيراً فمصر بوارح كطاعون عمواس ، وطاعون العذارى ، وطاعون الأشراف وغيرها ، ولما ملك بنو العباس رفع الله ببركتهم الطواعين والوباء الجارف عن بنى آدم ، فانها كانت تحصد فيهم حصداً وفى ذلك يقول العمانى للرشيد

قد أذهب الله رماح الجن وأذهب التعليق والتجنى

يريد ما كان بنو مروان يفعلونه من مطالبة الناس بالاموال ، وتعذيب عمال الخراج بالتعليق والتجريد قد ذهب وكلامه هذا منقوض نوعا فى التاريخ ، فان الامويين كانوا أرحم فى باب الجباية من العباسيين ، وفى رسالة الخراج التى كتبها ابو يوسف للرشيد وصف كثير لما كان يعذب به الناس فى الخراج فى دهر العباسيين ، على ما لم يعهد بعضه فى زمن الامويين

وبعد فانك لا ترى فى كل ما سلم من كتابات الجاحظ الا تناسياً منه لما يرتكب من المآثم فى المجتمع ، والسلطان فى العادة والعرف هو مسؤول عنه فى الدرجة الاولى وجهه نظره فى سياسة استصلاح اهل المجتمع لمصلح المأمون عامة بالضرورة ، ومن اطيف ما ناه ان لا تنبه الاذهان الى عيوب الدولة لانه يحاذر عليها اعداءها ، ومصلحته تقتضيه الدفاع عنها واعل الجاحظ كان يعرف من عيوب الخلفاء من بنى هاشم ومن عيوب رجالهم وعمالهم مالا يعرفه كثير من كبراء الدولة فى عصره ، وقصاراه الاغضاء اضطراراً لا اختياراً ، فهو يوجه نقده الى الكثرة العامرة من الامة ، عسى أن تكون بصلاحها صلاح الدولة ولا يؤخذ من هذا ان الجاحظ صانع رجال الدولة ، ولو كان يحاول ذلك ، ولا يحس مقدار قبح هذه النقمة لاعتذر عنهم فى اكثر ما نم على ايديهم ، واتدى اتباعهم من السرور بالمظالم ، بلا قام لهم الاعذار ، وهو لا يعدم حجة ، ولا يقصر فى بلاغة ،

بيد انه رأى الإغضاء و استدال الستر على ما هنالك ، وانطلق نصرف فمن سالون من السلطان بما احتار لقيام أمره من أحماس عبر عربية أعصبت العرب ، و بين بكيدون من السعوديين اعداء العرب ، وهواه أبداً مع بنى هاشم ، رئيسهم فى عينه كونهم اصحاب السلطان وهو القائل « وقصه واحده ان الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد ، يجمع شملهم و يكفيهم و يحميهم من عدوهم و يمنع قويهم عن ضعيفهم ، وقليل له نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم » ثم إن قصوره قليل يوم نصح عزمه على ذكر خصومه لانه بعد الـكذب كبيره ، و يكره التزيد فى كل شيء فإذا موه موه بعقل ، و اذا احب قد يترك مجالاً حفظ حظ الرحمه كما يقول المعاصرون ، لا عمى عما ظهر من السيئات ، و ان اضطره الدرعى الى اغماض الطرف عن ترداده

تهكم ونادره

قل فى العارفين من الناس من تذوق الحياة بالمعنى الذى تذوقه الجاحظ حداً حداً لم تبلغه غير افراد فى الآحاد ، وهزل هزلاً قوى به على معاوده الجد ، وروح عن نفسه رغم حقه وعسره زمرا كسبه ادرك ان مرارة الحياه لا تحلو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ووقف على اسرار نفس الإنسان تحاول ان تلطف من سره [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الضحك والاضحاك حلا مع [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والـ [illegible] يعلم نا اضحك اكثر مما يعلم [illegible] [illegible] [illegible] لا يكون المرء جامداً [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

قل فى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

« إن الكلام قد يكون في لفظ الجدّ ومعناه معنى الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة في كل حال ، والجد في كل مقال ، وتركوا التسميح والتسهيل ، وعَقّدوا في كل دق وجليل ، لكان السفه صراحاً جبراً لهم ، والباطل محضاً أرد عليهم ، ولكن لكل شيء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه ، كالبكاء في موضعه ، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه ، وكذلك المنع والبذل ، والعقاب والعفو ، وجميع القبض والبسط ، فإن ذممنا المزاح ، ففيه لعمري ما ذُمّ ، وان حمدناه ، ففيه ما يحمد ، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ الى المزاح أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، فاما أن يذم حتى يكون كالظلم ، ويعى حتى يكون كالغدر فلا لان المزاح مما يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً ، والظلم لا يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً »

« والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان وهو باب متى فتحه فاتح ، وطرّق له مطرق لم يملك من سده مثل الذي ملك من فتحه ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه ، لانه باب أصل بنائه على الخطأ ، ولا يخالطه من الاخلاق الا ما سَخُف ، ومن شأنه التزيد ، وان يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر سبباً أبعد من بر ، ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافاً ، ولا أكثر خلطاً ، من الجد والمزاح ، والمناظرة والمراء »

هذا قوله في رسالة التربيع والتدوير ، وهي الرسالة التي عبث فيها بأحمد ابن عبد الوهاب الكاتب ، وقد أبدع فيها ما شاء ابداعه ، وعاد بعد حين فقال

« وقد ذهب الناس في المزاح الى معان متضادة ، وسلكوا منه في طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون ان الخير والشر عليهما مقسومان ، وان الحمد والذم بينهما نصفان فاما المحامي على الهزل

والمفضّل للمزح ، فانه قال أول ما اذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال ، وأن الجد لا يكون إلا من فضل حاجة ، والمزح لا يكون الا من فضل غنى ، وأن الجدّ عصب ، والمزح جَمام ، والجدّ مَنغصه ، والمزح محبه وصاحب الجد فِي بلاء ما كان فيه ، وصاحب المزح فى رخاء الى ان يخرج منه والجد مؤلم ، وربما عَرضت لأَسدّ منه ، والمزح ملذ ، وربما عَرضت لألذّ منه فقد شاركه فى التعرض للخير والشر ، وبانه يحتمل الخير دون الشر ، وانما يتشاغل الناس ليفرغوا ، ويَجدّوا ليهزلوا ، كما يتذللوا ليعزوا ، وكذا السير يخزا ، وان كان المزح انما صار معيباً ، والهزل انما صار مذموماً ، لأَن صاحبه لا يكون الا معرّضاً لمجاوزة القدر ، ومخاطراً بمودة الصديق ، فالجد داعيه الى الإفراط ، كما ان المزاح داعيه الى مجاوزة القدر ، ومجاوز الجد قاطع بين المرسين فى جميع الاوجه ، فقد ساواه المزاح فى هوله وبانته فيما ليس له ، وان كان المزح قبيحاً لأنه يورث الجد ، فاقبح من المزح ما صَيّر المزح قبيحاً وإذا صار المزح قبيحاً ، لان الذى يكون بعده الجد ، ولم يصير الجد قبيحاً ، لان الذى بعده المزح ، كان الجد فى هذا الوزن اقبح من المزح ، وكان المزح على هذا المقدار احسن من الجد ، لان ما جعل الشيء قبيحاً اقبح من الشيء ، كما ان ما جعل الشيء حسناً احسن من الشيء »

« واما الذى عدل بينهما ، فانه زعم ان المزح فى موضعه كالجد فى موضعه ، كما أن المنع فى حقه كالبذل فى حقه » قال « ولكل شيء موضع ، وليس شيء يصلح فى كل موضع وقد قسم الله الخيرة على الدنيا ، واجرى جميع الامور على عادة المصلحة ، وبسط اجزاء المثوبة على العزم والحصة ، وعلى الاعلان والسر ، وأمر بالمداراة كما أمر بالمساواة [illegible] ، كما أمر بالافصاح ، وصرّح

فى المباح ، كما سدد فى المفروض ، وجعل المباح جَماماً للقلوب ، وراحة للأبدان ، وعوناً على معاودة الاعمال ، فصار الاطلاق كالحظر ، والصبر كالسكر ، وليس للإنسان من الخيرة فى الذكر شىء الا وله فى النسيان مثله ، ولا فى الفطنة شئ الا وله فى الغفلة مثله ، ولا فى السراء شىء إلا وله فى الضرّاء مثله ، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضاً ، وبالصدق صرفاً ، وبمرّ الحق صميماً ، لهلكَ العوام ، وانتقض أمر الخواص ، ولو ذكر الانسان كل ما أنسيه لَشَقِىَ ، ولو جد فى كل شىء لانتكث ، وقد تكون الذكرى الى الهلكة سلماً ، كما تكون النسيان للسلامة سبباً وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل ، وعلى ذلك يجرى جميع القبض والبسط فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم »

أبان ابو عثمان بهذه الصفحة عن رأيه فى الهزل والجد ، وفى مواطن استعمالهما وذكر آراء غيره فى ذلك ، وما ندرى ان كانت جمهرة آرائهم ام هو تصور انها آراؤهم فاوردها بهذه الصفة ، وسبحها هذا النسج اعتاد الانسان المزاح والنادر والمرح ، ولكن ادخال ذلك فى هذا القالب العلمى وتدوينه بالتأليف مما لم نعرفه قبل الجاحظ عن افراد ، ان لم تكن هذه الطريقة من مبتكراته ساميره فهو معظم شيوخها ، ومطرز نصوصها و موبها

قال ان « اهل العلم والنظر ، واصحاب الفكر والعبر ، وأرباب النحل ، والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل ، وورثة الانبياء ، واعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء ، وكتب الفراغ والخلعاء ، وكتب الملاهى والفكاهات ، وكتب أصحاب الخصومات ، وكتب أصحاب المراء ، وكتب اصحاب العصبية وحمية الجاهلية ، لانهم لا يحاسبون انفسهم ، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم ، ولا يخافون تصفح العلماء ، ولا لائمة الادباء »

فهو اذاً سعمد رفع الملل عن فارئه وعدم اصحاره بالدوام على الحد ، لان « الادن محاحه وللمعس حمصه » كما روى اس فسه وراد هدا بان « المراح إدا كان حقًا أو مفارباً ، ولاحاسه وأوفاته وأسباب اوحبه مشاكلا ، لس من العسح ولاالمنكر ، ولامن الكبائر ولا من الصغائر ، ورعاب الناس مساويه » و انما الكتاب « مثل المائده يحلف فيها مذاقات الطعوم لاحلاف سهوات الآكلين » ومعنى الادن محاحة وللمعس حمصه ، أن الادن لايعى كل ما سمعه ، وهى مع دلك داب سهوه لما سطرفه من عرائب الحديث ونوادر الكلام هكذا سرحها الحاحط وفال إنها كلمه للقدماء

وفال ى كتابه النساء رلس سعى لكتب الآداب والرياضات ان تُحمل اصحابها على الحد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعاني الصعبه التى تسكد المعرس ، و سفرع المجهود ، وللصبر غايه ، وللاحمال نهايه ، ولا باس بان يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل ، على ان الكتاب اذا كثر هرله سحف ، كما أنه اذا كثر حده ثقل ، ولابد للكتاب ، ن ان نكون فيه بعض ما يبسط القارئ ، و ىىفى النعاس عن المستمع

ادرك الحاحط بحكمه بفسيه النسر ، وما ينفعهم وما يضرهم ، وما يحملوم رما يحمس م فقال « رحير الناس الس ل الطلق الوحه المتواضع ، وواسه الرحل السو ں نكا ں مىـ حاً عىر م سرح رال رى ا به لى ا ـ ه ره وا ـ ك ـ ں عىر مرص ، وان يكون صس الفاب ، اں ك ں للدعابه امرح كارهاً ويه عاماً ، ران براه عاط اللفط عىد اىحا ره رمں وراسه لرحل الصالح ان يرا سساً طلقاً دا منطر ىں وكلام سهى ، سط الحا س سر ممعص ولا ر ب سىق(١) و ں رحير كاره لاسمعابه رالمراح ، ىد كر مں ىد كره ىحر س عر ره

(١) مع ں عص حں عسه ص رعو سكسه عقب —

متواضعاً » «ورجال الجد غير رجال الهزل ، وقد يحسن الشيء بالشباب و نقبح مثله من الشيوخ ، ولولا التحصيل والموازنة ، والابقاء على الأدب والديانة لشدة المحاسبة ، لما قالوا لكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال »

* * *

ربما لم ننس ان الجاحظ كان دميم الوجه ، قبيح الا قاطيع ، يحمل القسمات وكان الأخفش أحد مساجيه — والاخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما — أجلح أيضاً — والأجلح الذي لا ينضم شفاه على أسنانه — ولا شك أن الشيخ وتلميذه كانا اذا اجتمعا ، والجاحظ نابي العينين ، بالغين مهما صورتان عريبتان ولعل أبا عثمان لم يرض كما قالوا ان يفارق سجيته بعد ان أخذ اعتده وآثر ان يقيما صديقين لبعض المشاكله في الصوره والخلق ، ولعل الجاحظ ما يعفي كثيراً عن العيب باستاده ، وهو ابن النكته الحاره لا البارده ، وعنده أن « النادره البارده جداً قد تكون اطيب من النادره الحاره جداً ، و انما الكرب الذي يخيم على القلوب ، و يأخذ بالانفاس ، النادره الفاتره التي لا هي حاره ولا هي بارده ، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط ، و انما الشان في الحاره جداً او البارده جداً » ولذا نراه كان يحكي نوادر الا قوام بالفاظ العوام ، حتى لا يفقد النكته حلمها الاولى ومؤثراتها الخاصه وقال عن نفسه انه وصف للخليفة المتوكل لتأديب احد اولاده ، فلما راى صورته استبشع بها فصرفه وقال عن نفسه انه اشترى له جارية تركية جميلة رجاء ان يرزق منها ولداً يكون يحسنها وذكائه ، فولدت له ولداً جاء بقبحه وجهلها

ومن نكاته قوله ومن الا بخلاء المذكورين ابو الهذيل ، اهدى مره الى موسى بن عمران دجاجة ، وكانت دون ما يُتحد لموسى ، الا انه لكرمه وحسن

حلقه ، اظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها ، فقال له كيف رأيت يا ابا عمران تلك الدجاجة ؟ قال كانت عجباً من العجاب ، قال او تدرى ما جنسها ، وتدرى ما سنها ؟ فان الدجاجة انما تطيب بالسن والجنس ، وتدرى بأى شيء كنا نسمنها ، وفى اى مكان كنا نعلفها ؟ ولا يزال فى هذا ، ويونس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ، ولا يعرفه ابو الهذيل ؛ وصار بعد ذلك ان ذكروا دجاجة قال اين كانت يا ابا عمران من تلك الدجاجة ، وان ذكروا بطة او عناقاً او جزوراً او بقرة قال فاين كانت هذه الجزور فى الجزر من تلك الدجاجة فى الدجاج ، وان استسمنوا شيئاً من الطير أو البهائم او الدجاج قال لا والله ، ولا تلك الدجاجة ؛ وإن ذكروا عذوبة الشحم قال عذوبة الشحم تُصاب فى البقر والبط وبطون السمك والدجاج ، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج ، وان ذكروا ميلاد شيء او قدوم انسان قال كان ذلك قبل ان أهدى الىك تلك الدجاجة بشهر ، وكان بعد ان اهديتها لك بسنة ، وما كان بين قلان وبين البعث بتلك الدجاجة الا يوم ، وكانت مثلاً فى كل شيء ، وتاريخاً لكل شيء » ويونس بن عمران من ارباب الثروات فى البصرة كان ، وهو الذى رضخ للجاحظ بدنانير اباع بها ما يصاب به ، واخرج ابا عثمان من ضيق امره بتدابيره ، لازال امره ، على ما مر بنا فى الفصل الذى عقدناه لوصف نشأته وتعليمه ؛ وعلينا ان نتأمل فى هذه القصة قوله « ويونس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ولا يعرفه ابو الهذيل »

فالجاحظ كما رأيت يسلى نفسه بهذه المداعبات ، ويبتسم ابتسامة العظمة اذا برم بأبناء الزمان عند مسارى الدهر فقال جاداً « نصف الله جده الزمن ، وفساد الايام ، وقوله الابدال »

« وقدماً كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق فى قوله ، وآثر الحق فى أموره ، وسد المشتبهات عليه من سوويه ، عب له السلامه ، وفار بوفور حظ العافيه ، وحمد مغبه مكروه العاقبه ، فنظرنا اذ حال عندنا حكمه ، وتحولت دولته ، فوجدنا الحياء متصلاً بالحرمان ، والصدق آفه على المال ، والقصد فى الطلب بترك استعمال القحه ، و اخلاق العرض من طرق التوكل ، دليلاً على سخافه الرأى » وبعد أن قال فمن وجد فيه الفسوله الواضحه ، والمثالب الفاضحه ، انه ان زل قيل حَكَمٌ ، و ان اخطأ قيل أصاب ، و ان هذى فى كلا مه وهو يقظان ، قيل رؤيا صادقه من نسمه مباركه قال فهذا دليل ان الطلاح أجدى من الصلاح ، وان الفضل قد مضى زمانه ، وعفت آثاره ، وصارت الدائره عليه ، كما كانت الدائره على ضده ووجدنا العقل يشقى به قرينه ، كما أن الجهل والحمق يَحظى به خدينه ، ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان ومعرباً عن الايام حيث يقول

يحامق مع الحمقى اذا ما لقيتهم ولاقِهم بالجهل فعلَ اخى الجهل
وخلط اذا لاقيت يوماً مخلطاً يخلط فى قول صحيح وفى هزل
فانى رايت المرء يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

قال « فوالله ما عُذِّبت امه برجفه ولا ريح ولا سخطه ، عذابى على تروية المعانيه المذممه ، والاخبار المهلكه ، كأن الزمان يوكل بعذابى ، فما عشت ن لا يسر باح سمعى ، ولا يصطبح فى اول نهاره الا برويه ن كرهه و م ه »

وهذه هى الناحيه العابسه من نفس الجاحظ المرحه ، رأ ه ها يذكر ما يحيط به من المكدرات والمنغصات حتى ليشقى طبعه بالصلاح ، و يفضل عليه الطلاح ، شأن المتشائمين والسوداويين ونفس عُمِّرت كثيراً ، واختلفت عليها الاحوال

قبضاً و بسطاً ، وخفضاً ورفعاً ، ومثل نفس الجاحظ لا تكون على حاله واحدة من الاسترسال والانقباض طول العمر رأى من الخلفاء اشكالاً ، ومن الأمراء والوزراء والعلما طبقات بعد طبقات ، ومن أشتات المجتمع من لا يحصيهم غير خالقهم ، ومن ضروب الاخلاق ما لا يتسع لذكره الاوراق ، وليس من شأن الدهر ان يثبت على حاله واحده حتى يفسح للجاحظ ان يعيش قرناً على وتيرة واحده ، وهو القائل لما مسخ الانسان قرداً لم يزل فيه مشابه من الانسان ، ولما مسخ زمانا لم يزل فيه مشابه من الازمان وأنشد

وكان لنا اصدقاء مضوا تفانوا جميعاً وما خلدوا
تساقوا جميعاً كؤوس المنو ن فمات الصديق ومات العدو

وقد غلب الدعابه على الجاحظ وتخلب حبه مزحه وتهكمه حتى في بعض ما يكتب من امر الجد ، وقد نفهم تهكمه من اسلوب الاداء في عبارته ألبس في قول الجاحظ لما تكلم على الخنزير فقال « لو ان الكفر والافلاس والغدر والكذب تجسدت ثم تصورت لما زادت على قبح الخنزير ، وكان ذلك بعض الاسباب التي مسخ بها الانسان خنزيراً ، فان القرد قبيح الوجه قبيح في كل شيء وكذلك به جرى المثل المضروب به ، ولكنه من وجه آخر أملح ، فالخنزير يعرض على قبحه وقبح سماجته ، والخنزير أقبح منه لا ان وجه القرد شبيه بوجه الانسان فصار أسمج منه كثيراً » ألبس في قوله هذا شيء من التهكم يستخف من اسباب الهزل في الجد ؟

قال في وصف الانسان وما حذقه من طبع الحيوان « وما علمت ان الانسان الذي خلق له ما في السموات والارض وما بينهما كما قال الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً — ... ...

الـكبير حين وجدوا فيه من جميع اشكال ما فى العالم الـكبير ، « ووجدوا له الحواس الخمس ، ووجدوه يأكل اللحم والحب ، ويجمع بين ما يتمايز به السبع والبهيمة ، ووجدوا له صولة الجمل ، ووثوب الاسد ، وغدر الذئب ، وروغان الثعلب ، وجبن الصُّفرِدِ وجمع الذَّرة ، وصنعة الزَّرافة ، وجود الديك ، وإلف الـكلب ، واهتداء الحمام ، وربمـا وجدوا فيه من كل نوع من البهائم والسباع خلقين او ثلاثاً ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصولته وحقده ، وصبره على حمل الثقل ولا يلزم تسميته الذئب بقدر ما بينهما فيه من قبل مكره وغدره واستبرواحه ، وتوحشه وشـدة قلبه ، كما أن الرجل يصيب الرأى الغامض ، المرة والمرتين والثلاث ، ولا يبلغ بذلك المقدار ان يقال له داهية وذو مكر وصاحب خدعة ، كما يخطئ الرجل فيبخس حظوة فى المرة والمرتين والثلاث ، ولا يبلغ الامر به ان يقال له غبى وابله ومنقوص » وعلى ما فى هذا الـكلام من بحث نفسى لا يخلو من معانى التهكم والهزل ، وعنده « ان الـكلام قد يكون فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد »

ومن نوادره انه سُمع يقول رأيت جارية فى سوق النخاسين ببغداد ينادى عليها ، فدنوت منها وجعلت اقلبها ، فقلت لها ما اسمك ؟ قالت مكة قلت الله اكبر قد قرب الحج ، اتأذنين ان اقبل الحجر الاسـود قالت اليك عنى ، الم تسمع الله يقول لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ؟

ومنها سمع أبو بكر محمد بن اسحق يقول قال لى ابراهيم بن محمود ونحن ببغـداد ألا ندخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت مالى وله قال اذا انصرفت الى خراسان سألوك عنه ، فلو دخلت عليه وسمعت كلامه ثم لم

نزل بي حتى دخلت عليه يوماً ، فقدم الينا طبقاً عليه رطب ، فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت ، ومر فيه ابراهيم ، فاسترب الله أن يمسك ، فرمقني الجاحظ ، وقال لي دعه يا فتى ، فقد كان عندي في هذه الايام بعض إخواني ، فقدمت اليه الرطب فامتنع ، فحلفت عليه فأبى إلا ان بر قسمي بثلاثمائة رطبة

وحدث الجاحظ قال وقفت انا وابو حرب على قاص ، فاردت الولع به فقلت لمن حوله انه رجل صالح ، لا يحب الشهرة فتفرقوا عنه ، فتفرقوا ، فقال لي حسبك الله ! اذا لم ير الصياد طيراً كيف يمد شبكته ؟

روى أن رجلاً من اهل السواد تشيع ، وكان طريفاً ، فقال ابن عم له بلغني أنك تبغض علياً ، والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك فقال أ الحوض في يده يوم القيامة ؟ فقال نعم فقال وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف ، وفي الآخرة بالعطش ؟ فقيل له أتقول هذا مع تشيعك ودينك ؟ فقال والله لا تركت النادرة ، ولو قتلتني في الدنيا ، وادخلني النار في الآخرة

ومنها حكى بعض ابناء البرامكة قال تقلدت السند وحصل لي ما شاء الله ثم صُرفت عنها ، وكنت قد اكتسبت بها ثلاثين الف دينار فيها عشرة آلاف اهليلجة[1] ، فجئت البصرة وركبت البحر فانحدرت الى البصرة فخبرت ان الجاحظ بها ، وانه عليل بالفالج ، واحببت ان اراه قبل وفاته فصرت اليه فقرعت الباب فخرجت الى خادمة صفراء فقالت رجل غريب احب ان انظر الى الشيخ فبلغته ، فسمعته يقول وقل له ما تصنع بشق مائل

(١) الاهليلج وقد تكسر اللام الثانية والواحدة بها ، ثمر منه اصفر ومنه اسود وهو البالغ النضيج ومنه كابلي ينفع في الخوانيق ويحفظ العقل ويزيل الصداع (القاموس)

ولعاب سائل ، ولون حائل فقلت للجارية لابد من النظر اليه فقال هذا رجل ورد البصرة ، وسمع بي وبريد ان يقول رأيت الجاحظ ، فأذن لي فدخلت وسلمت ، فرد رداً جميلاً وقال من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ، فقال رحم الله أسلافك وآباءك السمحاء ، فلقد كانت أيامهم رياض الازمنة ، ولقد رأى بهم الخلق خيراً كثيراً ، فسقياً لهم ورعياً فدعوت له وقلت له انشدني شيئاً ، فقال

لئن قُدمت قبلي رجال فطالما مشيت على رسلي فكنت المقدَّما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه فتُبرمُ منقوضاً وتنقض مبرماً

ثم نهضت ، فلما قربت من الباب قال يا فتى ، أرأيت مفلوجاً ينفعه الاهليلج ؟ قلت لا قال الإهليلج الذي معك ينفعني ، فابعث اليّ منه فقلت نعم ، وخرجت من وقوعه على خبري مع كتمي له ، وبعثت له منه شيئاً

قال الحصري بعد ايراد هذه القصة وهذا يدل على كثرة تجربته وتنقيره ، اذ كان وهو في هذه السن العالية ، والفالج الشديد ، يستبر عنده الاخبار ، ولا تطوى عنه الاسرار ، فكيف كان قبل هذا ؟ وفي احدى نجاباته أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال

قال ابو عثمان ما أخجلني احد مثل امرأتين رأيت احداهما في العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فاردت ان امازحها ، فقلت انزلي كلي معنا ، فقالت اصعد انت حتى ترى الدنيا وأما الاخرى فانها اتتني وانا على باب داري فقالت لي اليك حاجة واريد ان تمشي معي ، فقمت معها الى أن أتت بي الى صائغ يهودي فقالت له مثل هذا ، وانصرفت فسألت الصائغ عن قولها فقال انها اتت اليّ بفص وأمرتني أن انقش لها عليه صورة شيطان ،

فقلت يا ستى ما رأس الشيطان ، فاسف بك وقالت ما سمعت

لما جيء به مقيداً من البصره الى بغداد عقب مقتل صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، أمر احمد بن ابى دؤاد أن يفك قيده ، فجيء بالحداد ، فقال الجاحظ لتفكوا عنى أو لتزيدونى ؟ فقيل له بل ليفك عنك ، فغمز بعض أهل المجلس الحداد أن يعنف بساق الجاحظ ، و يطيل امره قليلاً ، ففعل ، فلطمه الجاحظ وقال له اعمل عمل سنة فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فان الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة فضحك ابن ابى دؤاد وأهل المجلس منه

صنف كتاباً من كتبه و بوّبه وبثه فى الناس ، فاخذه بعض اهل عصره فحذف منه أشياء جعله أشلاء ، فاحضره وقال له يا هذا إن المصنف كالمصور ، و انى قد صورت فى تصنيفى صورة كانت لها عينان فعورتهما ، اعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتهما ، صلم الله اذنيك ، وكان لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك حتى عد اعضاء الصورة

وسأله شخص كتاباً الى بعض اصحابه بالوصية فكتب له رقعة وختمها ، فلما خرج الرجل من عنده فضها فاذا فيها « كتابى اليك مع من لا اعرف ولا ارجب حقه ، فان قضيت حقه لم أحمدك ، و ان رددته لم أذمك » فرجع اليه الرجل ، فقال الجاحظ كأنك قد فضضت الورقة ؟ قال نعم قال لا يضرك ما فيها فانه علامة لى اذا أردت العناية بشخص ، فقال الرجل قطع الله يديك ورجليك ولعنك فقال ما هذا ؟ قال علامة لى اذا اردت ان اشكر شخصاً

وحكى ابن أبى طاهر قال صرت الى الجاحظ فى حاجة وقد اسنّ

واعتلّ فى آخر عمره وهو فى مبطره له وعنده ابن خاقان جاره فقرعنا الباب فلم يفتح لنا ، واشرف من المطره فقال الا انى قد خوفلت وحماب رمیح أبى سعد وسقت العم(١) ، فما تصنعون بى ؟ سلموا سلام الوداع فسلمنا وانصرفنا

دخل احدهم على الجاحظ فسأله عن حاله ، فقال له الجاحظ سألنى عن الجملة فاسمعها منى واحداً واحداً حالى ان الوزير يتكلم برأيى ، و ينفذ امرى ، و يواتر الخليفة الصلات الىّ ، وآكل من لحم الطير اسمنها ، والبس من الثياب ألينها ، واجلس على اللين الطرى ، واتكى على هذا الريش ، ثم اصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج فقال له الرجل الفرج ما انت فيه ، قال بل احب ان يكون الخلافة لى ، و يعمل محمد بن عبد الملك بامرى ، و يختلف الىّ ، فهذا هو الفرج

وقال ان بهيا لك فى الشاعر أن تبرّه وترضيه و الا فاقتله

حكى الجاحظ انه الف كتابا فى نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ، ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع ذلك الكتاب ، قال دخلت يوما مدينة فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد على احسن رد ، ورحب بى فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن فاذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول واشعار العرب ، فاذا هو كامل الآداب ، فقلت هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب قال فكنت أختلف اليه وازوره ، فجئت يوماً لزيارته ، فاذا بالكتاب مغلق ، ولم أجده ، فسألت عنه فقيل مات له ميت ، فحزن

(١) قوله خوفلت اكثرت من قولى لا حول ولا قوة إلا بالله لتتابع الأمراض ، وقوله رميح ابى سعد هو رجل من العرب أسن فاستعان بالعصا ، وهو أول من فعل ذلك فصل لكل من ساح احد رميح أبى سعد ، وقوله سقت العم هو عند العرب كناية عن الهرم ، لأن سائق العم نطاطىء راسه

عليه وجلس فى بيته للعزاء ، فذهبت الى بيته وطرقت الباب ، فخرجت الىّ جارية وقالت ما تريد ؟ قلت سيدك ، فدخلت وخرجت وقالت باسم الله ، فدخلت اليه و اذا به جالس فقلت عظم الله أجرك لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له هذا الذى توفى ولدك ؟ قال لا ، قلت فوالدك ؟ قال لا قلت فاخوك ؟ قال لا قلت فزوجتك ؟ قال لا فقلت وما هو منك ؟ قال حبيبى فقلت فى نفسى هذه اول المناحس فقلت سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها فقال اتظن أنى رأيتها ؟ قلت وهذه منحسة ثانية ثم قلت وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال اعلم انى كنت جالساً فى هذا المكان وأنا انظر من الطاق اذ رأيت رجلا عليه بُرد وهو يقول

يا أُمّ عمرو جزاك الله مكرمة ردى علىّ فؤادى اينما كانا
لا تأخذين فؤادى تلعبين به فكيف يلعب بالانسان انسانا

فقلت فى نفسى لولا ان أُم عمرو هذه ما فى الدنيا احسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول

اذا ذهب الحمار بام عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت انها ماتت فحزنت عليها ، واغلقت المكتب وجلست فى الدار فقلت يا هذا انى كنت الفت كتاباً فى نوادركم معشر المعلمين وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمى على ابقائه ، واول ما ابدأ ابدأ بك ان شاء الله تعالى

وكان الجزار المصرى شاعراً مجيداً حسن التلعب ، وكان له مع ابن الخطيب ملاحاة ممتعة وقد تكون فيها فذاعة وفحش ، وكان الخطيب ينعت ابنا

مأبى هِفّان الساعر وعىرهما من السعراء والـكتاب والمولعس والقصاصس وكل دلك من عىر سدل و إسفاف

ومعانى الحاحط فى هدا الباب مدكوره فى كلام له ، قال ولم ىر العىون ، ولا سمعت الآدان ، ولا توهمت العقول عملاً احساه دو عقل ، او احباره دو علم ، مأونا ولا افسد لعرض ، ولا اوحب لسحط الله ، ولا ادعى الى مقت الناس ، ولا أبعد من الفلاح ، ولا اطهر نفوراً عن التوىه ، ولا اقل ادراكا عىد الحقىقه ، ولا انقص للطبىعه ، ولا امىع من العلم ، ولا اسد حلافاً على الحلم ، من الكىر فى عىر موضعه ، والتبدل فى عىر كنهه وما طنك بسىء العحب سفىفه ، والمدح صدىقه ، والسفىح أليفه ، والصلف قصده والمداح مىرىد ، والنفاح كداب ، والمتكبر طالم ، والمعحب صغير النفس ، و ادا احتمعت هده الخلال ، واسطمت هده الخصال فى قلب طال حرانه ، واستغلق بابه ، وسر العيوب ما كان متصماً بعيوب ، وسر الدنوب ما كان عله الدنوب

نمارج منه رقاعه وكلماته

(١) كتب الى ابن أبى دواد يستعطفه « ليس عندى ، أعزك الله ، سبب ، ولا اقدر على سفيع ، إلا ما طبعكَ الله عليه من الكرم والرحمه والتأمىل الدى لا يكون الا من نتاج حسن الظن ، و اثبات الفضل بحال المأمول ، وأرجو أن أكون من العتقاء الساكرين فتكون خير معتق ، وأكون افضل شاكر ، ولعل الله ان يجعل هذا الامر سبباً لهذا الإنعام ، وهذا الإنعام سبيلاً للانقطاع اليكم ، والسكون تحت احنحتكم ، فتكون لا اعظم بركه ، ولا أنمى نعمه ، من ذنب اصبحت فيه ، و بمثلك ، جعلت فداك ، عاد الذنب وسيلة ، والسيئة حسنة ،

ومثلك من انقلب به الشر حيراً والغرم غنماً ، و ن عاقب أخذ حظه ، و اما الاجر فى الآخره ، وطيب الذكر فى الدنيا ، على قدر الاحتمال ، وتجرع المرائر[1] ، وارجو ألا أصنعَ واهلِكَ فيما بين عملك وكرمك ، وما اكثر من يعفو عن صغر ذنبه ، رعظم جمه ، و اما الفضل والسنا ، العفو عن عظيم الجرم ، صه مـ الحرمه ، و ان كان العفو العظيم مستَطرَفاً من غيركم ، فهو بلاد فيكم ، حتى ر نما دعا ذلك كثيراً من الناس الى مخالفه امركم ، فلا انهم عن ذلك سكاون ، ولا على سالف احسانكم يندمون ، وما مثلكم الا كمثل عيسى بن مريم ، حين كان لا يمر بملأ من بنى اسرائيل الا أسمعوه سراً وأسمعهم خيراً ، فقال له شمعون الصفا ما رايت كاليوم كلما اسمعوكَ سراً أسمعتهم خيراً ، فقال كل امرئ ينفق مما عنده ، وليس عندكم الا الخير ، رلا فى ارعيسكم الا الرحمه ، ركل اناء بالذى فيه ينضح

(٢) وكتب الى محمـد بن عبد الملك « اعاذك الله ن سو الغضب ، وعصمكَ من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك ن القوه الى حب الانصاف ، ورجح فى قلبكَ ايثار الاناه ، فقد خفت ، أيدكَ الله ، ن ا كون عندكَ من المنسوبين الى نزق السفهاء ، ومجانبه سبل الحكما ، وبعد فقد قال عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت

رأيت امرأ أمسى ر صبح سـ اآ ... الناس الا ما جنى لسعه

وقال الآخر

ومن دعا الناس الى ذمه ... ذموه بالحق وبالباطل

وان كنت اجترت علىكَ صلحكَ الله فالجنى لالان دام ماو ث عى ستر الاهمال لدى نوب الاعمال العمه ع ن ن لك ذ وذاك

(١) ـ سى مه

قال عيينه بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله عُمَرُ كان خيرًا لى منكَ ، رهبنى فاتقانى ، واعطانى فأغنانى فان كنت لا تهب عقابى ، أبدك الله ، لخدمه فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمه تشفع فى النقمه ، و إلا تفعل ذلك لذلك فعد الى حسن العاده ، و إلا فافعل ذلك لحسن الاحدوثه ، و الا فأت ما انت اهله من العفو دون ما أنا اهله من استحقاق العقوبه ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى اذا صرت الى ب‍ هفوته ذكر ، ودنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر الا لك ، والإنعام الا منك ، هجمت عليه بالعقوبه واعلم أبدكَ الله ، ان شين عصمك على كبر صفحك عنى ، وان موت ذكرى مع انقطاع سببى منك ، كحياه ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنه علم ، وغفله كريم والسلام »

(٣) وكتب إلى أبى حاتم السجستانى و بلغه عنه انه نال منه « اما بعد فلو كففت عنا من غربك ، لكنا أهلاً لذلك منك » ، فلم يعد ابو حاتم الى ذكره بقبيح

(٤) وله فصل فى استنجاز وعد « اما بعد فقد رسخنا فى قيود مواعيدك ، وطال مقامنا فى سجون مطلك ، فأطلقنا ، ابقاك الله ، بنجحها ، وشدد عنها ، نعم منك مثمره اومريحة ، اما بعد فان شجر مواعيدكَ قد اورقت ، فليكن ثمرها سالماً من جوائح المطل ، اما بعد ، فان سحاب وعدك قد برقت ، فليكن وبلها سالماً من صواعق المطل والاعتلال »

(٥) وله فصل فى عتاب « اما بعد فان المكافاه بالاحسان فريضه ، والتفضل على ذوى الاحسان نافلة ، أما بعد فلها (؟) السكوت على لسانك ، ان كانت العافيه من شانك ، اما بعد فلا تزهد فيما رغب اليك ، فيكون لحظك معانداً ،

وللنعمة جاحداً ، اما بعد فان العقل والهوى ضِدان ، فمن العقل التوفيق ، ومن الهوى الخذلان ، والنفس طالبة فأيهما ظفرت كنت فى حزبه ، أما بعد فان الاشخاص كالأشجار ، والحركات كالاغصان ، والالفاظ كالثمار ، أما بعد فان القلوب أوعية ، والعقول معادن ، فما فى الوعاء ينفد ، اذا لم تمده المعدن ، أما بعد فكفى بالتجارب تأديباً ، وبتقلب الايام عظة ، وبأخلاق من عاشرت معرفة ، وبذكرك الموت زاجراً ، أما بعد فإن احتمال الصبر على لذع الغضب ، أهون من اطفائه بالشتم والقذع ، اما بعد فإن اهل النظر فى العواقب ، أولو الاستعداد للنوائب ، وما عظمت نعمة امرئ الا استغرقت الدنيا همته ، ومن فرغ لطلب الآخرة سعيه ، حمل الايام طاقة عمله ، والآخرة منتهى مرحله ، اما بعد فان الاهتمام بالدنيا غير زائد فى الرزق والاجل ، والاستغناء غير ناقص للمقادير ، اما بعد فانه ليس كل من علم أمسك ، وقد يستجهل الحليم حين يستحق الهجران ، أما بعد فان احسب ان تتم لك النعمة[1] فى قلوب اخوانك فاستقلّ كثيراً مما تولهم ، أما بعد فان أنظر الناس فى العاقبة من لطف حتى كف حرب عدوه بالصفح رالا تجاوز ، واستلّ حقده بالرفق والتحبب »

(٦) وكتب الى ابن الزيات « نحن ، اعزك الله ، سحرنا البيان ، وتموه بالقول ، والناس ينظرون الى الحال ، ويقضون بالعيان ، فاثر فى امرنا اثراً ينطق اذا سكتنا ، فان المدعى بغير بينة متعرض للتكذيب »

(٧) وله فى تَعْزية « اما بعد فان احق من اسعفته فى حاجته ، وأجبته الى طلبته ، من توسل اليك بالامل ، ونزع نحوك بالرجاء ، اما بعد فما اقبح الاحدوثة ، من مستمنح حَرَمته وطالب حاجة رددته ، ومن ر حمه ،

---

(١) بعد خـ

ومنبسط اليك فصبه ، ومعمل إليك بعنايه لو ب عنه ، فمشب فى دلك ولا نطع كل حَلاف[1] مهين همار مساء[2] بنم ، أما بعد فان فلاناً اسبابه متصله بنا لم يزل بما دمامه ، و بلوغ مواقعه من اياديك عندنا ، وان لنا موضع اصطنعه من كافانه ، فأر لنا فيـه ما يعرف موقعنا من حسن رأيك ، ويكون كافاه لجميع عنا بنا ، اما بعد فقد اتانا كتاب فى فلان ، وله لدينا من الذمام ما يلزمنا مكافاته ، ورعاية حقه ، ونحن من العنايه بامره ، على ما كان فى حرمته ، و يؤدى شكره »

(٨) وله فى الاعتذار اما بعد فنعم البديل من الزله الاعتذار ، و بئس العوض من التوبه الاصرار ، اما بعد فان احق ما عطفت عليه بحلمك ، من لم يتسع الى عذرك ، اما بعد فانه لا عوض من اخائك ، ولا خلف من حسن رايك ، وقد انقضت منى فى زلتى بحفائك ، فاطلق اسير شوقى الى لقائك ، أما بعد فانى بمعرفتى بلوغ حلمك ، وغاية عفوك ، صحبت الثقه بالعفو من زلتها عندك ، اما بعد فان من جحد احسانك بسوء مقابلته فعلك ، مكذب نفسه بما يبدو للناس منه ، اما بعد فقد مسنى من الالم ما لم يسعه غير مواصلتك ، مع حسدك الاعداء من هفوتك ، ولـكن ذنبك بعمره مودتك ، فامنن علينا بصلتك ، يكن بدلاً من مساءتك ، وعوضاً من هفوتك ، أما بعد فلا خير فيمن استعرفت موجدته عليك فدركَ عنده ، ولم يتسع لهنات الاحوان ، اما بعد فان اولى الناس عندى بالصفح من اسلفه الى ملـكك الناس رضاك ، من غير قدره لك عليه ، اما بعد فان كنت ذممتنى على الاساءة فلم رضيت لنفسك المكافاة اهـ

ويكرر « اما بعد» والعادة ذكرها مره فى اول الخطبه ، و اهـا « بعد

---

(١) المهين الضعيف الحقير

(٢) الهماز والهمز الذى يخلف الناس من ورائهم ويأكل لحومهم اى الذى يهمز أخاه فى قفا ومن خلفه ، والمشاء الذى يمشى بين الناس بالنميمه

دعائى لك » من أجمل مكرراته ، وكأن الجاحظ بخروجه على مالوف الكتاب فى مثل هذا التكرار يبدع أسلوباً أو أن ذلك من جملة مبدعاته فى الكتابة

(٩) وله فى التعازى اما بعد فإن الماضى فلك الباقى لك ، والباقى بعدك الماجور فيك ، و انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب اما بعد فان فى الله العزاء عن كل هالك والخلف من كل مصاب ، وأنه من لم يعز بعزاء الله يتقطع نفسه عن الدنيا حسره اما بعد فان الصبر نعمه الاجر ، والجزع يعقبه الهلع ، فتمسك بحظك من الصبر ، تنل به الذى تطلب ، وتدرك به الذى تامل ، أما بعد فقد كفى بكتاب الله واعظاً ، ولذوى الالباب زاجراً ، فعليك بالتلاوه تنج مما أعد الله اهل المعصيه

(١) ومن كلامه ونبلك الله بالتقوى ، وكفاك ما اهمك من الآخره والاولى من عاقب اهل الله على التقصير عقوبه التكبير ، وعلى الهفوه عقوبه الاصرار ، فقد تناهى فى الظلم ومن لم يعرف بين الاسافل والاعالى ، والادانى والاقاصى ، فقد قصر والله لقد كنت اكره سرف الرضا ، مخافه ان يؤدى الى سرف الهوى ، فما ظنك بسرف الغيظ ، وعليه الغضب ، بن طباع عجل [illegible] ومعه من الحرق بقدر قسطه من الشباب المره الحمرا ، راب ر ح كما ا ب حسم ، وكذلك حسك ونوعك ، الا ان الندر فى الوقت ا مرح رصده فى العلائط الحسه ا كمل ولذلك اسد حرعى ع لك ن ساء ب ا ه ط وعلمه ، فاذا اردت ان تعرف مقدار الذنب اليك من مقدار عقابك عليه ، فانظر فى عله ، فى سبب اخراجه الى عدته الذى منه بح وعسه لذى م ه درج ، والى جهه صاحبه فى التسرع والتثبت والى حلمه عند التعرض ، وفطنته عند ال ه ، وكل ذلك دب كان سامه صو صدر ن جهه ا ع ص

في المقادير ، أو من طريق الأنفة ، وعلته طباع الحمية من جهة الحموة ، أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله أنه مقصر به في حقه ، مؤخر عن رتبته ، أو كان مبلغاً عنه مكذوباً عليه ، أو كان ذلك جارياً منه غير ممتنع منه ، فاذا كانت ذنوبه من هذا الشكل ، فليس يقف عليها كريم ، ولا ينظر فيها حازم ، ولست أسميه بكثرة معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً على طباعه ، كما لا أسميه بكف العقاب حكيماً ، حتى يكون عارفاً بمقدار ما أخذ وترك ، ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له الا البغض المحض ، والنفار الغالب ، فلو لم يرض لصاحبه بعقاب دون فقر حتفه لعذرك كثير من العقلاء ، وصوّب رأيك عالم الأشراف ، والاناة أقرب من الحمد ، وأبعد من الذم ، وأنأى من خوف العجلة ، وقد قال الأول : عليك بالاناة ، فانك على ايقاع ما تتوقعه أقدر منك على رد ما قد أوقعته . وليس يصارع الغضب أيام شبابه شيء الا صرعه ، ولا ينازعه قبل انتهائه الا قهره ، وانما يحتال له قبل هيجه ، فمتى تمكن واستفحل ، وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعاً وطاعة ، فلو استعطفته بالتوراة ، وأوجرته بالانجيل ، ولددته بالزبور ، وأفرغت على رأسه القرآن افراغاً ، وأتيته بآدم شفيعاً ، لما قصر دون أقصى قوته . وان أسكن غضب العبد ، الا ذكره غضب الرب . فلا تقف ، حفظك الله ، بعد فضلك في عقابي التماساً للعفو عني ، ولا تقصر عن افراطك من طريق الرحمة بي ، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، وتعلم ان للكرم أعداء ، وتمسك امساك من لا يبرئ نفسه من الهوى ، ولا يبرئ الهوى من الخطأ ، ولا تنكر لنفسك ان تزل ، ولعقلك ان يهفو ، فقد زل آدم (ص) وقد خلقه بيده . ولست أسألك الا ريثما تسكن نفسك ، وترتد اليك ذهنك ،

وترى الحلم وما يجلب من السلامه وطيب الأحدوثه والله يعلم وكفى به عليماً لقد أردت أن أهديك نفسي في مكاتباتي ، وكنت عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الهلكى ، فرأيت من الخيانة لك ، ومن اللؤم في معاملتك ، أن أهديك نفس ميته ، وأن أريك انى قد جعلت لك أنفس ذخر والذخر معدوم وأنا أقول كما قال اخو ثقيف موده الاخ التالد وان أخلق خير من موده الأخ الطارف ، وان ظهرت مساعفه ورافت جدته سلمك الله وسلم عليك ، وكان لك ومعك

(١١) ومما كتب الى ابن الزيات من كتاب لا والله ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت سماً هو انفذ من شماتة الاعداء ، ولا اعلم باباً اجمع لخصال المكروه من الذل ، ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه ، والمبتلى ما دام يجد من يرثى له ، فهو على سبب درك ، وإن تطاولت به الايام فكم من كربة فادحه ، وضيقة مصمتة قد فتحت اقفالها ، وفككت أغلالها ، ومهما قصرت فيه فلم اقصر في المعرفه بفضلك ، وفي حسن النيه بيني و بينك ، لا مشتت الهوى ، ولا مقسم الامل على تقصير قد احتملته ، وتفريط قد اغتفرته ، وأقل ذلك ان تكون من دون الادلال وجرائم الاعمال ، ومهما كان من ذلك فان اجمع بين الاساءه والانكار ، وان كنت كما تصف من التقصير ، وكما تعرف من التفريط ، فانى من شاكرى اهل هذا الزمان ، وحسن الحال متوسط المذهب ، وانا أحمد الله على ان كانت مرتبتك من المنعمين ، فوق مرتبتي في الشاكرين وقد كانت على بك نعمه اذاقتني طعم العز ، وعودتني روح الكفايه

ومن كلماته ما قاله في كتاب الادب اعلم ان ثمر المال آلة المكارم ، وعون على الدين ، وتألف للاخوان ، وان من فقد المال قلت الرغبة اليه

والرهبه منه ، ومن لم يكن بموضع رغبه أو رهبه استهان الناس به ، فاجهد جهدك كله فى أن يكون الملوك معلقه منك برغبه أو رهبه فى دين أو دنيا

ومما قال للسدرى مره اذا كانت المراة عاقله ظريفه كامله كانت فحبه فقال السدرى وكيف ؟ قال لانها تاخذ الدراهم وتمتع بالناس والطيب ، وتختار على عينها من تريد ، والتوبه معروضه لها متى شاءت فقال له السدرى فكيف عقل العجوز ؟ قال هى أحمق الناس واقلهم عقلاً

ومن كلامه يجب للرجل ان يكون سخياً لا يبلغ التبذير ، شجاعاً لا يبلغ الهوج ، محترساً لا يبلغ الجبن ، ماضياً لا يبلغ القحه ، قوالاً لا يبلغ الهذر ، صموتاً لا يبلغ العى ، حليماً لا يبلغ الذل ، منتصراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ البلاده ، نافذاً لا يبلغ الطيش

ومن كلامه فى الطيب فاما الطيب فانى لم اشم رائحه قط احيا للنفس ، ولا أعصم للروح ، ولا انفى ولا اعبق ، ولا اطيب خمره من ريح عروس ، اذا احكمت تلك الاخلاط ، وكان عرف راسها وبدنها سليماً ، وان كانت غديه الرسول ، فانك ستجد ريحاً تعلم انه ليس فوقها الا ريح الجنه

وقال فى نفسه الاغنيا وبعد فلا يخلو صاحب الثروه ، والصامت الكثير ، الخامل الذكر ، من ان يكون ممن يرغب فى المركب الفاره ، والثوب اللين ، والجاريه الحسنة ، والدار الجيده ، والمطعم الطيب ، أو يكون ممن لا يرغب فى شئ من ذلك ، فان كان لا يرغب فى هذا النوع كله ، ولا يعمل فى ماله للدار الآخره ، ولا يعجب بالأحدوثه الحسنه ، ويكون ممن لا يعدو لذته ان يكون كثير الصامت ، فان هذا حمار ، وأفسد طبعاً من الحمار ، واجهل من الحمار ، وقد رضى ان يكون فى حاله اسوا حالاً من الوكيل

وقال ان الذى تشتمل عليه دواوين أصحاب الحمام اكثر من كتب النسب التى تضاف الى ابن الكلبى والشرقى بن القطامى وابن أبى اليقظان وابى عبيدة النحوى ، بل الى دَغفل بن حنظلة وابن لسان الحُمَّرة ، بل الى صُحار العبدى و الى ابى الطماح اللحمى ، بل الى المخار العدوى وصبح الطائى ، بل الى محور بن علان الصبى و الى سطيح الذئبى ، بل إلى ابن سَرِيَة الجُرهُمى و الى زيد بن الكيس النمرى ، و الى كل نسابة راويه وكل سمعين علامه ووصف الهذيل المازنى مثنى بن زهير وحفظه لانساب الحمام فقال والله لهو انسب من سعيد بن المسيّب وقَتاده بن دِعامه للناس ، بل هو انسب من ابى بكر الصديق رضى الله عنه

وقال فى نفسه المجمع النصرانى فى عهده ووقع بين فتى من النصارى و بين ابن فهر بن كلام ، فقال له الفتى ما ينبغى ان يكون فى الارض رجل واحد اجهل منك وكان ابن فهر بن فى نفسه اكبر الناس علماً واداً ، وكان حريصاً على الحلقه ، فقال للفتى وكيف حلت عندك هذا المحل ؛ قال لانك تعلم انا لا نجد الحائك الا مديد القامه ، وانت قصير القامه ، ولا نجده الا دقيق العرقوب حديد الحلق ، وانت دقيق الصوت ردىء الحلق ، ولا نجده الا وافر اللحيه عظيمها ، وانت خفيف اللحية صغيرها ، وانت تعلم انا لا نجد للحيه الا رجلاً زاهداً فى الرياسه وانت أشد الناس عليها كلباً اظهرهم لها طلباً وكيف لا تكون اجهل الناس ، وخصالك هذه كلها تمنع من الحلقه وانت قد سمعت فى طلبها مالك واسهرت فيه ليلك

قال وانت اربعة أشياء لم ار مثلهن وانت لا تسأل فى حمه وتأخذ مواعيد من فيه الى ان تخرجها ، وراءيت علماً ما اصدق من امرئ وابت العين ، وانت حجاماً تحجم بانسيه لى لوجهه وانت تحمى تحلون ره

فهكذا أعيوا وضعوا عن رءوسهم الى ان بلغوا سفير الفقر

وقال نسعه موجودة فى تسعه الحمه فى الصم ، والهوج فى الطوال ، والعحب فى القصار ، والملل فى الربعه ، والملاحه فى الحول ، والدكاء فى الحرس ، والحفظ فى العميان ، والثقل فى العور ، والنشاط فى العرج

ومن كلامه اجمع الناس على أربع انه ليس فى الدنيا انبل من اعمى ، ولا انعص من أعور ، ولا أخف روحاً من أحول ، ولا أقود من أحدب

خلوده ومجده

و يسأل القارئ بعد أن رأى صوره الجاحظ فى كثير من ظاهره ، ولمس مداه موضع العحب من نبوغه وافتنانه فى علمه وادبه ، وهل كان له من بعدُ حظ من الخلود ؟ و الى اى مدى يلعب بآثاره فى ديار الاسلام ؟ ولا بدَّ قبل بحث خلوده أن نعرف معنى الخلود ، ثم ننظر اذا استحق الجاحظ هذه الصفه

يقول امرسون الفيلسوف الامريكى « ان الكِتاب الصالح كالمجمع الصالح ، و انك اذا أدخلت رجلاً منحطاً فى حلقه جماعه راقين لا يرقيه لانه ليس منهم ، ولن يصبح مساوياً لهم ؛ هكذا حال كل مجمع يحمى نفسه ، واهله وا ثقون ان هذا الدخيل فيهم ، والواغل عليهم ، وان كارهم بحسبه ، فلن يشركهم فكما منهم

« يُقاس تأثير الكلام فى الجماعات بما انطوى عليه من دقه فى الفكر و ان كتاباً تنبه دهشك و يرهف حسك ، و يسمو بك بصوت فصاحته العالى ، لكان له فى افكار الناس أعظم الاثر ، ولئن بأثره بالسريع ، الا انه سيدوم باقياً وأنت اذا لم تستفد شيئاً من صفحات هذا الكتاب ، فى انه سيبقى كما بقى الذباب من ساعته الكاتب هو الذى لا يعتمد بذوق العصر فقط ، و انما على

ما على ورائده الإخلاص والجنة التي لا تعمل في نفسي عملاً عملاً قد لا تفعل فيك أيضاً »

يقول سدني « أنظر في قلبك واكتب — ومن يكتب لنفسه يكتب لجمهور سني فعليك إن اشتاب شيئاً ان ترضي هواك اولاً ، ولنعلم الكتاب الذي اهتدى إلى موضوعه بنيته وأدبيه ، لا بعقله وبنفسه ، انه ما استفاد ولا أفاد ثم إن الكتاب لا يحكم عليه بما يقدر له من الرواج ، ولو اجمع نصف الناس على استحسانه ، فهو شيء اذا خلا من حرارة ، والحرارة وحدها سبب الحياة ونحن اذا اسمعنا حتى عرفنا ، لا نسامي الى اكثر مما حصلناه من قدر

« لا دخل للحظ في الشهرة الادبية ، ولا يتوقف صدور الحكم النهائي على كتاب بما يقوله فيه اصحاب الاهواء من القراء، المكثرين من الضجة حوله اول نشره ، ويحكم على مبلغه من الاجادة محكمة ، لك ان تقول انها مؤلفة من ملائكة ، او من جمهرة لا تحابك رشوة ، ولا تخافك ا اسك وسلطانك ، وهي تقضي وتمنح جلاء[1] المجد وعلائقه لمن هو خليق بهما وامثال هذه الاسفار فقط يحق لها ان تحيا اما المذهبة المطلية المعمولة بالزوق المرسه بالنقوش ، و ان ورعها صانعها على الورافين باسرهم ، فانها تبيد ، ولا تصيب من الرواج اكثر مما لها الحق فيه

« ليس في الارض ارلد من ابي عشر شخصاً ، في آن واحد ، يقرؤون كتاب افلاطون ويفهمونه و يعذر عليك ان تجمع من مجموع قرائه من ا عدد ما يصح الاعتماد عليه لاعادة طبع كتابه ومع هذا نرى مصنفه يصل الى كل

(١) الجا ما خاص به من الألقاب الحسنة وعكس اجا بها على س في عهد الحدث ، والعلامة والجمع العلائق الاعب

حمل لىسمع نه هؤلاء الاسحاص الملاىل ، كأن الله أرسله الىهم ىه اسره »

ىقول ىسلى « ما من كىاب سمط و ىاد الا عا حوىه دَفّىاه — ولا ىحدد ىماء الكىاب عا ىال من حب او ىعص ، ولا ىحـلد إلا عا فىه من فىمه دابىه ، و عا ىحمل من حاحاب العمل على الدهر

« لا ىعرف الرحل العطىم انه على سىء من العطمه ، واا طمه لا ىحررها الا ادا اىى علىه فرن أو فرىان ، لىىكسف للملا حمىمىه هدا وهو ىعمل لان ن واحىه ان ىعمل ، والدواعى والبواعث حا كمه علىه ، و ىومئد ىراه ، طم فى اا ون ، وكل ما اىعث منه ىعدو رمزاً عاماً ، و مىالاً ىعىدى ىه ، حى ما كان من حركه إصبعه الصغرى ، وما ىىاوله من طعام و ادام ، فىمسى ىدلك صاحب السلطان الأكبر على العقول ، والدهىا ىُعحب ىطر ىمىه

« قالوا ان الصوره لا ىكدب ، والمرء ادا طق ىالحق ، ىفكر حق ، كا ب ء ىه اصفى من السما ، ومى حالف دلك وأورد الزور والبهىان ، احىلحت ء ىه ور عا أصىب ىالحَوَل

« وأنى لك ىحام لم ىسمع ىىراءه وكىف ان ىُسمع المحـكمه لىقصى له ىالبرا ه ؟ هدا القاىون ىسرى على افكارنا ، فىحكم على كل اىر ىالمفكر الدى عرض للمؤلف ، ىوم اىسا ما اىسا من ىىاب اوكاره وهىهات ان ىقول قولاً صحىحاً ابداً فى الحكم على كل سىء ، ولو اسىطهرىاه ربدارسىاه ، ولى ، طال المر الى مكانه لا ىسىحقها ، و ىاطل ان ىحاول معرفه ما ىقول الىاس فىىا ، و ىاطل كل الىاطل ىحوفىا من أن لا ىُعرف ومى أىقن المرء انه ىحسن سىئاً ، وانه ىىد فىه عبره فى ىاب الاحسان ، فلىس ان حمىله معىر ف ىه ، و احسانه مقدور قدره ، فى كل زمان ومكان العالم ملى ىالاحكام ، و الى اى مجلس احىلف المرء ، وفى

كل عمل حاوله ، لا يُكال الا بقدره ، ولا يُعلَم الا بقيمته

« قد تقوم للدعوى فائدة ، وهى بمعزل عن الوفاء بعمل عظيم ، وما كانت الدعوى يوماً خليقة باعطاء امرئ للناس عظمة حقيقية . فبالدعوى لم يكسب الالباده ، وبالدعوى لم يُكسر كسرى ، وبالدعوى لم يسحب الناس لرسالة المسيح ، وبالدعوى لم يُبلغ الرقى الفضائل بقدر آثارها ، وعلى قدر الصلاح يكون الحرمة ، والناس سواء فى احترام الفضيلة . واساتذة الاساتذة هم اصحاب طبقة الكرماء المخلصين ، وارباب الافكار العالية ، يعرضون عليها ما يريدون به ، ويحاولون الدعوة اليه . وما ضاعت كلمة طيبة قط ، وما سقط مجد ولا كرم ، من دون ان يعطيهما قلب ما كان له ان يسوء بهما ، ويبارك عليهما ويعد بهما وقيمة المرء ما يحسن ، وما يحسبه معقوداً على سيماه ويتم عليه ظاهره ، وما رُزق من سعادة ، ولن يعقده التوارى ، كما لا ينفعه التبجح والتمدح [1] »

هل انطبقت هذه الصفحة فى شروط الخلود على الجاحظ ؟ وهل له بعد هذا ان يعد فى الخالدين على ما وصف ؟ نعم انطبقت عليه لاشتهاره بو بذا للا صار به عه ، وكَمُلت له العظمة قبل ان يأتى عليه قرن او قرنان . وهذا ما عرف فى عصر الناس فيه طابع ولا جرائد ولا مجلات ، ولا قطارات ولا بواخر ولا طيارات ولا ... ولا ... ولا ...

حرص الجاحظ ... لا ... وقط فاستفاض صيته وطار صوته الى ابعد مدى لانه فاه احسن ما يجب لامه ، ورحب عليه بعد باته فى دهره ، ويدا لقومه ... هو فى ... له ، سرت الفصيحة والذائعة بعرفه على ... ان ... يحمل

(١) ...

علماً كثيراً ذلك لانه أرضى نفسه بما كسب ، فارضى أمة واحد بمجامع فابها ، والسلطان يومئذ سلطان العلم والادب ، لا سلطان البربرة والدعوى

نصب كتب الجاحظ حاجات العقل على وجه الدهر ، لانها ابنة العقل الناضج ، وربيبة الروية والتفكير الصحيح ، قصد بها التعليم والارشاد ، لا الفساد والإفساد ، وقدر له بها من الاعجاب ، ما لم يكتب لملىء ولا لدعى من العلماء مثله ، فى الملتين مئات ، وفى الذميين عشرات ، كانت لهم الحظوة عند العامة والخاصة ، بجمعهم رعاية الامراء والخلفاء ، فتقدمهم الجاحظ فى السمو ، وهو الزاهد حق الزهد فيما تواطأ الناس على إعظامه من المظاهر الخلابة كان ، والحق يقال ، انساناً كاملاً اخذ من المادة بقدر ما يحمى له نفسه ، وما اسفَ الى ما سفَّ له اكثر طغمة من العلماء ، ولو كان للدنيا هوى كبير من نفسه لمع فى قصور الخلفاء بكل ما يطمع فيه ، ولكن هدوءه كان أسمى من كل هذا ، كان صاحب فكر ، همهُ نشره لنفع العالمين ، فى دور كان حملة الرأى والرواية من عصرية بين عالم دين ، نُضِم ادبه عن علوم الدنيا ، أو عالم ماد لا يحسن شيئاً كثيراً من علم الدين ، يجمع الجاحظ بين الطلبين ، حتى كثر المعجبون به من كل صنف ، وما استطاع حساد فضله ان يطمسوا نوره ، ولا ان يُعموا على الناس امره ، لما ادركَ المنصفون انه على صعاب قلَّ ان يدانيه فيها احد ، وعلى ما كان عليه أرباب المذاهب فى اشد أعصار حماستهم ، وتصلبهم فى آرائهم ، جادلهم فاحسن جدالهم بادب لا غرور فيه ، وبعض ما ساءت له الإحادة فى ضروب من القول ، وما كان تصيره سخف السخفاء ممن يعذب عليهم مداناته ، فوضع صفحة للحق ، وحاورهم قائماً بالواجب عليه نحو دعوته وملته ، فتم له ما اراد لما بعد قوله الى اعماق القلوب والعقول ، بما خص به من نَفَس طويل ، وابداع جزيل ، ثم بعد الجاحظ

عما كتب الى القلوب والعقول ، لانه لم يكتب كأفلاطون ألغازاً ومعميات يتعذر حلها ، فبين كلام الحكيم اليونانى — على ما قال أميرسون — مقصور الفهم على ابنى عشر سنين بحثاً فى كل جيل ، وكتب الحكيم العربى السهل الممتنع الذى يفهمه كل من يقرأه ، فاستوجب كل ذلك فى خلوده

الجاحظ موهوب ، رزق القبول من القلوب ، وشاع ما كتب فى كل صقع وكل قرن ، وكلما كرر كلامه حلا ، وهل اعظم فى باب الخلود من بنات افكار تتناول جيلاً عن سلف أحد عشر قرناً ، ثم لا ترى الجميع الا معجبين مستفيدين ، عما اثر عن عَلَم الاعلام وافضل المخلدين

وانا اذا استقرينا ما قاله اولنا الجاحظ وخصماؤه فيه ، لا يتعذر علينا ان نضعه فى الدرجة التى بلغها فقيل لابى العينا الراوية الاخبارى ليت شعرى اى شئ كان الجاحظ يحسن ؟ فقال ليت شعرى اى شئ كان الجاحظ لا يحسن ؟ ويقول المسعودى « لا نعلم أحدا من الرواة واهل العلم اكثر كتباً من الجاحظ ، وقد كان ابو الحسن المدائنى كثير الكتب ، الا ان ابا الحسن المدائنى ، كان يؤدى ما سمع ، وكتب الجاحظ تجلو صدأ الاذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لانه نظمها احسن نظم ، ورصفها احسن رصف ، وكساها من كلامه اجزل لفظ ، وكان اذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع ، خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بالغة ، الى نادرة ظريفة ، ولا نعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة افصح منه »

وقال ثابت بن قرة الحرانى وهو من المعاصرين للجاحظ ومن اكبر فلاسفة العباسيين واكثرهم اجادة فى بالمعانيهم ما احسد هذه الامة الا رتبة الاعلى لانه انفس اولهم عمر بن الخطاب ، والثانى الحسن البصرى ، والثالث الجاحظ وقل

عنه « انه خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومِدره[1] المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سحبان وائل ، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدال ، وإن جد خرج من مَسْك[2] عامر بن عبد قَيس ، وإن هزل زاد على مَزْيَد ، حبيب القلوب ، ومَزاح الارواح ، وشيخ الادب ، ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، ما نازعه منازع الا رشاه آنفاً ، ولا تعرض له منقوص الا قدم له التواضع استبقاء ، الخلفاء تعرفه ، والامراء تصافيه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الراى والادب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ، طال عمره ، وفشت حكمته ، وظهرت خلته ، ووطئ الرجال[3] عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب اليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب »

هذه ثلاث شهادات فى الجاحظ ، الاولى لرجل عاصره وعرفه عن أمم ، والثانية لعالم جاء بعده وشهد فيه هذه الشهادة ، شهادة ستعى فى معنى لى ، والثالثة لصابى النحلة وشهادته شهادة برى من الغرض ، وإذا حدث شك بأن هذه الشهادات فلنلق نورد لك غيرها ، الاولى للزَّرْنانى من ائمة الادب جاء فيها ان الجاحظ كان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا ، وان له كتباً كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين ، وفى حكاية مذهب المخالفين ، والآداب والاخلاق ،

---

(١) المدره كمنبر السيد الشريف والمقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال

(٢) المسك الجلد

(٣) يقال فلان موطأ العقب اى له سلطان يتبع ويوطأ عقبه والخلة الخصلة ، والخلة ايضا الطريق النافذ بين رملين وهو اولى هنا

وفى صروب من الحد والهرل ، وقد تداولها الناس وقرأوها ، وعرفوا فضلها قال و اذا تدبر العاقل المميز امر كتبه علم انه ليس فى تلقيح العقول ، وشحذ الاذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، اتصال خلاف الاسلام ، ومذاهب الاعتزال الى القلوب كتب تشبهها والجاحظ عظيم القدر فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الامور » والشهادة الثانية لابى حيان التوحيدى ، وقد الف فيه كتاباً سماه « تقريظ الجاحظ » ، وقوله فيه اتفق اهل صناعة الكلام ان متكلمي العالم ثلاثة الجاحظ ، وعلى بن عبيدة[1] وابو زيد البلخى ، فمنهم من يزيد لفظه على معناه وهو الجاحظ ، ومنهم من يزيد معناه على لفظه ، وهو على بن عبيدة ، ومنهم من يوافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد ، قال قلت لابى محمد الاندلسى ، كان من عدد اصحاب السيرافى وقد اخذنا اصحابنا فى مجلس ابى سعيد السيرافى فى بلاغة الجاحظ ، وابى حنيفة صاحب النبات ، رفع الرضى بحكمك ، فقال فقال انا أحقر نفسى عن الحكم فيها او عليهما ، فقيل لا بد من قول ، قال ابو حنيفة اكثر نداوة ، وابو عثمان اكثر حلاوة ، ومعانى ابى عثمان لائطة[2] بالنفس ، سهلة على السمع ، ولفظ ابى حنيفة اعذب واغرب ، وادخل فى اساليب العرب قال ابو حيان والذى اقوله [illegible]

[illegible] على [illegible] وعلمهم [illegible]

مدى الدنيا [illegible] الله [illegible] الآخرة [illegible] كل احد [illegible]

[illegible] هذا النسيج الذى [illegible] هذه الرسالة [illegible] هذه الكلمة

(١) على بن عبيدة [illegible] متكلم صاحب تصانيف [illegible] من الناس [illegible] على [illegible]

(٢) [illegible]

أعنى ابا عثمان عمرو بن بحر والثانى ابو حنيفة الدينورى والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخى

والشهادة الثالثة شهادة امير المؤمنين المأمون ، قالوا لما نظر المأمون فى كتاب الجاحظ فى العباسية ، وكان اليزيدى ادخله عليه ، دعا بالجاحظ وقال يا عمرو قد كان من يرتضى عقله ، و يصدق خبره ، الى التى صنفه هذا الكتاب ، فكتب ارى الصفة عياناً ، فلما حضر العيان اربى على الصفة ، ولما فُلى اربى العلى على العيان ، كأنما رأء العيان على الصفة وهو كتاب يغنى عن حضور الصاحب ، و يحل عن الحاجة الى المحتج له ، جامع لاستقصا المعانى واستيفا الحقوق ، بلفظ جزل ، ومخرج سهل ، سوقى ملوكى ، خاصى عامى قال الجاحظ فوالله لما افدته من نعلم صنفه هذا الكتاب آثر عندى من الكتاب

وعلى الجملة فالشهادات كثيرة على نبوغ الجاحظ وانه كان « نسيج وحده فى جميع العلوم » قال الصفدى من وقف على كتاب الحيوان وغالب تصانيفه ، ورأى فيها الاستطرادات التى استطردها والانتقالات التى ينتقل اليها ، والجهات التى يعرض بها فى عصون كلامه بادنى ملابسه ، علم ما يلزم الادب و ما به من علمه من مشاركة المعارف

ولما ذكر الذهبى فى النبلا نحو يد الجاحظ فى كتاب السواب ترحم عليه ، وقال وكذلك فلنكن المسلم ، مع انه من خصومه فى المذهب وقال ابن سنان الخفاجى « وكانه فى كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره »

حدث ابو القاسم السيرافى قال حضرنا مجلس الاستاذ الرئيس ابى الفضل ابن العميد فقصر[1] رجل بالجاحظ وازرى عليه ، وحلُم الاستاذ عنه فلما خرج

(١) قصر به ازرى به وحقر

فلت له سكت ابها الاساد عن هـذا الحاهل فى قوله ، ع عادىك بالرد على أمثاله ، فعال لم احد فى معاىلىه أىلع من ىركه على حهله ، ولو واقعىه و ىدىب له ، لىطر فى كىىه وصار اساناً ، ىا اىا القاسم « كىب الحاحط ىعلم العقل أولاً والادب ىاىاً » وكان اىن العمىد ىقول ىلاىه عـلوم الىاس كلهم عىال فىها على ىلاىه أىفس اما الفقه فعلى أبى حىىفه لاىه دوّن وحلد ما حعل من ىىكلم فىه ىعده مشيراً اليه ومحىراً عىه ، واما الكلام فعلى ابى الهدىل ، واما البلاعه والفصاحه واللسن ىالعارضه فعلى ابى عىمان الحاحط اهـ ,هذا فى ىطرىا داعىه حلوده

أبو حيان التوحيدي

عصره

القرن الذى اولد التوحيدى وسمه وا كتهل وساب هو ا حمر العباسى الناب ، وسدب فيه عصبية بنى العباس ، فلم سو لهم كلمه مسموعه ، ولا راى جمع(1) ، الا فوه ناوده ، الا كان برنحى معه الـ ماء تعلغلب الاعاجم فى جسم الدوله ، وسلطب على الا ور ، وما دخل القرن الرابع حتى را ب الامر بلمدى ، ورزله الخلافه تحول وتتراجع ، وقد سمل الضعف مطاوصاعها ، وغاب سمس السلطان فى ذلك الحسم العظيم ، وسار عقد البلاد الاسلاميه راسعصب من اطرافها ، والاهواء مسسمه ، والنفوس سعاع(2)

لم يكد ينسلخ(3) الربع الاول من هذا القرن حتى استولى ابن رائق على البصره وواسط ، واستأثر البريدى بالاهواز واعمالها ، وذهب ابناء بويه الديلم بفارس والرى واصفهان وطبرستان وجرجان وكرمان والجبل وسدت خراسان وما وراء النهر بيد السامانيه ، والموصل وديار بكر و عمر وره فى ايدى بنى حمدان ، وا معاب مصر والسام الى الاخسيديه ، والحرمين والشامه الى القرمطى ، والمغرب وافريقيه الى القائم العلوى ، والاندلس للناصر عبد الرحمن الاموى

---

(1) الجمع ضد المتفرق (2) السعاع كسحاب التفرق وال اى المتفرق

(3) سلخ (كمنع ومنع) الشهر مضى كانسلخ ، وفلان سهر امضاه وصار فى آخره

ولم يبق للخليفة العباسي غير بغداد وأعمالها ، والحكم فيها لابن رائق ، وليس للخليفة وزير ، وإنما كان له كاتب يدبر أقطاعاته وخراجاته القليلة وكلما استبد كله ملك أو أمير سطا على من يجاوره وسعى لملكه صاحبه ، فابن رائق بعد البصرة استولى على دمشق ، والبريدي بعد خوزستان استولى على بغداد ، وبنو بويه بعد بلاد المشرق استولوا على بغداد (٣٦٧) وخُطب لهم فيها مع الخليفة ، وهكذا كانت مملكته في المشرق نهب أيدي الأتراك والديلم — والأتراك جيل من التتر معروف ، والديلم سكان الجبال في فارس — وكلهم كانوا شاركوا العرب في سلطانهم بل حاولوا نزع تراث الأمة من أيديهم

ثم تولى الخلافة بعدهم فعمل المقتدر ، وبويع للقاهر ثم خلع ، وخلفه الراضي ، واستخلف [illegible] ثم بويع المستكفي [illegible] على أمره [illegible] كذلك بنو حمدان بعد الإخشيد من [illegible] الفاطميين استولى على مصر ، فخطب للفاطميين في مكة والمدينة بدل الخليفة العباسي [illegible] [illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

الى السام ، بعد أن عشوا بمقدسات الامه فى الحجاز ، وكذلك كان سان عيرهم من الخوارج والنزاع إلى القسه اما الروم فكانوا يعادون السام القال و براوحونها ، ودوله بنى حمدان كفت الا الاد عادبهم ، وعراهم منصور بن نوح السامانى عام النعير[1] فى الوف من اهل حراسان وما ورا النهر وفى حلال هذا القرن ا مرضت درل ، ولا سيما السامانيه والاخسيديه ، وقام محمود بن سبكتكين رحل ذاك القرن فاستولى على حراسان ، وامتدت فتوحه حتى فتح حزاً مهماً من بلاد الهند والسرق

وفى هذه المملكه ، بل الممالك التى كانت سحط فى اقدارها ، وتحتاط أمرها بايدى احبارها واسرارها ، نسات زمره صالحه من العلما والادبا ، بموه التسلسل المسعه من عمل القرن الثالث وقد تمت السياسه فى ا ه ، وسمى فوتها المفكره سائره سيرها ، وعلونا آخذه بالنظام الذى كان لها ، كما قيل « بهى القمص رو ه ريح المندل[2] » ، ولقد ساعد على هذه النهضه ص اصحاب السلطان من هولا الملوك ، من ارادوا ان تكون فى حملهم الاجلاء الفضلا ، نسا ر ن بهم دون حيرانهم ، و ير ون بهم لمكهم ، او سنحد لنفسوهم على قيام امرهم ، او يحاورون طمعه من الادبا والسرا ، ماد و يمدحونهم ، و يخلدون مآثرهم ، و يعظمون مفاخرهم ، فيعتبرون بهم عند البور والعرب ، والنقص والحسد فكانت فى هذه السبل تجارى بعداد كل من اصفهان وسيراز ونيسابور وهمدان والرى وسمرقند و بلخ وحلب والقاهره وقرطبه

(١) النعير والنفر القوم ينفرون معك وسافرون فى القتال ، وسافروا ذهبوا

(٢) المندل العود أو احود كالمندلى ، ومندل بلد فى الهند ، ولعل هذا العود نسب إليها

وسوعت المذاهب التى علت على البلاد ، فكان اهل ا حمره فدريه وسبعه وحنابله ، وبغداد ؤوى جميع النحل وفيها عليه محمون ماويه و سبهه وهم اصناف كثيره ، وبهرد اقليم الجبال اكثر من نصاراها ، ومحو بها كثيره ، والمجوس اصحاب زرادسب ، المعظمون للنار وسائر الأنوار ، بعث منهم بقيه مهمه الى هذا القرن فى العراق والاهواز وفارس واصبهان وخراسان وغيرها ن مملكه الفرس قبل الاسلام ولكل بلد من بلاد الا حم طرز يخالف الطرز الآخر ، فمنها ما يجد فيه الغلبه للحنفيه ، ومنها ما كانت حنابلته كثيره ، ومنها ما كانت سبعه غالبه ، ومنها ما يغلب فيه اصحاب الحديث ، وا كثر اقليم خوزستان معتزله ، وفى الاقاليم الاخرى سبعه وحنابله وسوافع والعين كثيراً ما يقع بين الحنابله والسافعيه فى بغداد او بين السنه والسبعه فى دار السلام ، وبعض اصقاع فارس والجبال وما اليها ، فيقى بعضهم بعضاً

ولهذا اعتصم بعض العلماء والحكماء باهداب التقيه [1] حسبه العامه وجهله السلاطين ، فكان ما كان من تأليف المجالس السريه من الفلاسفه وارباب العقل الكبيره ، وكان الموحدى احد اساطين تلك الحلقه حمسه ن الر ن ، الحركه الدائمه فى الافاده والاستفاده ، والعقل الكبير وا ... الحار ، ما ب حبه مراتب سكان ... فى ... درسه

(١) التقيه مشتقه من اتقا اى حذر وهى ... وكان المسلمون لاول عهدهم وهم ضعاف يقون من غيرهم بمداراته اذا كان قويا ، من غير ان يستحلوا دما حراما او مالا حراما او غير ذلك من المحرمات او يظهروا الكفر على غير ... للمسلمين واختلف الفرق الاسلاميه فى التقيه ومنها ... يحرب فيها كثيرا ، وبعضهم حدد لها شروطا ، ولا سيما عندما ... على نفسه فيدفع ضرر عنها ... ويذهبه ولباسه ونقص سرع واعقل ... يستعمل فى ... لا يستعمل فى ...

نشأته وأعماله

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي (بفتح التاء وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون اليا المثناه من تحتها) نسبة فيما قيل للتوحيد، وهو نوع من التمر كان يبيعه أبوه بالعراق، وعليه حمل بعض شراح ديوان المتنبي قوله

يترشفن من فمي رشفات هنّ فيه أحلى من التوحيد

وقيل ان التوحيدي نسبة للمعتزلة، لانهم يسمون انفسهم اهل العدل والتوحيد، وهو الارجح ذكروا في اصله انه شيرازي وقيل نيسابوري وقيل واسطي، وهو عربي، وما كان يعرف الفارسية، ولو ولد في فارس لكان يتكلم بها، وكنيته ابو حيان، ولد علي الغالب في اواخر العقد الثاني من القرن الرابع أو في اوائل العقد الثالث، ونشا في بغداد وعمر لانه مات على راس الخمسمائة او بعدها بقليل، وقيل مات بشيراز سنة ٤١٤

رحل التوحيدي بغداد صغيراً على ما يظهر، وتخرج في النحو بابي سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرمّاني، وبالفقه الشافعي بابي حامد المَرْوُرُّوذي وابي بكر الشاشي، وحضر في اوقات مختلفة بين سنتي ٣٦١ — ٣٩١ ﻫ دروس يحيى بن عَدي وابي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة مثل ابي الحسن العامري، وقد اجتمع به أبو حيان وقال انه تكلم في الفقه بالفاظ الفلاسفة، ومثل ابي المهندس الرياضي الفيلسوف، فجا متفنناً في العلوم من النحو واللغة والشعر والادب والفقه والكلام على راي المعتزلة، واخذته الفلسفة عن غيره علوّ الافذاذ في عصره فعد حكيماً عظيماً، فصفا ذهنه، وزاد نباهة، واصبح يحكّم عقله فيما يرى ويسمع، لا ياخذ الاشيا على ظاهرها، بل يواصل الدرس والنظر، غير مسخّر ذهنه، لا مذهب لراي جماعة

وصفه ياقوت بانه كان جاحظياً ، سلك في تصانيفه مسلك الجاحظ ، ويشتهي ان ينتظم في سلكه ، فهو شيخ في الصوفية ، وفيلسوف الادباء ، واديب الفلاسفة ، ومحقق اهل الكلام ، ومتكلم المحققين ، وامام البلغاء ، وفرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنةً ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن ، حُفَظَة ، واسع الرواية والدراية . قال ولم ار احداً من اهل العلم ذكره في كتاب ، ولا ادمجه في ضمن خطاب ، وهذا من العجائب . وقال وانه صوفي السمت والهيئة ، وانه كان فقيراً صابراً ، وعده السبكي في فقهاء الشافعية وقال انه من المؤرخين وروى الحديث [illegible] ، وآخر ما أُخذ عنه سنة اربعمائة [illegible] ، وقال الرازي في تهذيب الاسماء انه من اصحابه المصنفين ، وان من غرائبه انه قال في بعض رسائله لا ربا في الزعفران ووافقه على قوله القاضي ابو حامد المروروذي .

لابي حيان تصانيف كثيرة منها كتاب الصديق والصداقة وكتاب المقابسات والمناسبة ، وكتاب الاشارات الالهية والرد على ابن جني في شعر المتنبي ، وكتاب الامتاع والمؤانسة وكتاب الزلفة وكتاب رياض العارفين وكتاب تقريظ الجاحظ ، وكتاب مثالب الوزيرين(1) ، وكتاب الحج العقلي اذا

(1) [illegible]

صاق الفصاء عن الحج الشرعى ، ورسالة فى صلات الفقها فى المناظره الرسالة البغداديه ، الرسالة فى اخبار الصوفيه ، الرسالة الصوفيه ايضاً ، الرسالة فى الحنين الى الاوطان ، كتاب المحاضرات والمناظرات ، كتاب البصائر والذخائر فى عشره مجلدات كل مجلد له فاتحه وخاتمه وقد ساق الصفدى فى الوافى بالوفيات ثبتاً طويلا فى مصنفاته ، ومنها كثير من كتب فيه ح البلدان يستدل بها على بضاعه من التاريخ أيضاً وادب فى اكثر من اربع صفحات كلها اسما كتبه وكتب ابى حيان اسئله واجوبه وزيارات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات ، بهرج بهرج بعربط ، ونقد ولمز ، ووعظ وارشاد ، وكل صفحه منها تدل على علو كعبه فى العلوم ، وبلوغه درجه عاليه فى الفهم ، اترامه منازل اعاظم المتسمين المرلفين ، صرّر فيها العلم والادب فى ابانه احسن صوره و كرب النفوس لمسريه راسكره كثيرون حسداً ولوماً ، ربما مثله بالذى يكون يكره ذلك لانه قال الحق ولم يزل قائله من الممقو بين كما قال الما رى

كان التوحيدى على ما ظهر من كلامه ، من اهل الباطن اى الصوفيه ومن اهل الظاهر اى الدنس الحكما ، جمع بين مذهب الصوفيه امثال المحاسبى والتسترى والجنيد والسرى السقطى وابراهيم بن ادهم وغيرهم من اساتذ الصوفيه ، وبين مذهب السجستانى والرَّيحانى والمهرجانى والصيمرى والمقدسى والمجمى وابن زرعه وابن سوار وابن رفاعه فى الحكمه وقد يهذب له كتبه اذ متصوف ، ويهذب له بانه فيلسوف ، رانه جمع بين العلوم الماديه والعلوم الماديه ووفى كل علم قسطه من النظر ولست له طريقه خاصه فى التصوف ، ولا مذهب معروف فى الفلسفه ، بل انه أحاط بجميع الطرق ، وخنى عليها ، وطابت نفسه بسيره أهل بعيها والاخذ عنهم وقد تجلت شخصيته العلميه بما بعله من

المباحثات والمناقشات المدرية بعامل الجرأة على كسر العمود التي قدت أهل كل مذهب من مذاهب العلم الدينى او الفلسفى ، و بدا كل ذلك فى طهر عرب باسلوب انسائه وما عمله المورخون او تعافلهم عن الترجمة للتوحيدى ، مع هذه البسطة فى العلم الواسع ، والبيان الرائع ، الا بسبب اخلاقه على ما طهر ، فعطوه بذلك حقه ، لكن الفضل لا يستر بحجاب ، والعقل لا يخفى على ذوى الالباب

وظهر ان ابا حيان كان مقتراً عليه فى الرزق ، وانه ربما كان يعيش بالاجرة او النسخ ، فزاد مده طلبه — وكانت الوراقة فى القديم خير معوان لاخراج العلماء والادباء — ولم ينل التوحيدى امراً من امور الدولة و يستحيل على من كان فى مثل علمه استغراقه فى دفاتره ان يتقلد الاعمال ، فاذا لم يكن له ادرارات من السلطان او الخليفة ليس له ما يرجع به الا الاملاق وهكذا كان شأن من عصريه مثل ابى بكر القومسى الفيلسوف الذى وصفه ابو حيان بانه كان بحراً عجاجاً ، وسراجاً وهاجاً ، كان فرس ابى حيان التوحيدى فى الصبر والفاقة ومقاساة الشدة ، ومن الاضافة عزلة عظيمة ، وهو الذى قال للتوحيدى ذات يوم ما طعمت ان الدنيا و كدها تبلغ بانسان ما بلغ بى ان قصدت دجلة لاغتسل منها بسبب ما ها وان خرجت الى الصحراء لاتيمم بالصعيد عاد صلداً املس

التوحيدى لم يوظف له صنعة ولا تجدى عليه رواتب ومن ان كان يزور لما رامى الى بغداد بنا مكرم ابن العميد والصاحب بن عباد وهما وزيرا آل بويه فى الشرق كانا يفضلان على اعلام العلم فى مدينة دار السلام و بر اسمه ـ امهما الحسن بعد الآخر ، ووصلت عطاياهما الى سيحى التوحيدى أبى سليمان المنطقى وابى سعيد السيرافى — سمت نفس ابى حيان الى ان يقصد ذينك

الور رن وانقطع اليهما ، وقدم بين يدي نجواه مدحهما اولا ، الا انه لم ينل منهما رغبته ، وانقلب بعد مقام ثلاث سنين في دار الصاحب لم ينله منه درهم ، ولا اعطاه راحله ولا زاداً أحمق في قصر الصاحبين مع انهما كانا ع الورير المهلبي من اكبر حماه الادب ، كما كان سيف الدوله بن حمدان في حلب ، وربما كان التوحيدي اسطال عليهما ، وفيهما عزه السلطان وأبهه الفرس ، فازدرياه وشق عليه الامر ، وهجاهما في كتاب اسماه « مثالب الوزيرين » اورد فيه حكايات في ثلبهما ، ومنها ما عزاه الى بعض من روى عنهم ودكروها به معهما ، قال انه فارق باب الصاحب سنه ٣٧ وقد نال منه هذا الحرمان الذي وجده به ، واحفظه عليه ، وجعله من جميع غاشيته فرداً ومن جمله ما غيره من الصاحب ان هذا قدم اليه رساله في ثلاثين مجلد على ان ينسخها له فقال نسخ مثله يأتي على العمر والبصر ، والوراقه كاسبه حرفه فاخذ الصاحب في نفسه عليه

وقد عرفنا شيئاً من اخلاق التوحيدي في هذا الكتاب ، ومما اثار ما قوله به ثائر الغضب للوزيرين واحباء ما كثار في الامصار ، فاعرض الناس عنه ورفعوا فيه ، واسقطوه من دواوينهم وتجنبوا ان يصب الناس لهيب غضب المهجورين ، ولا يعاطون لحق الهاجين ، وقلما يحملون بالسباب الذي يأتي به لا الى الهجا احياناً وقيل ان الصاحب بن عباد اتهم التوحيدي بالزندقه وهم بقتله ، وطلبه الوزير المهلبي لقتله ففر الى دنيار بكر ، وفي روايه انه مات في الاستتار ولكن التوحيدي اذا فاته اتصال الوزيرين الصاحبين ، فقد اتى اكراماً من الوزير صمصام الدوله بن سعدان وعبد الله بن عارض الشيرازي ، ولابن سعدان الف كتاب الصديق والصداقه ، وكتاب الامتاع والمؤانسه ، وللدلجي نسرار

الف كتاب المحاصرات ولم يعلم السبب الذى عاق الوحيدى عن اهدا كتبه كلها الى بعض عظ عصره ، وكانت طريقة اهـدا الدواوين مصنفاتهم لا بر او عظيم من السائع المعروف ، كثير من الدواوين كان ن اهم وارد عنهم المصنف باسما عظ عصرهم ، والاريراق بعطاياهم وهداياهم

وقد العاقه على الوحيدى ان يكشف عن الامرا وكتابه الى ابن العميد يخرج من هذا الا برل ، ولكن الامر عاب لانه مدور فى اطيبه كما قال عن نفسه وقال انه يصفح الناس ويخدم احد رجاس وحل ان نطق نطق عن عظ ودمه[1] وان سكت سكت عن صعن واحده ، ورحل ان بدل كذر امسانه بدنه ان منع حسن باقباله محله امد دعا ، وقد زويت عنه بالدمع لما احتوى عند بعض ن قصدهم وبان له مه الدهر به ، وضاع سعيه وخيبه امله ، فى كل ما ارتجاه لم ار سم ار حادثه او نائبه دعا ما دعا به بعض السلف فقال « اللهم صن حر هما بالتسار ولا تبذله بالاقتار ، فنسترزق اهل رزقك ونسال شرار خلقك ونبتلى بحمد من أعطى ، وذم من منع ، وانت من دون هم ولى الاعطا ، وبيدك خزائن الارض والسما »

واما حقها الباحثان فلها على ما ندر منه فى حق عظ عن عظ حسابه وحسن سلمه ... فى ... له ... س فى عص ه ... اسد د
وبه ، ملا لدهب مع ... من ... عاه ... لدوه ... وه ، فى حك
عاه عند حدرد افواه ، وقد سهد على رحاله ... عن لاحد الذى
وقف به على ان عظ من ذكره ومنهم صحب تاريخ هد و ... حم
الادبا ... انه كان ... اى ... سعد ... على ... من دسه ...

---

(١) ...

عقيدته ودعوى ابن الجوزي أن زنادقة الاسلام ثلاثة ابن الراوندي وأبو حيان وأبو العلاء المعري ، وانه كان أشدهم ، صرّحا وهو مجمجم ، من الكلام الذي يلوى على عواهنه ، اخذه على ما يظهر بدون رويه ، وتابعه عليه بعض الناقلين من دون تمحيص ، وكذلك ما قيل من ان الصاحب بن عباد وقف على قدح التوحيدي في الشريعة وقوله في التعطيل وما كان يجمعه من ذلك ، فطالبه ليقتله ففرّ ، كلام فيه نظر ايضاً[1] ، على ان كثيرين من المتصوفة سطحوا اكثر من سطحات ابن الراوندي والتوحيدي والمعري ، فلم يتهموا بشيء ولا قدح الناس في دينهم ، وذهبوا من هذا العالم بسلام ، لم يتهمهم احد بسوء ، ولا طعن طاعن في عقيدتهم ولطالما وجهت تهمة الزندقة الى كثير ممن توسعوا في علم الكلام او العلم الالهي ، أو علوم الاوائل من الفلسفة والطبيعي والرياضي ، وكان نمط تفكيرهم جديداً يخالف من بعض نواحيه نمط التفكير الذي اصطلح عليه رجال مات او رجال باتوا ، فوقّروا في الصدور ، وغلبت منزلتهم بين الناس والميت افضل عندهم من الحي ، وقد يكون بينهما بون بعيد ، وفروق ظاهرة والارجح انه كان للحسد والجهل مدخل كبير في الطعن على التوحيدي ، والطاعنون اما حسدة ساقهم لؤم الغريزة الى النيل من عظيم بذّهم وأربى عليهم ، فما استطاعوا مشاركته ومنافسته ، او انهم جهلوا حقيقته وتأولوا كلامه ، وباب التأويل متسع لمن يحاول ان يسقط مؤلفاً مثله ، خاض أصعب المسائل الالهية والاجتماعية

---

(١) في معلمة الاسلام ترجمة للتوحيدي بقلم الأستاذ مرجليوث ، جاء فيها ان الوزير المهلبي نفى ابا حيان لما صرح به من الالحاد في كتبه الى صاحب وذكر له كتاب التذكرة التوحيدية وكتاب اخبار القدماء وذخائر الحكماء وقال انه ليس من الثابت ان هذين التأليفين دخلا في شيء من فهرس كتب التوحيدي التي ذكرها ياقوت

وقال فيه بعض واصفيه انه قليل الرضى عند الاساءة اليه والاحسان ، الذم شانه ، والثلب دكانه ، يشكي صرف زمانه ، ويبكي في بضاعته على حرمانه وقد لامه أستاذه السيرافي يوماً وهو يعمل ذم اعرابي بقوله « يابى الا الاسترسال بالقدح والذم وثلب الناس » فاجاب « ادام الله الاستاذ ، بل كل انسان عاهر مبتلى به مدفوع اليه » وهذا الخلق في الثلب من الناس لا سبيل الى تبرئة ابي حيان منه ، لانه مما اجمعت الآراء على انه كان فيه متاصلاً بادياً ، وهو مزاج خاص من جملة امزجة بني آدم ويوشك صاحب هـذا المشرب أن يعادي اكثر اهل زمانه ، هـذا وهو دربة في صوب العقل ودرب الفضل

ان الرجل الذي يخوض غمار المتاعب التي خاض التوحيدي بحرها ، ويخرج منها باصبع الخبير الخبير ، ناجح المسعى والمرمى ، وهو من افراد الدنيا بذكائه ونبوغه ، يستحيل ان يعتقد بمجرد افكار غيره يصدر اذا صدروا ، ويرد اذا وردوا ، ملازمهم في كل ما قرروا أو قرر لهم ، وتابعهم عموا وضلوا ، ام ابصروا واهتدوا وفي السير عدد ليس بقليل كان نصيبهم نصيب ابي حيان من الناس بالجمع ، فقد رأينا انا يستم في صنوف من معايبهم ، وصنوف من عقول اهل جيلهم ، بعض من غضب المخطئين بالمعاملين بسيطرة المستبدين والجائرين

مساوئه وتهمه

ترى هل كان التوحيدي يتبع المرسوم واهيا ، يجالس الى ارباب بدعة وهزل ، يخلع ثوب الجد الوقار ، ساعة من ليل او نهار ؟ بغداد في مهد علوم الطرب ، وعهد قدار المشتغلين بالسمعيات لي اسمى الادب ،

وحرج الادب فيها عن حد الجمال ، وأصبح اطرب الشعر ما صدر عن قلب ملتهب ، وفؤاد مضطرب ، ونفس زافرة حائرة واكبر الظن ان التوحيدي لم يكن على شيء من هذا ، اللهم الا اذا كان في صباه ، وقد عرف بنسكه وزهده ، اجمع على ذلك العارفون به ، لو لم تناقضه القطعة الوحيدة التي انتهت الينا من شعره وهي في غزل رقيق ، صدر عمن ابتسم للحياة والانام ، فاحد نظر اليها نظر المتأمل ، على حين كانت اكثر نظرات التوحيدي متشائمة ، هذا اذا لم نرَ ان له مورد بان هذا اللسان كان على لسان اهل الباطن ، كما فسر بعض المتصوفة كثيراً من الغزل ، فيدعون انه في الاشارة الالهية او في المقامات المطهرة اما ابيات التوحيدي فهذه

يا صاحبيَّ دعا الملامة واقصرا	ترك الهوى يا صاحبي خسارة
كم لمت قلبي كي يفيق فقال لي	لحَّيت[1] عين ما لها كفارة
انا لا أفيق ولا أفيق لخطة	ان أصبحت نفسي فانت حجارة
الحب اول ما يكون بنظرةٍ	وكذا الحريق بداوه شراره
يا من أحب ولا أسمي باسمها	اياك اعني فاسمعي يا جارة

ولقد احرق ابو حيان كتبه في آخر عمره لقلة جدواها وضناً بها ان تبقى على من لا يعرف قدرها بعد موته وكتب اليه القاضي ابو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه ، فكتب اليه ابو حيان يعتذر من ذلك فما قال له في الاعتذار « ان كان ، ايدك الله ، قد نبت حملك[2] ما سمعت ، فقد ادمى اظلي ما رأيت ،

(١) لج في اليمين لم يكفرها مدعيا صدقه فيها

(٢) اصل المثل ان يدم أظلك فقد نقب خفي الأظل باطن منسم البعير ، والخف واحد الاخفاف ومعناه يضرب للمشكو اليه للشاكي اي انا منه في مثل ما تشكو (امثال الميداني) والمنسم كمجلس طرف خف البعير وهما كالظفر من في مقدمه

فلهن عليك دلك ، فما ابىرىت له ، ولا احبرأت عليه ، حتى اسحرت الله عر وحل فيه أياماً رلىالى ، وحى اوحى الى فى المنام مما نعث رافد العرم ، واحدٌ فار السه ، راحا ممت الراى ، وحب على سعد ما رفع فى الرُّوع ، ورىع فى الحاطر ، رانا أحرد عليك الآن بالحجه فى دلك ان طالىت ، أو العـدر ان اسوحىت ، لتتى ى فىا كان مى ، وىعرف صىع الله تعالى فى ىسه لى ان العلم ، حاطك الله ، براد للعمل ، كما ان العمل براد للىحاه فادا كان العمل فاصراً على العلم ، كان العلم كلاً على العالم ، رانا اعود بالله من علم عاد كلاً ، واورث دلاً ، وصار فى رقىه صاحبه غُلاً

« ىم اعلم ، علمك الله الحىر ، ان هده الـكـىـب حوت من أصـاف الـلم سره رعلانىه ، فأما ما كان سراً فلم أحد له من ىىحلى لحه ىىه راعىاً ، واما ما كان علانىه فلم أصب من ىحرص علىه طالباً ، على أنى حمعـىـا اكىرها للىاس ، ولطلب المىاله[1] منهم ، ولعقد الرياسه بينهم ، ولمدّ الحاه عنـدهم ، فحـىـت دلك كله ، رلا سك فى حسن ما احباره الله لى ، وباطه بناصىى ، رىطه بامرى ، وكرهت مع هدا وغيره ، ان ىكون حجه علىّ لا لى

« رىما سحد العرم على دلك ، ررفع الحجاب عنه ، انى فقدت ولدً نحـىـاً وصدىقاً حمىماً ، رصاحباً ورىفاً رىاراً ادىباً ، رىىساً مىىىاً ، فىسـق علىّ ان ادعها لقىم سلاعىون بها ىدىسـون عرضى اذا نظروا فيها ، رشىمتون بسهوى وغلطى اذا ىصفحوها ، ىىاءون ىىى ىىى ىى ىىاه ، فىن قلتَ رلمَ ىسمهم سوء الظن ، وىعرى حماعتهم ىىدا ا ىـ فحى ابى لك ابـ ع ى ممه فى الحىا ه الدى حمو ظىى ىىهم عد ، ىـ ، وكىف اركىها لـا من حاربىه

---

(١) ىعىى ىـ ىىه ىـ دوىـ ىم

عسر ں سه ڡما صحّ لى من أحدهم وداد ، ولا طهر لى من إنسان منهم حِفاظ ؛ ولقد اصطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى اوقات كثيرة الى أكل الحَصِر[1] فى الصحراء ، و الى الكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، و الى بيع الدين والمروءة ، و الى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، و إلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، و يطرح فى قلب صاحبه الالم ، واحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلته يخاف عليك ، مع ه رفقك وفطنتك ، وسدة تنعلك وتفرغك ، وما كان يجب ان يرتاب فى صوب ما فعلته واتيته ، بما قدمته و صفته ، و بما امسكت عنه وطويته ، اما هرباً من التطويل ، و اما خوفاً من المال والقيل

« و بعد فقد اصبحت هامه[2] اليوم اوعد ، فانى فى عشر التسعين ، وهل لى بعد الكبرة والعجز أمل فى حياة لذيذة ، او رجاء لحال جديدة ، الست من زمرة من قال القائل فيهم

ىروح ويغدو كلّ يوم وليلة   وعما قليل لا يروح ولا يغدو

وكما قال الآخر

يقوت دراب الصبا فى ظلاله   الى ان أتانى بالفطام مشيب

وهذا البيت للورد الجعدى وتمامه يغنى عنه هذا المكان

« والله يا سيدى لو لم أتعظ الا بمن فقدته من الاخوان والاحداث ، فى هذا الصقع من الغرباء والادباء والاحباء لكفى ، فكيف بمن كان الا من تقرَّبهم ، والمعس سد بر تقربهم ، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والرى وما والى هـذه

(١) الحصر كـكتف النعلة الخضراء كالخضر كفرحة وهى بقلة خضراء خشنا ورقها مثل ورق الدخن وكذلك عرقها وترتفع ذراعا وهى علا فم النعم (التاج)

(٢) يقال هو هامة اليوم أو غد اى ميت على الموت

المواصع ، وبوادر الى نعمهم ، واسـدت الواعيه[1] سهم ، فهل انا الا من عنصرهم ، وهل لى محيد عن مصيرهم ، اسال الله تعالى رب العالمين ، أن يحـ ل اعترافى عما أعرفه ، موصولاً بنزوعى عما اقترفه ، انه قريب مجيب

« وبعد فلى فى احراق هـذه الكتب أسوة بائمة يقتدى بهم ، و يؤخذ بهديهم ، و يُعشى الى نارهم ، منهم أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر ، وورع معروف ، دفن كتبه فى بطن الارض فلم يوجد لها اثر ، وهـذا داود الطائى وكان من خيار عباد الله ، زهداً وفقهاً وعبادةً ، و يقال له تاج الامة ، طرح كتبه فى البحر وقال يناجيها نعم الدليل كنتِ ، والوقوفُ مع الدليل بعد الوصول ، عناء وذهول ، وبلاء وخمول ، وهذا يوسف بن اسباط حمل كتبه الى غار فى جبل ، وطرحها فيه وسدّ بابه ، فلما عوتب على ذلك قال دلنا العلم فى الاول ، ثم كاد يُضلنا فى الثانى ، فهجرناه لوجه من وصلناه ، وكرهناه من اجل من اردناه ، وهـذا ابو سليمان الدارانى جمع كتبه فى تنور وسجرها[2] بالنار ثم قال والله ما احرقتكِ حتى كدت أحترق بكِ ، وهـذا سفيان الثورى مزّق الف جزء وطرحها فى الريح وقال ليت يدى قطعت من ههنا بل من ههنا ولم اكتب حرفاً ، وهذا شيخنا ابو سعيد السيرافى سيد العلماء قال لولده محمد قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل ، فاذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار

« [illegible] اول [illegible] معى [illegible] ان زهداً [illegible] لى ما [illegible] ، [illegible] بدمع به العين جزعاً اسى [illegible] عنه علاء عصاً حرّى [illegible] رسحى ، ما [illegible] ، حدث [illegible] احتجب الى [illegible] فى حصه

---

(١) [illegible] ( ) [illegible]

نفسي فقليل ، والله تعالى ساق كاف ، وان احتجت اليه للناس ، ففي الصدر منه ما علا القرطاس بعد القرطاس ، الى ان تفنى الانفاس بعد الانفاس ، وذلك من فضل الله علينا ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، فلم تغنّ[1] عني ، الحمد لله ، بعد هذا بالحبر والورق والجلد ، والقراءة والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض ، وهل ادرك السلف في الدين الدرجات العلى الا بالعمل الصالح ، واخلاص المعتقد والزهد الغالب ، في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج[2] ، وهوى بصاحبه الى الهبوط ، وهل وصل الحكماء والقدماء الى السعادة العظمى الا بالاقتصاد في السعي ، الا الرضى بالميسور ، والا بذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم ، فاين تذهب بنا ؟ وعلى اي باب نحط رحالنا ؟ وهل جامع الكتب الا كجامع الفضة والذهب ، وهل المنهوم بها الا كالحريص الجشع عليها ، وهل المغرم بحبها الا كمكاثرها ؟ هيهات ، الرحيل والله قريب ، والثواء قليل ، والمضجع مقضّ ، والمقام ممض[3] ، والطريق مخوف ، والمعين ضعيف ، والاغترار غالب ، والله من وراء هذا كله طالب ، نسأل الله تعالى رحمة يظلنا جناحها ، ويسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها ، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته ، بعد ان حصل تحت قدرته »

وختم كتابه بقوله « على اني لو علمت في اي حال غلبت على ما فعلته ، وعند اي مرض ، وعلى اية عسرة وفاقة ، لعرفت من عذري اضعاف ما ابديه ، واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته ، واذا انتهيت الى هذا الطرف علمت ان الله جل وعز في خلقه احكاماً ، لا يعارُ عليها ولا يغالب فيها ، لانه لا يبلغ كنهها ،

(١) تغنى بغنى واغنا وغنا

(٢) الزبرج بالكسر الزينة بالوشى او الجوهر

(٣) مضه الشي مضا ومضيضا بلغ من قلبه الحزن كأمضه

ولا سال عمها[1] ولا نعرف قلبها[2] ، ولا نعرع نابها ، وهو تعالى املك لمواصدنا ، واطلع على اداننا واقاصدنا ، له الخلق والامر ، وبيده الكسر والجبر ، وعلمنا الصمت والصبر ، إلى ان بوار سا اللحد والقبر والسلام »

كتب هذا الكتاب فى سهر رمضان سنه ار نعانه ، وكسف به الغطا عن محيا حقا عصره ، والمّ فيه اى الملم مما حداه على نعمه امره ، لما الى ن الادكار ، وناله من اهل حمله ، فهجس[3] عما هجّس ، وأرعج عما أرعج ، ولولا ان السو لداء علب عليه باقراره ، والناس من الحياه و بنها سد عليه مسالكه ، ور ب له اسان ما اى — ر ساب الافكار ، اعلى من كل عمار ر بصار — لما أقدم له معدره ، ولا أسل على دسه سير المعفره ، ر بالسو بدا قد يهلك المر اعرّ حدب على وا ه ، حى اذا ناب اليه عمله ندم على فعله ، بالمره الصعرا ود نعمل بعسه ، والنفس اعر الاعلاق على الاصلاق را و حدى ع هذا لم ناب لدعاً وراً[4] ، ولعمله اسماه ر طار ، بعد ان الرمن الذى فلبه كل معلب ، رعمره فى اعطاف الم سعلب ، واحرجه من حلده ، ر ما به عن طوره ، مما رآه من حب رحب ، رعمت رعب ، لم رض ان يسلب جميع حراهره رعموده نسمع لد ي ( ) من درره اهل الاحسال المملة ، على نحو ما اسمع مها ا م الاعصر ا ره ومضى له من ول الماء الدى عمده لا حر ق مه ن دل ار افوب ر الطامون اسفاره ر بدا ف فى اسحم وافسم فه ب ها هذه الا مه الصالحه من افكاره اى حفظت دكرا على كر ر لاعصار ، صارت كل طار فى الاقطار والامصار

(١) صلمنا (٢) محس كل سى (٣) اسحب المسح
( ) ع ى كمى لام نحسن المصنع را عطم (٥) سه

وان أعظم ما نعقد عليه فى هذه الرسالة قوله انه جمع أكثر كتبه للناس ، ولطلاب الفضل منهم ، وعقد الرياسة بينهم وتبدان الجاه عندهم وقوله هذا ينافى هدى العلماء ، فان العلم يراد لذاته ، وبالا ف الكتب تقصد به نفع الناس ، ونشر فكر وبث حقيقة ، وقد يتوقع منها مآرب آخر ، هذا اذا كان يريد بعبارته ما فهمناه منها ، فان هذا التصريح مما يعاب عليه ، وما نرى هذه الافكار تلتئم مع الفلسفة والتصوف على اننا رأينا ابا حيان فى بعض أحواله و واقفه ، على غير هذا ، رأيناه يقول وقد راى فى جامع الرصافة المعافا بن زكريا نائم مستدبر الشمس فى يوم شات ، وبه من اثر الفقر والبؤس والضر امر عظيم ، مع غزارة علمه ، واتساع أدبه ، وفضله المشهور ، و رفعة ، وف الم ، سيما بالآثار والاخبار وسير العرب وايامها فقال له مهلا ايها الشيخ وصبراً فا لك بعين الله ومرأى منه ومسمع ، وما جمع الله لاحد شرف العلم وعز المال فقال مالابد منه من الدنيا فليس منه بد ، ثم قال

يا محنة الدهر كفى ان لم تكفى فخفى

قد آن ان ترحمنا من طول هذا التشفى

طلبت جداً لنفسى فقيل لى قد توفى

فلا علومى تجدى ولا صناعة كفى

ثور ينال الثريا وعالم متخفى

نموذجات من كتبه

تمثل كتب أبى حيان أفكاراً متنوعة ، وفلسفة أناس كانت تنسى أخبارهم ، لو لم تقصد لتدوينها ، وفى اقتباس صفحات قليلة منها ستجلى الوان ادبه

وسهولة سابه قال فى كتاب المحاضرات

ذكرت للورير مناظرة جرت فى مجلس الورير ابى الفتح الفضل بن جعفر ابن الفرات ، بين ابى سعيد السيرافى وابى بشر متى واختصرتها فقال لى اكتب هذه المناظرة على التمام ، فان شيئاً يجرى فى ذلك المجلس النبيه ، وبين هذين الشخصين بحضرة أُولئك الاعلام ، ينبغى ان يغتنم سماعه ، ويوعى فوائده ، ولا يتهاون بشىء منه وكان فى جملة من حضر ذلك المجلس الذى انعقد سنة عشرين وثلاثمائة الخالدى وابن الاخشيد والكندى وابن أبى بشر وابن رباح وابن كعب وقدامه بن جعفر والزهرى وعلى بن عيسى بن الجراح وابو فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمى وابن يحيى العلوى ورسول ابن طُغج من مصر والمرزبانى صاحب بنى سامان قال التوحيدى فقال لى الوزير ابن ابو سعيد من ابى على ، وابن على بن عيسى منهما ، وابن ابن المراغى ايضاً من الجماعه ، وكذلك المرزبانى وابن ساذان وابن الوراق وابن حيويه ؟ فكان منى الجواب ابو سعيد اجمع لشمل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وادخل فى كل باب ، واخرج عن كل طريق ، والزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق ، وارى للحديث ، واقضى فى الاحكام ، وافقه فى الفتوى ، واحضر بركه على المجالس ، واظهر اثراً فى المقتبسه

وبما جا فى هذه المناظره فى اللغات والترجمه ان لغة من اللغات لا تطابق لغه اخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها فى اسمائها و افعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها و تشديدها وتخفيفها وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ووزنها وميلها وغير ذلك فمن ابن يجب ان تثق بشىء ترجم لك على هذا الوصف ؟ بل انت الى ان تعرف اللغة العربية احوج

يمكنك الى تعرف المعانى اليونانيه ، على ان المعانى لا تكون يونانيه ولا هنديه
كما ان اللغات لا تكون فارسيه ولا عربيه ولا تركيه   و ن فِقَرها قال
ابو سعيد فانت (اى متّى) اذاً لست تدعونا الى علم المنطق بل الى تعلم اللغه
اليونانيه ، وانت لا تعرف لغه يونان ، فكيف صرت تدعونا الى لغه لا تفى
بها وقد عَفَت منذ زمان طويل ، وباد اهلها ، وانقرض القوم الذين كانوا
يتفاوضون بها ، ويتفاهمون اغراضهم بتصرفها ؟ على انك تنقل من السريانيه ،
فما تقول فى معان متحوله بالنقل من لغه يونان الى لغه اخرى سريانيه ، ثم من
هذه الى لغه أخرى عربيه ؟ قال مَتى يونان وإن بادت مع لغتها فان الترجمه
قد حفظت الأغراض ، وادت المعانى ، واخلصت الحقائق قال ابو سعيد اذا
سلمنا لك أن الترجمه صدقت وما كذبت ، وقومت وما حرفت ، ووزنت وما
جزفت ، وانها ما التاثت ، ولا حافت[1] ، ولا نقصت ولا زادت ، ولا قدمت
ولا اخرت ، ولا اخلت بمعنى الخاص والعام ، ولا باخص الخاص ، ولا باعم
العام ، وان كان هذا لا يكون ، وليس فى طبائع اللغات ، ولا فى مقادير المعانى ؛
فكانك تقول بعد هذا لا حجه الا عقول يونان ، ولا برهان الا ما وضعوه ،
ولا حقيقه الا ما ابرزوه قال متى لا ولكنهم من بين الامم اصحاب عنايه
بالحكمه ، والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه ، وعن كل ما يتصل به وينفصل
عنه ؛ وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر ، وانتشر ما انتشر ، ونشأ ما نشأ ، من انواع
العلم واصناف الصناعه ، ولم نجد هذا لغيرهم قال ابو سعيد اخطأت وتعصبت ،
وملت مع الهوى ، فان العلم مبثوث فى العالم ولهذا قال القائل

العلم فى العالم مبثوث   ونحوَه العاقل محثوث

---

(١) حاف يحاف حيفا جار وظلم ، والتاث اختلط

وكذلك الصناعات مقصوصة على جميع من على حديد الارض ، ولهذا غلب علم في مكان دون مكان ، وكثرت صناعة في قمة دون صناعة ، وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة ومع هذا فانما كان يصح قولك ويسلم دعواك ، لو كانت يونان معروفة من جميع الامم بالعصمة الغالبة ، والفطرة الطاهرة ، والبنية المخالفة ، وانهم لو ارادوا ان يخطئوا ما قدروا ، ولو قصدوا ان يكذبوا ما استطاعوا ، وان السكينة نزلت عليهم ، والحق تكفل بهم ، والخطا تبرا منهم ، والفضائل صمدت باصولهم وفروعهم ، والرذائل بعدت عن جواهرهم وعروقهم ، وهذا جهل من يظنه بهم ، وعناد ممن يدعيه عليهم ، بل كانوا كغيرهم من الامم يصيبون في اشياء ، ويخطئون في اشياء ، ويصدقون في امور ، ويكذبون في امور ، ويحسنون في احوال ويسيئون في احوال

قال ابو حيان هذا آخر ما كتبت عن على بن عيسى الشيخ الصالح باملائه ، وكان ابو سعيد روى لمعاً من هذه القصة ، وكان يقول لم احفظ على متى كل ما قلت ، ولكن كتبت ذلك اليوم الذين حضروا في الواح كانت معهم ومحابر ايضاً ، وقد اختل كثير منه قال على بن عيسى وتقوض المجلس واهله متعجبون من جأش ابي سعيد ، ولسانه المتصرف ، ووجهه المتهلل ، وفوائده [illegible] عافاك الله ايها الشيخ فقد بدأ [illegible] [illegible] ، وحكمت طرازاً لا يبليه الا [illegible] ولا [illegible] الحدثان ، قال قلت لعلى بن عيسى وكم كانت سن ابي سعيد يومئذ ، قال مولده [illegible] ، كان له يوم المناظرة اربعون سنة وقد عبث الشيب بلهازمه[1]

* * *

(١) هـ [illegible] هذه وهما عيب [illegible] في [illegible] الأدباء

نقل القفطى أن السبب فى تأليف التوحيدى كتاب الامتاع والمؤانسة أن أبا سليمان المنطقى استاذ التوحيدى فى الفلسفة — وكان منزله فى دار السلام مقيل[1] أصحاب العلوم القديمة — كان لانقطاعه عن الناس ، ولزومه مجلسه ، يشتهى الاطلاع على أخبار الدولة ، وعلم ما يحدث فيها ، فكان من يغشاه من الاجلاء ، ينقل اليه بعض أخبارها ، وكان أبو حيان من بعض المتصلين به ، وكان يغشى مجالس الرؤساء ويطلع على الاخبار ، وربما علمه من ذلك ينقله اليه وحاضره به ، ولاجله صنف كتاب الامتاع والمؤانسة ، نقل له فيه ما كان يدور فى مجلس أبى الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى عند ما تولى الوزارة قال وهو كتاب ممتع على الحقيقة ، لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فانه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة قال القفطى وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الامتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً ، وتوسطه محدثاً ، وختمه سائلا ملحفاً اه وفى الكلام الأخير صورة مما كان يعاب على أخلاق أبى حيان ، وقد لا نجد المدافع معذرة ، بدر ... ومنزع التوحيدى واحد وهو ما قاله فى آخر كتاب أخلاق الوزيرين « ولكن النقص ممن يدعى التمام اسمع ، والحرمان من السعيد المأمول فاقرة[2] والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة[3] ، والبخل ممن برا منه بدعواه عجب » ومن الانصاف ان نقول ان التوحيدى اجاد كل الاجادة فى التعريف بالرجال ، ووقفنا على نفسياتهم ومزاياهم ، وليس هذا بالأمر السهل ومن كتاب الامتاع « سأل الوزير صمصام الدولة أبا حيان التوحيدى

(١) المقيل الموضع (٢) الفاقرة الداهية
(٣) الجائحة الشدة والنازلة

في حدود سنة ٣٧٢ عن أحوال الصفاء بقوله : إني لا أزال أسمع من
زيد بن رفاعة قولاً يريبني ، ومذهباً لا عهد لي به ، وكناية عما لا أحقه ،
وإشارة إلى ما لا يتوضح شيء منه ، يذكر الحروف ويذكر النقط ، ويزعم
أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا لسبب ، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين
إلا لعلة ، والألف لم تُعجم إلا لغرض وأشباه هذا . وأشهد منه في عرض ذلك
دعوى يتطاول بها ، وينتفخ بذكرها ، فما حديثه وما شأنه وما دخلته[1] ؟ فقد
بلغني يا أبا حيان أنك تغشاه وتجلس إليه ، وتكثر عنده . ولك معه نوادر
معجبة ، ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته به ، وأمكن اطلاعه على مستكن
رأيه وخافي مذهبه . فقلت : أيها الوزير ، أنت الذي تعرفه قبلي قديماً وحديثاً
بالاختبار والاستخدام ، وله منك الأمرة القديمة ، والنسبة المعروفة . فقال :
دع هذا وصفه لي . فقلت : هناك ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسع في قول
النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة ، وحفظ أيام الناس ،
وسماع للمقالات ، وتبصر في الآراء والديانات ، وتصرُّف في كل فن
إما بالشدو[2] الموهم ، وإما بالتوسط المفهم ، وإما بالتناهي المفحم . قال : فعلى
هذا ما مذهبه ؟ قلت : لا ينسب إلى شيء ، ولا يعرف برهط ، لجيشانه بكل شيء ،
وغليانه بكل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطة بيانه ، وسطوته بلسانه .
وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً ، وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة
منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي ، ويعرف بالمقدسي ، وأبو الحسن علي بن
هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني ، والعوفي وغيرهم فصحبهم وخدمهم .
« وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت

---

(١) مذهبه ونيته (٢) شدو قليل من كل كثير

على القُدس والطهاره والمصسحه ، فوصعوا بينهم مدهباً زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله ، وذلك انهم قالوا ان الشريعه قد دُنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفه ، لانها حاويه للحكمه الاعتقاديه ، والمصلحه الاجتهاديه ، وزعموا انه متى انتظمت الفلسفه اليونانيه والشريعة العربيه ، فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رساله فى جميع أجزاء الفلسفه علميها وعمليها ، وافردوا لها فهرساً وسموها « رسائل اخوان الصفاء » وكتموا فيها اسماءهم ، وبثوها فى الوراقين ، ووهبوها للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينيه ، والامثال الشرعيه ، والحروف المحتمله ، والطرق المموهه

قال الوزير فهل رأيت هذه الرسائل ؟ قلت قد رأيت جمله منها وهى مبثوثه من كل فن بلا اشباع ولا كفايه ، وفيها خرافات وكنايات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وحملت عده منها الى شيخنا ابى سليمان المنطقى السجستانى محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها اياماً ، وتبحرها طويلاً ، ثم ردها علَىَّ وقال تعبوا وما أغنوا ، ونَصِبوا وما اجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغنُّوا وما اطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا [1] ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا انه يمكنهم ان يدسوا الفلسفه التى هى علم النجوم والافلاك والمقادير والمجسطى وآثار الطبيعه ، والموسيقى الذى هو معرفه النغم والايقاعات والنقرات والاوزان ، والمنطق الذى هو اعتبار الاقوال بالاضافات والكميات والكيفيات فى الشريعه ، وان يضطوا الشريعه فى الفلسفه ، وهذا مرام دونه حَدَد [2] وقد تورد [3]

(١) ثوب مفلفل موشى ، وهلهلوا نسجوا نسجا سخيفا
(٢) ممتنع باطل
(٣) ورد اشرف على الماء وسير دخله او لم يدخله كالورود

على هذا و ل هؤلا وم كانوا احد اساناً ، واحصر أسماناً ، واعظم اقداراً ، وارفع احطاراً ، وأرسع فوى ، واو ى عرا ، ولم تم لهم ما ارادوه ، ولا نا وا مه ما املوه ، وحصلوا على لوناب[1] فيحه ، واطحاب واصحه وحشه ، وعواقب محر ته ، فقال له المحاري ابن العباس ولم ذلك اسها السيح ؟ فقال ان السر ه ماحوده عن الله عز وحل ، نوساطه السفير بنه و بين الخلق ، من طريق الوحي وباب المناحاه ، سهاده الآيات ، وظهور المعجزات ، وفى اساسها ما لا سبيل الى البحث عنه والعرض فيه ، ولا بد من التسليم المدعو اليه ، والامه عا ه ، وهناك سقط « لِمَ » ر بطل « كيف » و يزول « هلا » و يذهب « لو وليت » فى الريح الخ (عن تراجم الحكما) هذه حمعه حمعه احوان الصفاء ، وصفها الرحـ دى احمل وصف ما احلى قوله فى ابن رفاعه انه يتصرف فى كل فن اما بالسدر الموهم ، واما بالرسط المفهم ، و اما بالتناهى المعجم

من كتاب تقريظ الجاحظ هذا الكتاب نقل عنه ياقوت احياناً و نقل عنه الجرجانى فى كتابات الادباء كما نقل ايضاً عن كتاب الدخائر والبصائر قال ياقوت بخط ابى حيان التوحيدى فى كتابه الذى اسمه فى تقريظ الجاحظ وقد ذكر العلما الذين كانوا يفضلون الجاحظ فقال و منهم على بن عدى الرمدى فانه لم ير مثله قط بلا نعمه ولا تحاش لا اسمرار ولا سا حس سله اً د نحو وعباره فى الكلام ، و بصراً باداء لاب ، واسـ حراحاً ل و ص ابـ حاً المسكن مع باله ونبره ، ودين و تقى ، وفصاحه وفقاهه ، وعه فه ـ ءاه

ر نقل ياقوت ا حاً جمله من هذا الكتاب فه ل ر ـهم (اى ر مد ب فدمهم التوحيدى على احـ حط ر فضلهم) ابو سعيد السيرافى ـ ح اسـ ح مه

---

(١) اللوبه باصم حمق و همج و س حمـ ب

الأئمه معرفه بالىحو ، والفقه ، واللغه ، والسعر ، والعروص ، والقوافى ، والقرآن ، والفرائض ، والحدىث ، والكلام ، والحساب ، والهندسه افتى فى حامع الرصافة حمسس سنه على مدهب ابى حسفه فما وحد له حطا ، ولا عىر منه على زلة ، وقصى ىىعداد ، وسرح كىاب سىدويه فى ىلاىه آلاف ورقه ىحطه فى السليمانى ، فما حاراه فيه احد ، ولا سبقه الى اىمامه اىسان هذا مع الىقه والدىانه والامانه والروايه ، صام ارىعىں سىه وا كىر الدهر كله وهدا الكىاب ىں عحاىب التوحيدى ايضاً فانه على ما طهر ىں هدىں الىمودحىں فيما ىرى فى وصف السىرافى والرمانى أنه فصلهما على الحاحط فى هدا الاحىصاص وهدا موصع ىطر ايضاً

مىال مں كىاىه الصداقه والصدىق قال فى مقدمه « اللهم حد ىايدىىا فقد عثرىا ، واسىر علىىا فقد اعورىا ، وارزقىا الالفه اىى ىها ىصلح القلوب ، وىىق الحىوب ، حىى ىعىش فى هده الدار مصطلحىں على حىر ، مؤىرىں للىقوى ، عاملىں ىسرائط الدىں ، آحدىں ىاطراف المروءه ، آىڡىں مں ملاىسه ما ىقدح فى دات الىىں ، مىرودىں للعاقىه الىى لا ىد مں السحوص اليها ، ولا محىد عں الاطلاع عليها ، انك ىولى مں ىساء ما ىساء

« سُمع مىى فى وقت ىقدىمه السلام ، كلام فى الصداقه والعسره ، والمواحاه والالفه ، وما ىلحق ىها مں الرعاىه والحفاظ ، والوفا والمساعده ، والىصىحه والىدل ، والمواساه والحود والىكرم ، مما قد ارىفع رسمه ىىں الىاس ، وعُفى اىره عىد الىام والحاص ، وسىلت اىاىه فىقلت ، ووصلت دلك ىحمله مما قال اهل الفصل والحكمه ، واصحاب الدىانه والمروءه ، لىكون دلك كله رساله ىاىه ىمكں ان ىسىفاد منها ، ويىىفع ىها فى المعاش والمعاد وسىىت الحُوارزمى اىا ىكر محمد

ابن العباس الشاعر البليغ يقول: اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تمتني حتى تبور الجهل، كما بار العقل، وتموت النقص، كما مات الفهم. وأقول: اللهم اسمع واستجب، فقد برح الخفاء، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل، وأشفى الرجاء، والفرج معدوم، وأظن أن الداء في هذا الباب قديم، والبلوى فيه مشهورة، والصحيح منه معتاد

« وأول ذلك أني قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي أرخى نفسه، وصداقة عقله، وساعده طبعه، ومرآه خُلقه، فمن أين هذا وكيف هو؟ فقال: يا بني اختلطت بقية نعمة بي، فاستعذبنا طُمأنينة وسكوناً لا يربان على الدهر، ولا يحولان بالقهر، ومع ذلك فنسبنا بالطالع، ومواقع الكواكب، مشاكلة عجيبة، ومظاهرة غريبة، حتى أنا نلتقي كثيراً في الإرادات والاختيارات، والشهوات والطلبات، وربما زارني وحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان، حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأني هو فيها أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيجد في باطنها، فيراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل. قال: ورأيته قد ملكه التعجب من هذا ونسبه [illegible] عيانا باسمه من قوى الفلك، [illegible] واحدة [illegible] منسوبة، أو قريبة من البشري، فعجب وازداد بصيرة في خلاص اعتقاده وتوكيد العلاقة. فقلت لأبي سليمان: كيف يسح هذا [illegible] مضحك في فلسفة صدر [illegible] من الحكمة وتشتت[1] مجمعه من [illegible]

(1) [illegible]

العوامص والدقائق ، وداك رحل ى عداد الفصاه ، وحله الحكام ، واصحاب الفلاس ، رمحاصه[1] الطاهر الدى علىه الجمهور ، وماحده ما علىه السواد الاعطم ؟ فقال هدا هو الدى امردنا عنه ، بعد ان اردوحنا علىه ، والاصل امداً محالف للفرع ، لا حلاف الصد للصد ، ولكن حلاف الشكل للشكل ، وكان سىر به حالناً من فوه رحل ، فىرر فى حلىه الفصاه ، وكان المسيرى لى ممساً ں رحل فطهرت ىما ىرى ، فجمعنا المسا كله على العلم ، ووروا الاحلاف بالامن

فلت هـدا رالله طرىف ، وما ىرىد فى طرافته الك ں سحسبان وهو من الصّمره ، فقال الأمكنه فى الفلك اسـد ىصاماً ں الحاتم فى اص لك ، ولىس لها هناك هدا الىعد الدى ىحده بالمسافه الارصىه ، من لد الى لد ، ىراسح ىقطع ، رحال ىعلى ، وبحار تحرق ، فقلت هل تحد علىه فى ىى او ىحد علىك فى سى ؟ فقال وحدى به فى الارل ، قد حجمى عن وحدى عامه فى الثانى ، على انه ىكىو مى وما حالف هواى باللمحه الصعىله ، وأ ى انا ا صاً معه فى مىل دلك بالاساره القلىله ، ور ما ىعاىدا على حال ىعرص على طر ى الكىايه عن عىرنا ، كما سحدث عن قوم آحرىن ، وىكون اما فى دالـ مع ، والىه ممرع ، وقلما ىحسمع الا وىحدى عى ىاسرار ما ساور عں صمىرى الى سمعى ، ولا ىدّت عن صدرى الى لفطى ، وداك للصماء الدى ىساهمه ، والوفا الدى ىىاسمه ، والناطن الدى ىسو علىه ، والطاهر الدى ىرحع الىه ، والاصل الدى رسوحنا فىه ، والفرع الدى ىسمىا به ، والله ما ىسرىى ىصداىه حُمْر النَّعم ولا احد ىها ىحانى ما احد ىحانى لى ، وادا ىـ اعسو الحاه لاىى ىها احنا ، كدلك اعسو كل ما وصل الحماه بالحاه ، وحى لى رىها ، وحاب الى رىحها ، وحلط لى طىها وحلاوىا

---

(١) المحاصه ما حر الناس فىه مسا وركانا وحاص العمراب افحمها

وكان أبو سليمان يحدثني عن ابن سيار بعجائب ، وأما أنا فما عرفته الا قاضياً جليلا صاحب حَدّ وتجهم ، وتوقر وتعظم ، وكان مع ذلك بسيط اللسان ، شريف اللفظ ، واسع التصرف ، لطيف المعانى ، بعيد المرامى يذهب مذهب أبى حنيفه

« ثم قال ابو سليمان الصداقه التى تدور بين الرغبه والرهبه ، شديدة الاستحاله ، وصاحبها من صاحبه فى غرور ، والزله فيها غير مأمونه ، وكسرها غير مجبور قال فاما الملوك فقد خَلَوْا عن الصداقه ، ولذلك لا تصح لهم احكامها ، ولا توفى بعهودها ، وانما امورهم جاريه على القدره والقهر والهوى ، والشائق والاستحلاء والاستخفاف ، واما خدمهم واولياؤهم فعلى غايه التيه منهم ، ونهايه المشاكله لهم لا تشابههم[1] بهم ، لابتسامهم النهم ، وزلوع طورهم بما يصدر عنهم ، ويرد عليهم واما الشا [2] واصحاب الصناع فليسوا من هذا الحديث فى شىء ولا نفير واما التجار فكسب الدوانق شدّ بينهم وبين كل مروءه ، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوه واما اصحاب الدين والورع ، فعلى قلتهم ، ربما خلصت لهم الصداقه لبنائهم اياها على التقوى ، وتاسيسها على احكام الحرج ، وطلب سلامه العقبى واما الكتاب واهل العلم فانهم اذا خلوا من التنافس والتحاسد ، والتمارى والتماحك ، فربما صحت لهم الصداقه ، وظهر منهم الوفاء ، وذلك قليل ، وهذا القليل من الاصل القليل واما اصحاب المذاب والمطه عن[3]

---

(١) ابيت به اعلق

(٢) الثانى الشاكى ، وبنا اهم

(٣) اسطف بعض حوت به صاحبه فى كل او ورب ، والمطعمون الذين يعصبون المكتاب والمراب ، والمذاب جمع مذبة تكسر الميم ما تذب به الذباب وهى هنه تسوى من هلب الفرس ، ويقال ا نامها مذابها ، وهو مجاز

فإنها زِحرِحه [1] من الناس لا محاسن لهم فتذكر ، ولا مساعي فتنشر ، ولذلك قيل لهم همج ورَعَاع ، واوباش وأوباس [2] ولعمف [3] ورعاع وداصّه [4] وسُقّاط وأنذال وغوغاء ، لأنهم من دقة الهمم ، وخساسه النفوس ، ولوم الطباع ، على حال لا يجوز ان يكونوا فى جمله المذكورين ، وعصابه المشهورين فلهذه الامور الحائله عن معارها ، الراجعه إلى غير جهاتها ، علل واسباب ، لو نفس الزمان قليلاً لكنا نبسط لشرحها ، ونذكر ما قد اتى النسيان عليه ، وعفى اثره الاهمال ، وشغل عنه طلب القوت ، ومن ابن يظفر بالغداء ، من كان عاجزاً عن الحاجه ، وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفايه ، وكيف يحتال فى حصول طِمْرين [5] للستر لا للتجمل ، وكيف يهرب من الشر المقبل ، وكيف يهرول وراء الخير المدبر ، وكيف يستعان بمن لا يعين ، ويشكى الى غير رحيم ، ولكن حال الحريص دون القريض [6]

« ومن العجب والبديع انا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحرق والاسف والحسره والغيظ ، والكمد والومد [7] ، وكانى بغيرك اذا قراها نصب نفسه عيبها ، واحتجّ بعده عليها ، وانكر عليّ التطويل والتهويل بها وانما اسرفت بهذا الى غيرك ، لانك تبسط من العذر ما لا يجود به سوالك ، وذلك

---

(١) الزحرحه ما يختلط بطين فى اسفل الحوض ، ويطلق على الحمقى والمهازيل

(٢) الوبس القليل من كل شئ ورذال الناس ، ولعلها الاوباش وهم الأوباس ايضا

(٣) العمف من يأكل مع اللصوص ويحرس ثيابهم ولا يسرق معهم

(٤) جمع داص وهو اللص أو من يسبع الولا

(٥) الطمر بكسر الطا الثوب الخلق

(٦) الجريض الغصه من الجرض وهو الريق والقريض الشعر ، واصل المثل أن رجلا كان له ابن نبغ فى الشعر فنهاه ابوه عن ذلك فجاش به صدره ومرض حتى اشرف على الهلاك فاذن له ابوه فى قول الشعر ، فقال هذا القول (٧) الغضب

لعلمك بحالى ، واطلاعك على دخلتى ، واستمرارى على هذا الانفاض والعور اللذين قد نقضا قوتى ، وسكّنا مِرَّتى[1] ، وأفسدا حياتى ، وقرنانى بالأَسَى ، وحجبانى عن الآسى[2] ، لأنى فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق مشفق ، والله لربما صليت فى الجامع فلا ارى الى جنبى من يصلى معى ، فان اتفق فبقال او عصار ، او نداف او قصاب ، ومن اذا وقف الى جانبى اسدرنى[3] بصُنانه ، واسكرنى بنتنه . فقد امسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخُلُق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوَحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملاً للاذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً لما لا بدَّ من حلوله ، فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة الى نضوب ، ونجم العيش الى أُفول ، وظل التلبث الى قلوص »

قال التوحيدى بعد ذكر هذه المقدمة ان سبب انشائه هذه الرسالة فى الصداقة والصديق انه ذكر « شيئاً منها لزيد بن رفاعة ابى الخير فنماه الى ابن سعدان الوزير ابى عبد الله سنة احدى وسبعين وثلثمائة ، قبل تحمله اعباء الدولة وتدبيره امر الوزارة ، حين كانت الاشغال خفيفة ، والاحوال على ادلالها[4] جارية » ، فاشار عليه ابن سعدان ان يدرنه ، فجمع هذه الرسالة ، وابطأ عن تحريرها ، فلما مرَّ على ذلك بعض سنين عثر على المسودة وبيضها

وقال فى مكان آخر « قد اثبت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق ، وما يتصل بالوفاق والخلاف ، والهجر والصلة ، والعتب والرضا

---

(١) الـ ىكسه اىم ڡو احى رىدىه

(٢) الاسى ىح الحرں والاسى احح راسم رحدها سو ىه ىاسى ىه احد ں

(٣) اسدرى حـ ں واىساىدر ىـ (٤) ڡى ـں حر امور على

ا لاها اى ى وحـ هىا ى ىصح وسىل ر ىـ رحد ادلا ىـ ىكسه

والملق[1] والاخلاص ، والرياء والنفاق ، والحمله والخداع ، والاس ما ه والاا وا ، والاستكانه والاحتجاج والاعتذار ولو امكن لكان ما اف ذلك كله اسم ما هو عليه ، وأجرى الى العايه فى صم السى الى سكله ، وحسه فى فالبه ، فكان رىعه اس ، وروعه احسن ، ولكن العذر قد تقدم ولو اردنا ا ضاً ان نجمع ما قاله كل ناظم فى شعره ، وكل ناثر من لفظه ، لكان ذلك عسراً لى دراً ، فان انعاس الناس فى هذا الباب طويله ، وما ن احد الا وله فى هذا الفن حصه ، لانه لا يخلو احد من جار او معامل او حمم او صاحب ، او رفيق او سكن او حدث أو صديق او الىف ، او قريب او بعيد او ولى او جا ط كما لا يخلو انساً من عدو او كاسح او مداج او مكاسف ، او حاسد او سا ب ، او ماوى او مردٍ ، او معاند او معاند ، أو مرل او مصل او معل وقد قال الاوائل الانسان مدنى بالطبع ، وسان هـذا انه لا ند له من الاعانه والاستعانه ، لانه لا يكمل وحده لجمع مصالحه ، ولا يستقل بجميع حوائجه ، وهذا ظاهر ، و اذا كان مدنياً بالطبع كما قـيل ، فالواجب ما يعرض فى اصعاف ذلك ن الاخذ والعطا ، والمحاوره والمجاوره ، والمخالطه والمعا سر ، ما يكون سبباً ا طا الحال ، او يكون سبباً لانتشار الامر ، ولا محاله ان هـذه واشباهها مص ه با اس الى حمله ما بعه هؤلاء الذين روينا نطمهم ونثرهم ، وكذا حورهم و ا صافهم ، وذلك أعلى فنون ما قالوه ونظروه ، وعيون ما ذكروه ونشروه ، ويروى فى هذا الموضع عمه اسات و ان عنّ ىء حكمناه ، وعاق الرساله فانها اذا طالت أنعصت ، و اذا أنعصت هجرت اهـ

وهـذا النموذج الذى اوردناه من الصداقه والصد ق كافٍ فى الحكم على

(١) ملق الود لم يخلصه

أسلوبه والروح الذي نزع إليه في تأليفه ، وملاحظة التوحيدي على أسلاف المتصوفين في العلم ، والتمثل بصداقة أستاذه أبي سليمان المنطقي وصداقة ابن سيار القاضي ، ووصف أبي سليمان وصفاً دقيقاً للصلات التي عقدت بين قلبيهما ، ثم ابداعه في وصف طبقات الأصدقاء ، كل ذلك من جميل الوصف ، وإلى اليوم ما أجمل هذا التقسيم ، وإن رأيت الوفاء والصداقة في النادر الشاذ وفي أبدع الصفحات وصف غربته في أمته ، غربة الفكر والاجتماع والنحلة والخُلُق والعادة ، ولا بدع فهو من جيد الوصف في نفسية أهل عصره ، ومنزلة أهل العلم من جهة الغاغة[1] من أجمل الاعتذار اعتذاره عن طول هذه الرسالة علماً منه أن مكاتبة الكتاب عادية لا تسعه ، ولكن إذا فص الحال بالنطق بل اضطر المؤلف إلى إطلاق عنان بيانه

***

وفي كتاب الصداقة والصديق مثال من مجالسهم وهو قوله : رأيت ابن سعدان ينشد يوماً وقد أنكر شيئاً من بعض الندما

عذيري راح في ثوب الصديق　　شريك في الصَّبوح وفي الغَبوق[2]
له وجهان ظاهره ابن عم　　وباطنه ابن زانية عقوق
يسرك ظاهراً ويسوء سراً　　كذاك يكون أبناء الطريق

وأنا أسمي لك ندماءه ، وأروي كلاً ما له ووصفهم به : منهم أبو علي عيسى ابن زرعة النصراني المتفلسف ، وابن عبيد الكاتب ، وابن الحجاج الشاعر ، وأبو الوفاء المهندس ، وابن بكر ، ومسكويه ، وأبو إسحاق الأهوازي ، و[illegible]

(١) أصل معنى الغوغا الجراد بعد أن ينبت جناحه أو إذا انسلخ من الألوان وصار إلى الحمرة وهي سنة التعرض ولا يعض لضعفه وبه سمي الغوغا من الناس وهم السفلة خفيفهم كالغاغة

(٢) الصبوح ما يشرب في الصباح والغبوق ما يشرب في العشي

بهرام بن أردشير وكان اوربهم عنده ، وألصقهم بقلبه ابن شاهويه هؤلا أهل المجلس سوى الطارس من اهل الدوله لا فائده فى ذكرهم قال زيد بن رفاعه وكان فريباً له من جهه الخوف له (؟) رأيت الوزير اليوم يصف ندماه بكلام يصلح ان يكتب على الاحداق ، و يعرض على اهل الآفاق ، لينتفع به الصغير والكبير قال أصحابى طرائق قدد[1] ، كما قال عبد الحميد الكاتب الناس اخياف مختلفون ، وأصناف متباينون ، فمنهم عِلق[2] مضنة لا يباع ، ومنهم غُل[3] مظنه لا يبتاع وكما قال الآخر

الناس اخياف وشتى فى الشيم وكلهم يجمعهم بيت الأدم

فاما ابن زرعه فكثره بالحكمه ، وحلاوه بالثروه ، قد قدحا فى حاق[4] عقله ، وهو لا يحس بذلك القدح ، فليس لنا منه اذا جالسنا الا التبجح والتعظم ، والتهويل بارسطاطاليس وافلاطون وسقراط و بقراط وفلان وفلان ، ومجالس الشراب تنحاش عن هولاء ، وهؤلا يخلون عن مجالس الشراب يا نائم يا غافل يا ساهى ، واين انت من هولا الحكما القدما ، اشتريك بتريم ، اخالك خالهم ؟ انما تدعى عقائدهم باللسان ، وتنتحل اسماءهم باللفظ ، فاذا جاءت الحقيقه كنت على البسط تلعب بالرمل ، ولولا انه يكدر هزل جدنا بجد هزله ، لكان محمولاً مقبولاً ، ولكنه يابى الا ما الفه ، واقاد المران عليه

واما ابن عبيد فكلفه بالخطابه والبلاغه والرسائل والفصاحه قد طرحه فى عمق لج لا مطمع فى انقاذه منه ، ولا طريق الى صرفه عنه ، هذا مع حركات

(١) طرائق قدد فرق مختلفه أهواؤها
(٢) النفس من كل شئ ج أعلاق وعلوق
(٣) شىء من جلد او حديد يجعل فى عنق الاسير ومنه قيل للمرأه السيئة الخلق غل قمل
( ) وسط عقله

عبر مساسه ، وشمائل عبر دمسه ، ومساطرة محلوطه بدله اهل الدمه ، ودالة اصحاب الحجه

واما ابن الحجاج فقد جمع بين حد القاصي أبى عمر فى جلسه وحدسه وقيامه وتحطئه ، مع حياء كانه مستعار من العانسه الشريفه ، وبين سخف سمره الذى لا يجوز ان يكون لراويه مروءة به فيكشف لمائله ، فنحن اذا نظرنا اليه تخيلنا صوره سخف شوهاء ، فى صورة عمل حسناء ، ولا تخلص هذه من هذه ، ولا حرم اجتماعنا به ، فاصرعن مرادنا منه ، ودونه مما نات عن مراده له

أما الرياء فهو رالله ما نعهد به عن المؤانسه الطيبه ، والمساعدة المطربه ، والمفاكهه اللذيذه ، رالموانا السهمه ، الا ان لفظه حراسانى ، واشاريه ناقصه ، هذا مع ما اسنمادة بعمامه الطويل ببغداد ، والبغدادى اذا « يحرس » كان احلى واطرف من الخراسانى اذا « يبعدد » وان ست فصع الاعسار على من اردت فانك تجد هذا القول حقاً ، وهذه الدعوى مسموعه

واما مسكويه فانه يسرد بدمامه خُلقه ما يكلفه من تهذيب خُلقه ، وا كره له المساعه فى كل ما يجرى ، لا يجد فى نفسه من المكانه والقرار ما يعلم معه ان مصاءه فى فن هو فيه طويل الذيل ، مديد السبل ، لا يادن له فى ، اطى فى آخر هو فيه قصير الباع ، بليد الطبع ، وصاحب هذا الراى كريه ، مصاب بحمد رايه وقد افسده قال الهلبى ، قال ابن العميد ، وفعل ابن العميد ، وما يكره لهذين الا استطاله على الحاضرين ، والتسمع بذكر الرجال واضع من قدر الرجال

واما ابن بكر فهو نعمه المجلس ، ولا بد للدار ان كانت قورا [1] من

---

(١) اعور اسعه

محـ ح ، وهو مخمله ، مع حمه رحه رقيح وجهه ، ادخل فى العس ، والصق بالقلب من عىره ، مع علمه و مل روحه ، وحسن طاهره

واما الأهوازى ابو القاسم فلا حلاوه ولا مراره ، ولا حموصه ولا ملوحه ، وانما هو كالبصل فى القِدر ، وكالإصبع الزائد فى اليد ، على انا برعى و ه حماً قديماً ، ر رحمه الآن رحمه حديثه

وأما سيدى ابو سعد فوالله انى لاحد به وحداً ابهم و ه ء ى ، وما وحدت ألم سهر معه قط ، و انى ارى حديثه آنق من الملى اذا أدركت ، و ں الد ما اذا مُلكت و ان عارَضَنا بالعقل والروح ، والراى رالتدبير ، وا طر والاراد ، والاحسار والعاد ، لبربد على حال بوا س راكضا فى رحم ، وبراضعا من بدى ، وبوعيا فى مهد ، وما احوفنى ان نؤتى من جهتى ، او أُوتى من جهته ، و ان عاقبته موصوله بعاقبتى ، لانى مأمنه وهو ا ى ، ما اكثر ما يوتى الانسان من مامنه ، والله المستعان

واما ابن ساهوبه فسبح لبس لنا فيه فائده الا ما يلقى المنا ب محاربه ومساهداته ، ولولا زيادته الى نصمع ـ ـا من مسه ، ربعص ں حطراته ، لكان هَذك[1] من رجل ، ولكن من لك بالمهذب ، الم نقل الاول اى الرجال المهذب

قال ز د ں رفاعه قلب ايها الوزير ان طلوعك فى خبايا ضمائرهم ، وعلمك بخفايا سرائرهم ، نطالبانك بالافراج عنهم ، وقله الاكبراب بهم ، قال لا ء ل والله ما لهذه الجماعه بالعراق سكل ولا نظير ، رانهم لاعيان اهل الفضل ، وساده دوى العقل ، و اذا خلا العراق منهم فرن[2] على الحكمه المروبه ،

(١) هذك حسك

(٢) البرس تسويد مواضع فى الحسابات بما يوهم انها بيضت كى لا يقع فيها حساب

والأدب المهادَى ، أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحد من هؤلاء ، أو لا تعدو
أن جميع أصحاب ابن العميد يسهون أقل من فيهم ؟ قال قلت هذا ابن عباد
بالري وهو من تعرف وتسمع قال ويحك ! وهل عند ابن عباد إلا أصحاب
الجدل الذين يسعون ويحمون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح ويقول قال
شيخانا أبو علي وأبو هاشم ، دعنا من حديثه وعنايته وسعديه ، فما أحب أن
أزيد في وصفه على ما أسرفت فيه ، والله لو تصدى إنسان متوسط في العلم
والأدب والحكمة والإنصاف لذكر سائه وسيرته ، ووصف حاله وطريقته ، لحكى
كل غريبة ، وأتى بكل أعجوبة الرجل محدود ، وفي زمرة أهل الفضل معدود

قال ورب هذا الخبر على ما أنهي ركب أطلب له مكاناً منذ زمان فلم
أجد إلا هذه الرسالة الآخذة على حديث الصداقة والصديق اهـ »

عرفنا بهذا الضرب من التدوين طبقة راقية من الأدباء في عصر أبي حيان
وما غمرهم به العاصرون ، وأتى مساويهم المعاصرون ، ولو كتب لنا الاطلاع على
جميع ما كتبه أبو حيان في كتبه لجانب السلسلة بأنه من كل وجهة في الحكم
على أهل القرن الرابع في بغداد ، ولا تدل الحكم عليهم وناقضت أحكامه أحكام
بعض من تلوا تراجمهم ، كأنما حكم مُسَمَّط[1] لا نقض

في مقدمة كتابه غراب الـ لو « أطال الله بقاءكم ، وأدام كرامتكم
وحرس نعمه عليكم ، وحفظ مواهبه لديكم ، ولا أخلاكم من عوائده الحسنة
وفوائده الكريمة ، فعل حظ العبد ... السلامة بينكم ، إذا فاتته الغنيمة منكم ،
وقد كان يقال من لم يصب لنفسه ناصراً ، لم يحسب لمن جانبه ... عمراً ومن
لم يقف عند العظيمة متصبحاً ، لم يرح عند النوائب متسعاً ، ومن لم ... ومن

(١) حكمك مسمطا أي ممضى أي لك حكمك مسمطا

الفدع فى عرصه آنماً ، لم ىت على الحسف الا راصناً ، والعصب و ان كان مدموماً عىـد ىعص الحلال ، فاىه محمود فى ىعص الاحوال ، وكما ان اسىمرار العصب فى حمىع الاحوال ، ىوع من فساد الاحلاق ، كدلك أىصاً الرصا فى حمىع الأمور ، صرب من صروب الىفاق ، ولا ىد من الىملب ىىں الرصا والعصب ، كما اىه لا ىد من الىردد ىىں الراحه والىعب

« وفد كىب احب لصدىفى وحلىسى ، ومن ىاىس ىمكاىى ، ان لا ىحمل اللَحاح مطىىه ، والَمحل[1] والمـكر طو ىىه ، فان دلك احسں له عىد الله ، وار ں له عىد الىاس ، ومن ىعد دلك فاىى لم ارد ىلادكم من العراق مىاهىاً لـكم ، ولا حصرب مجالسكم طاعىاً فىكم ، ولا ىاحرب عىكم مىطاولاً علىكم ، ولا ىا ىب مساوىكم ساىىاً ىكم ، ىل وردب مسىعىداً ومعىداً ، و ىاحىاً و ىسىر ىداً ، فما هدا الدى ىلعى عں ىعصكم ، على حسں ىوفرى على صعىركم وكىىركم ، اما اىه لو اىصف لعلم اىى الى ىسمحه ، احوح مىى الى ىصعحه ، وهو ىىحاملىه اسعد مىى ىحادلىه ، راىا لاحساىه ، اسكر مىى لامىحاىه ، وهدا ىاب ىاطىه طاهر ، وساهده حاصر ، رحمىه حلى ، ولـكں ما اصىع والساعر ىعول « اىما لا ىد ما رزقا »

« رلعمرى ما رال الىاس ىىادرں الىفادف والىفارف ، ولـكں كاىوا ىرون الىساعى والىىاصف ، ولا ىىىاسون ىىىهم الىعاون والىوارر ، والىرادف والىىاصر ، رالدى هاحى لهده السكوى ، واحوحىى الى هده العدوى ، فول فا ل مىكم ، لىس للمىطو مدحل فى الفىه ، ولا للفلسفه اىصال ىالدىں ، ولا للحكمه ىاىىر فى الاحكام ، وهدا كلام مں لو اىعم الىطر ، واىىه مصى الحال ، لوفف على ما علىه وىه ، رعرف ماله مىه فىكان ىسىدل ىالحلاف وفاقاً ، و ىالمىارعه حلاقاً[2] ،

(١) المحل المكر والكىد (٢) الحلاق كىحاب الىصىب ، الوافر من الحىر

عاب هذا الرجل المنطق وهَجَّن طريقه الاوائل ، وزرى على الحكمة ، وفَيّل[1] رأي الناظر فيها ، وقبح اخبار الباحث عنها ، وهذا كله ان لم يكن لله سو محصل ، فانه يوشك ان يكون ضربا من تَطَنّ ، وحرج صدر ، ومجازفة في القول ، وانحرافا عن الصواب ، واماماً من الاعجاب الخ ، وربما نيل من عرض صاحبها ، والحق باللائمة عليه من اجلها ، وهو فيا لا يقصد الا الخير ، ولا اراد إلا الرشاد ، وقد يؤتى الانسان من حيث لا يعلم ، و يرمى من حيث لا يتقى ، كما يؤتى من حيث لا يحتسب ، و يسحو وقد اسى ، و يدرك وقد عاب الامس »

وعاد في آخر الرسالة يعتذر عن طولها « قد تكرر اعتذاري في طول هذه الرسالة ، وكان ظني في اولها انها تكون لطيفة خفيفة ، يسهل انتساخها وقراءتها ، فاجتذب شجون الحديث ، وترادف في الطيب والحديث ، فاقبل ، حاطك الله ، هذا العذر الذي قد بدأته واعدته ، ونشرته وطويته ، على انك لو علمت في اي وقت ارتفعت هذه الرسالة ، وعلى اي حال تمت ، لعجبت ، وما كان دليل في عينك منها يكبر في نفسك ، وما صغر منها ببلدك يكبر بعقلك » اهـ

* * *

والحق ان رسالته في الصداقة والصديق قد جمعت من آراء الناس الى عصره كل ما رق وراق من المنظوم والمنثور في موضوعه ولم يقتصر في ايراد ما على حكم الاسلاميين ، بل تعدى الى ايراد ما للفلاسفة يونان في الرسالة من رسائل الكتاب في هذا الباب ، ما هو معتمد على غير الاحباب ، وقد ذكر انا سبب المنطق وانا سعيد السيرافي عن مرة ومرة زرى عنهما ما دل على اعتقاده سيئة في مناسبته ولا مراء في ان رسالة الصداقة والصديق ، مرآة صادقة تنساب فيها

(١) فيل رأيه فتحه وخطّ

أفكار أربعة قرن فى هذا النوع الصغير من الادب ، ولمه حوب مثل هذه
الافكار رهد المعانى هى ولا سك اعى اللعاب بادبها ووفره مادبها واداتها
وهـذه الرساله على ما راساها كتبها ساعث لقوم لم يفهموا مقصده ن العلم ،
ونارلوا كلامه لحبهم عا كتب واحاد وجميع كتبه على ما طهر مما دعا الى
رصعه دواع حافره ، رامور حاش بها صدره ، فهى معموله بالمناسبات لا م مله ،
ولذلك حا ب عليها هذه الطلاوه التى تحسها و لمسها

من جمله كتب ابى حيان كتاب المقابسات ، واسمه صيغه تفاعل ن قاسه
او اقتبسه علماً وخبراً اى أن كلا اقتبس صاحبه علماً ، وصاحبه اقتبسه ن علمه
ذكر فيه ابو حيان ، وأ كثر من محفوظه ، بعض ما رفع اليه ن ماوصاف
علماء مشهورين ، كانوا فى بغداد يختلفون الى مجلس صديقه وأستاذه ابى سليمان
المنطقى محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى ، وعنه ا كثر مرويانه ، و يتذاكرون
فى موضوعات شتى فى الفلسفة او ما وراء الطبيعه والادب وا كثرها على طريقه
السؤال والجواب ، لرجال جمعت بينهم كلمه العلم والحكمه ، وهذبت نفوسهم
الآداب العاليه ، يتناجون بالافكار الصحيحه والساده ، ولم يفرق بينهم اختلاف
نحلهم ومذاهبهم وكان فيهم المجوسى والصابى واا ه ى والنسطورى والملحد
والمزلى والشافعى والسنى امثال ابى زكريا يحيى بن عدى وابى الفتح النوشجانى
وابى محمد المقدسى العروضى وابى بكر القومسى وعيسى بن زرعه الرومى وابن
بغداد وأبى القاسم الانطاكى ، وكان يعرف بالمجتبى ، وابى محمد الاندلسى ا بحوى
وابى اسحق الصابى والخوارزمى الكاتب ووهب بن ، اس الرقى وابن سـوار
وماى المجوسى وابى الحسن محمد بن يوسف العامرى وعبد الكاتب والدبهى
رابى اسحق النصيبى وابى على عيسى بن زرعه المنطقى و طهر الكاتب وابى

الحطاب الكاتب وعيرهم « ں كل من هو واحد فى سأنه وفرد فى صناعته » ، وكان مذهبهم فى الفلسفه على الارجح مذهب ارسطاطاليس سأن معظم فلاسفه الاسلام ، امثال ثابت ں قره وحنين ں اسحق و ىعقوب ں اسحق واحمد ں سهل البلخى ومسكويه والعمى والسرخسى والنيسابورى طلقون فى جلساتهم الخاصه عنان افكارهم ، و يحرجون عن القيود الكنسيه قاصدين الى هدف راحد ، رهو ... حقا و الاسما مجرده لا سوبها المؤثرات سان علما الا ... الاخيره ... اذا اخذت تعريف كتاب المقابسات بمصطلح اهل هذا العصر فهل هو محصر جلسات المجمع العلمى البغدادى فى القرن الرابع ، وكان لا يحضرها الا من يدعى اليها ، و يوافق من اكثر الوجوه على ما ابى فيها

وهذه المجامع مثال ناطق بافصح بيان بان النصرانيه لم تكن مضطهده فى العهد العباسى كما زعم بعضهم ، بل ان الاسلام كان دين الدوله ، والبلاد لاهلها ، فكانت بحكم الطبيعه كلمه المسلمين هى العليا ، وقد ساووا عامه اهل المذاهب بانفسهم ، مساواه لم يصل اليها اكثر دول الحضاره الحديثه اليوم

وعلى ذكر هذه المجالس لا باس بان يقول ان علماء العرب ما رحوا مذ الاعصر المتطاوله ىالفون و يعاشرون فى انديه لهم خاصه ، يجمعهم حب الاعمال العقليه ، فيتبارون و ان اختلفوا فى مظاهرهم ، وقد لا يجالس الر ... علمه من يبهم ، يفسح صدر مجلسه لهم ، يستطلع طلع افكارهم ، و ... و ياسرں به ، و يعطف عليهم و يعطفون عليه وقد يكون مجالسهم ... لها من اهل الدوله من يحميها ، او يكون للسمر والادب ... التأديب ومعظم ما ىىاهى البيا من اخبارها معقد

سئل ابو سليمان المنطقى لِمَ لم يصف التوحيد فى الشريعه ...

الظنون وأمثلة الألغاط ، كما صمنا دلك فى الفلسفه فقال إنا لا نظن ان كل
من كان فى زمان الفلاسفه بلغ غايه افاضلهم وعرف حقيقه اقوال متقدميهم ،
بل كان فى القوم من رأى رأى العامه ، وحط الى ما حطت اليه ، ولم ينل منهم
كبير شىء مع قدم الزمان ، ولقلة المحققين الفاضلين ، وهذا اذا خيل لا يكون
قادحاً فيما نقصصناه من القول فى حقائق الوحدة الذى ظفر به خلصان الحكمه ،
وفرسان الصناعه على أن الترجمه من لغه يونان الى العبرانيه ، ومن العبرانيه
إلى السريانيه ، ومن السريانيه الى العربيه قد اخلت بخواص المعانى
فى أبدان الحقائق اخلالا لا يخفى على احد ولو كانت معانى يونان تهجس[1]
فى انفس العرب ، مع بيانها الرائع ، وتصرفها الواسع ، وافتنانها المتحير ،
وسعتها المشهورة ، لكانت الحكمه تصل الينا صافيه بلا شوب[2] ، وكاملة
بلا نقص ، ولو كنا نفقه عن الاوائل اغراضهم بلغتهم ، كان ذلك ايضاً نافعاً
للغليل ، وناهجاً للسبيل ، ومبلغاً الى الحد المطلوب ، ولكن لا بد فى كل علم
وعمل من بقايا لا يقدر الانسان عليها ، وخفايا لا يهتدى احد من البشر اليها ،
وذلك للعجز الموروث عن الهيولى ، والضعف النابت فى الطبيعه الأولى ، وهذا
لكى يكون الله تعالى ملاذاً للخلق ، ومعاذاً للعالم

قال ابو حيان لابى سليمان ما الفرق بين طريقه المتكلمين و بين طريقه
الفلاسفه ؟ فقال ما هو ظاهر لكل ذى تمييز وعقل وفهم ، وطريقتهم موسسه
على مكايله اللفظ باللفظ ، و موازنه الشىء بالشىء ، اما بشهاده من العقل مدخوله ،
و اما بغير شهاده منه البته ، والاعتماد على الجدل ، وعلى ما يسبق الى الحس ،
أو يحكم به العيان ، او على ما يسنح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل

---

(١) هجس الشىء فى صدره خطر بباله (٢) الشوب الخلط

مع الالف والعاده والمنسإ ، وسار الأعراض الى نطول إحصاوها ، و سى
الانسان علها ، وكل دلك سعلق بالمغالطه والتدافع ، و اسكات الخصم بما اتفق ،
و اعام القول الذى لا محصول فيه ، ولا مرجوع له ، مع نوادر لا تلبق بالعلم ،
ومع سوء ادب كبير ، ثم ومع قله باله ، وسو دبانه ، وفساد دخله ، ورفض
الورع بجملة والفلسفه أدام الله توفيقك محدوده بحدود سبه ، كلها تدلك
على انها بحث عن جميعها فى العالم من ظاهر الحس ، وباطن العقل ، ومركب
بينهما ، ومائل الى حد طرفيهما ، على ما هو عليه ، واستفاده اعتبار الحق فى
جملته وتفصيله ، ومسموعه ومرئيه ، وموجوده ومعدومه ، ى سر هوى مال به
على العقل ، ولا الف يعتبر معه حبابه التقليد ، مع احكام الا عمل الاختيارى ،
وتهذيب العقل الطبيعى ، وتحصيل ما بد وابعاب ، من غير ان يكون اوا ل دلك
موجوده حساً وعياناً ، وكان مجمعه عقلاً وبياناً ، ومع اخلاق الهيه واختيارات
علويه ، وسياسات عقليه ، ومع اسباء كثيره طول ذكرها و بدادها ، ولا تبلغ
اقصى ما لها من حقها فى شرفها

ثم قال وكان شيخنا يحيى بن عدى يقول انى لاعجب كثيراً من قول
اصحابنا اذا جمعنا واياهم مجلس نحن المتكلمون ونحن ارباب الكلام والكلام
لنا بنا كثر وانتشر ، وصح وظهر ، كان سائر الناس لا يتكلمون ، وانهم
اهل كلام ، لعلهم عند المتكلمين خرس وسكوت اما يتكلم نا و ا
والنحوى والطبيب والمهندس والمنطقى والمنجم الطبيعى والالهى والحديثى والصوفى
قال وكان يلهج بهذا وكان يعلم ان القوم قد اخذوا لا عسه أصلاً حتى
ما يدعونه محمولاً عليها ومستنداً الى غيرها وان كان ا ب يجرى عند
ومن جهتهم ، فصدقهم مره ، تعثر قصدك حرى

قال ابو حيان روى لابى سليمان كلاماً لبعض المتصوفة فلم يحكه ولم يهش عنده وقال لو قلت انا فى هذه الطريقة شيئاً لقلت الحواس مهالك ، والاوهام مسالك ، والعقول ممالك ، فمن خلص نفسه من المهالك ، قوى على المسالك ، ومن قوى على المسالك ، اشرف على المهالك ، مرقاً توصله الى الممالك قال أبو الخطاب الكاتب ايها الشيخ هذا والله احسن من كل ما سمع منهم ، فلو زدتنا منه ، فقال الحواس مصلة ، والاوهام مزلة ، والعقل مدلة فمن اهتدى فى الاول رشد فى الثانى ادرك فى الثالث ، ومن ادرك فى الثالث فقد افلح ، ومن ضل فى الاول وزل فى الثانى خاف ، ومن خاف فى الثالث فهو من الهمج واستزاده مطهر الكاتب البغدادى فاستعفى قال هذا حديث قوم اناخوا بنا على بعض المشاكلة الى ان قال فسبحان من له القدرة وهذه الحكمة ، وهذه الاسرار فى هذه الطريقة اه

على هذا النحو كانوا يمضون فى احاديثهم ، فقد صرح احدهم عما يراد فى التصوف فلم يحط منه ولا من المتصرفين اليه ، وتناول آخر المتكلمين فى شعر ما يدلس ويتأدب معهم ، والمتكلم غير مسلم ، لكن العلم مباح لاهل كل مذهب ، لم يحمل كلامه على غير محمله وقال آخر فى الفلسفة ، وامتدح من معانى اليونان ، وقال لو كتبت باللسان العربى لكانت غيرها ، وهذه هى الحرية المطلقة ، ولولاها ما عاش علم صالح ، ولا انتعش عمل راجح ، ولا كانت حضارة هذه الامة مما يرفع به الرؤوس ، وينال فيها على الدهر لا عطر بعد عروس

قال فى مقدمة كتابه الاشارات الالهية مخاطباً النفس اللهم انا سألناك ما نسأل ، لا عن ثقة بنقاص وجوهنا عندك ، واقعالنا معك ، وسوالف احساننا قبلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعاً فى رحمتك الواسعة ، ثم وعن

بوحيد لا يشوبه اشراك ، ومعرفه لا يخالطها انكار ، وإن كانت أعمار قاصره عن غايات حقايق التوحيد والمعرفه ، نسألك أن لا ترد علينا هذه النعمه بك ، فتشمت بنا من لم تكن له هذه الوسيله اليك ، يا حافظ الاسرار ، ويا مسبل الاستار ، ويا واهب الأعمار ، ويا منشى الاحجار ، ويا مولج الليل فى النهار ، ويا مصافى الأحرار ، ويا مدارى الاسرار ، ويا ممهد الأوزار ، من النار والعار ، عد علينا بصفحك عن زلاتنا ، وانعشنا عند سابغ صرعاتنا ، وحطه حالنا معك فى اختلاف سكراتنا وصحواتنا ، وكن لنا وان لم نكن لانفسنا ، لانك اولى بنا ، واذا خفنا منك فارح[1] خوفنا منك رجاءنا ولك ، واذا علب علينا باسنا منك فعلقه بالامل فيك

ومن فصوله فيه ايها المحارز ، والصديق المجارز ، كيف اتكلم ، والفؤاد هائم فى كل واد ، والخاطر جال من كل حاد وهاد ، ام كيف اسكو والسر ظاهر باد ، ام باى سبب اتعلل وكل ما اجد مردد ومعاد ، ام على من اعتمد ، وكل احد اراه فهو لى ضد ومعاد ، انفاسى محترقه بالحسرات ، ودموعى مترقرقه بين العبرات والزفرات ، وكبدى مشتعله على المناظر والهيئات ، وبعطى جاريه على الرسوم والعادات ، واحلامى عاريه من كل ما له حاصل وثبات ، ونفسى رهينه بالسيئات ، مفتونه بالحسنات ، بالسوانح والخطرات ، ممنوعه عن الحسنات والصالحات ، الجهات دونى منسده ، والوجه امامى مسوده ، ان قلت فقلى هذا زور وبهتان ، وان اسررت فقيل هذا غرور وعدوان ، وان سكت فقيل هذا سهو ونسيان ، وقلت من ابتلانى بما لا طاقه لى به ، رحمنى بما لا غنى لى عنه ، او لست من طردنى عن بابه ، اهلى ا مانه ، او لست من حرمنى من فراقه

[1] ارجح اراه

أخطر على بالى حلاوه لمائه ، أو لست من غمسنى فى بحر البلوى ، طرحنى الى ساحل المنى ، أو لست من خطى عن درجه المخدومين رقانى إلى مقامات الخدم

وقال من رسالة أيضاً حرام على قلب اسشار نور الله ، أن يفكر فى غير عظمه الله ، حرام على لسان تعود ذكر الله ، أن يذكر غير الله ، حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا لله ، أن يدنس بشىء من مخالفه الله ، حرام على عين نظرت الى مملكه الله ، أن يحدق الى غير الله ، حرام على كبد أسلت بالنعمه بالله ، أن تطمئن الى غير الله ، حرام على من لم ير الخير الا من الله ، أن يجدد طمعاً فى غير الله ، حرام على من شرف بخدمه الله ، أن يضع بخدمه غير الله ، حرام على من ألف فناء الله ، أن يعرج الى غير الله ، حرام على من تلذذ بمناجاه الله ، أن يناجى غير الله ، حرام على من ربع فى نعمه الله ، أن يعبد غير الله

ويحسب أن رُمى من يقول هذا القول فى العزه الالهيه بالزندقه ، ويتهم بالمروق كأن كل هذا الاحسان لا يكفر سيئه لانسان ، وكل هذا التقديس والتوحيد ، لا ينجى صاحبه من الوعد والوعيد ! قال شمس الدين انه كان شيخ الاعتقاد ماه الوزير المهلبى ، وقال غيره مات فى الاستتار ، وساق ابن ابى الحديد فصولا من كلام ابى حيان وغيره[1] لها يقوله « ومن الدعوات الفصيحه المستحسنه » وهى برهان آخر على توحيده ، وان نفسه كانت تجرد من الكثافه وهذا هو وجه الغرابه فى حياه التوحيدى جمع كل صفات العلماء ولم ينفعه شىء من فضائل النفس والدرس قال « اللهم انى ابرأ من النعمه

(١) جعل له عنوانا

الا بك ، ومن الامل الا فيك ، ومن التسلم الا لك ، ومن التفويض إلا اليك ، ومن التوكل الا عليك ، ومن الطلب الا منك ، ومن الرضا الا عنك ، ومن الذل الا فى طاعتك ، ومن الصبر الا على بلائك ، واسألك أن تجعل الاخلاص قرين عقيدتى ، والشكر على نعمك شعارى ودثارى ، والنظر إلى ملكوتك دابى ودبدنى ، والانقياد لك شانى وشغلى ، والخوف منك أمنى وايمانى ، واللياذ بذكرك بهجتى وسرورى ؛ اللهم تتابع برك ، واتصل خيرك ، وعظم رفدك ، وتناهى احسانك ، وصدق وعدك ، وبرّ قسمك ، وعمت فواضلك ، وتمت نوافلك ، ولم تبق حاجة الا وقد قضيتها او تكفلت بقضائها ، فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة ، إنك اهل ذلك ، والقادر عليه ، والملى به »

ومنها اللهم انى اسالك جَدّاً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملا عريّاً من الرياء ، وقولا موشحاً بالصواب ، وحالاً دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مضروبة فى سلامة صدر ، وراحة جسم راجعة الى روح بال ، وسكون نفس مرصولاً بثبات يقين ، وصحة حجة بعيدة عن مرض شبهة ، حتى تكون غايتى فى هذه الدنيا موصولة بالأمل فالامثل ، وعاقبتى عندك محمودة بالافضل فالافضل ، مع حياة طيبة انت الواعد بها ، ونعيم دائم انت المبلغ اليه ، اللهم لا تخيب رجاء هو منوط بك ، ولا تنشر[1] كفاً هى ممدودة اليك ولا تذل عزاً منعته بعصمتك ، ولا تبذل نفساً هى سرّه بمعروفك ، ولا تسلب عقلاً هو مستضىء بنور هدايتك ، ولا تخرس لساناً عودته الثناء عليك ، فكما كنت اولاً بالتفضل فكن آخراً بالاحسان ، الناصية بيدك ، والوجه عانٍ لك ، والخير متوقع منك ، والمصير على كل حال اليك ، ألبسنى فى هذه الحياة البردة السابغة حتى

(١) ص ا و ست احد كف

فى تلك الدار الباقيه بر بسه الامن ، واقطع نفسى عن طلب العاجله الزائله ، وأجرني على العاده الفاضله ، ولا تجعلنى ممن سها عن باطن مالك عليه ، بظاهر مالك عنده ، فالشقى من لم ياخذ بيده ، ولم يؤمنه من عده ، والسعيد من آويته الى كنف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقش فى الحساب ، ولا سائق له الى العذاب ، فانك على ذلك قدير

***

وهذه النبذه من مقدمه كتاب البصائر والذخائر قال انه اودع كتابه جميع ما فى ديوان السماع وريب ما احاطت الروايه به ، واستملت الرويه عليه ، منذ عام خمسين وثلثمائه الى سنه خمس وسبعين وثلثمائه مع توخى فصار ذلك دون طرائه ، وسمينه دون غثه ، ونادره دون فاسده ، وبديعه دون معتاده ، ورفيعه دون سفسافه قال ان القارى سيشرف به على رياض الادب وثمار العقول ، من لفظ مصون ، وكلام سرى ، ونثر مقبول ، ونظم لطيف ، ومثل سائر ، وبلاغه مختاره ، وخطب محبره الخ ، وجمعه من كتب ابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وابن الاعرابى والمبرد والصولى وابن عبدوس وقدامه وغيرهم

من اهم ما حواه كتاب البصائر ، مناظره ابى بكر الصديق مع على ومبايعته اياه ، وقد اقتبس العلماء هذه الرساله ، ومنهم من عزا التوحيدى وابن منه بانه هو واضعها ، مثل ابن ابى الحديد فى شرح نهج البلاغه ، ومنهم من اكتفى بروايتها مثل محيى الدين بن عربى فى المسامرات وبعيد عن العقل ان يصنع التوحيدى هذه الرساله وهى بعيده عن أسلوب كلامه ، وان احب ابن ابى الحديد ان يتهمها به اما التوحيدى فرواها عن رجل معروف كان يحفظها فقال سمرنا ليله عند القاضى ابى حامد احمد بن بشر المروروذى ببغداد بدار ابى حسان فى

سارع المارنان ، فمصرف الحدث بنا كل منصرف ، وكان ابو حامد معماً مخولاً
مخالطاً مزيلا[1] غزير الروايه ، لطيف الدرايه ، له فى كل جو متنفس ، وفى كل
نار مقتبس ، فجرى حديث السقيفه وشان الخلافه ، فركب كل منا مركباً ، وقال
قولا ، وعرض بشىء ، ونزع الى فن ، فقال ابو حامد هل فيكم من يحفظ
رساله أبى بكر الصديق الى على وجواب على له ومبايعته اياه عقيب تلك المناظره ،
فقالت الجماعه التى بين يديه لا والله ، فقال هى من درر الحقاق[2] المصونه ،
ومخبآت الصناديق فى الخزائن المحروسه ، ومنذ حفظتها ما رويتها الا للمهلبى أبى
محمد فى وزارته ، فكتبها عنى فى خلوه بيده وقال لا اعرف على وجه الارض
رساله اعقل منها ولا ابين ، وانها لتدل على علم وحكم ، وفصاحه وفقاهه ،
ودها ودين ، وبعد غور ، وشده غوص فقال له ابو بكر العبادانى ايها
القاضى فلو اتممت المنه علينا بروايتها ، وسمعناها ورويناها عنك فنحن اوعى
لها من المهلبى ، واوجب ذماماً عليك الخ

وبعد ان اورد التوحيدى هذه الرساله العجيبه قال روى لنا هذا كله
أبو حامد ، ثم اخرج لنا اصله فقابلنا به ، فما كان غادر منه الا ما لا بال له ، فاما
ما رواه لنا ابو محمد صور الكتاب فانه خالف فى احرف فى حواشى الكتاب كل
حرف بازائه طغره الذى هو مبدل منه وقد كان ابو محمد بن لمعه العرب تحير
فى غرائبها اعمد ، واما قدمت روايه ابى حامد لانه سابق السر به اعلا ،
ولاعاجيبها احفظ ، وفيما استكل منها افقه فلما بالجمله والدلالة كلها ولله الحمد

---

(١) المعن الذى يتصرف فى المعانى ، والمعن الذى يضرب فى كل فن واحد بل بكسر
الميم الا على الكيس اللطيف ، قال هو مخلط مزيل كما يقال هو راتق فاتق ، وقد يكون يعنى به
كثير المخالطه للناس والمزايله لهم

(٢) الحقاق جمع حقه ، وهى محبس به طيب وجوهر

الرسالة لىست من صىع ابى حىان ، وأىها كاىب معروفه فىله ، و ادا ابى ىعصهم الا ان ىعول إىها موصوعه كلها أو ىعصها فىكون دلك فىل عصر البوحىدى ىكثىر ، وهى على كل حال لا ىخلو من اصل رىما رىد علىه ىاىدى من احد واان ىىادلوا الفره ىثلها من أهل السىه ، فارادوا ىكاىه الشىعه فى كىىر مما صىعوه ، فرادوا أموراً فى هده الرساله وقعىت ىىن الصحاىه أو ىعلوا وقوعها

والرساله من حمله ما ىحب على الادىب ان ىسىطهره و ىعىه ، لاىها حوت من اسالىب البلاعه كل حمىل ، وفىها من الامىال والحكم وصروب الدها والحلابه ما ىعحب مىه ، ولا ىرال علىها مسحه من الحلاوه والطلاوه مهما طال ىها العهد

وهاك حمله فلىله من الرساله قال ابو ىكر لابى عىىده امص الى على واحفص له حىاحك ، واعصص عىده صوىك ، واعلم اىه سلاله ابى طالب ، ومكاىه ممن فقدىا بالامس مكاىه ، وقل له البحر مرفه ، والىر معرفه ، والحوا كلف ، واللىل اعدف ، والسما حلوا ، والارض صلعاء ، والصعود معدر ، والهبوط مىعسر ، والحق عطوف رووف ، والباطل ىسوف عصوف ، والعحب معدحه الشر ، والضغن رائد البوار ، والىعرىض سحار الفىىه ، والقحه ىعوب العداوه ، وهدا الشىطان مىكئ على شماله ، مىحىل ىمىىه ، ىافح[1] حصىىه لاهله ، ىىىطر الشىاب والفرقه ، وىدب ىىن الامه بالشحىا والعداوه ، عباداً لله ولرسوله ولدىىه ، ىوسوس بالفحور ، وىدلى بالعرور ، وىمىى اهل

(١) الارض الصلعا التى لا ىىات فىها ، والحلوا المصححه ، واعدف اللىل أظلم ، والأكلف الاعىر ، والمفرفه من الفرق وهو الفرع ، والمعرفه ىعرق فىه ، والعصوف الرىح الشدىد ، والسوف الطوىل الساق الدى ىىسف صاحىه ، ومن المحار ىىى وىىىه عقىه ىسوف طوىله سافه ، والسحار ككىاب حىىه ىوصع حلف الباب ، الضغن العداوه ، والىعوب ما ىشعل ىه النار من دقاق العىدان وىحوها ، والىافح الرافع

السرور ، و يوحى إلى اوليائه زحرف القول بالباطل ، دأباً له مىد كان على عهد أبينا آدم ، وعادة له مىد اهابه الله عز وجلّ فى سالف الدهر

ولقد ارسدك من اياء صالبك ، وصافاك من احيا ودبه معتابك ، واراد لك الحير من آ ىر السماء معك ، ما هدا الدى يسول لك يفسك ، و يدوى فلدك ، و يلوى عليه رأيك ، و يحاوص دونه طرفك ، و يسسرى به صعمك ، و يىراد معه يفسك ، ويكبر معه صعداوك ، ولا يفص به لسانك ، اعجمة بعد افصاح ، البلدس بعد ايصاح ، ادين عير دين الله ، اخُلق عير خلق القرآن ، اهدى عير هدى النبى صلى الله عليه وسلم ، امثلى يمسى له الصراء ويدب له الخَمَر ، ام مثلك يعص عليه القصا ، او يكسف فى عيمه القمر ، ما هده القعقعة بالشنان[1] ، وما هده الوعوعة باللسان

والآن قد بلغ الله بك وارهص الحير لك ، وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم اقول ما تسمع ، فارتقب زمانك ، وقلص اردانك ، ودع التحسس والتعسس ، لمن لا يظلع لك اذا خطا ، ولا يتزحزح عنك اذا عطا ، فالامر غض ، والنفوس فيها مض ، وانك اديم هده الامة فلا تحلم لجاجا ، وسيفها العضب فلا ىىب اعرجاجا ، وماوها العذب فلا تحل اجاجا ، والله لقد سالت رسول الله عن هدا الامر فقال لى يا ابا بكر هو لمن يرغب عنه ، لا لمن يرسب فيه ، ولمن يتضاحس عليه ، ولمن تصاءل عنه ، لا لمن ينتفج اليه ، لمن يقال هو لك ، لا لمن يقول هو لى ،

---

(١) اقا ارجع ، ويراد مثل يردد ، والتحاوص عوور ابصر مع الاحداق كانه يقو سمه ويدوى به قلبك اى يفسد من دا ، والصعدا النفس العالى فى التعب والهم ، والصرا سحر الملتف فى الوادى ، والخمر الشجر الملتف ايضا ، يقال للرجل اذا ختل صاحبه هو يدب له الصرا ويمشى له الخمر ، والقعقعة حكاية أصوات السلاح والجلود اليابسة وغيرها ، والشنان جمع الشن بالكسر وهو الجلد اليابس تحرك للابل لتفزع ، وفى المثل ما يقعقع له بالشنان يضرب لمن لا يخدع ولا يروع

والله لقد ساورني رسول الله في الصهر فذكر فتياناً من قريش ، فقلت له أين
أنت من علي ، فقال إني لأكره لفاطمة ميعة شبابه ، وحدة سنه . فقلت
متى كنفته يدك ورعته عينك ، حفت بهما البركة ، واسبغت عليهما النعمة ، مع
كلام كثير خاطبته به رغبة فيك ، وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاً ولا
لوجاء ، فقلت ما قلت ، وأنا ارى مكان غيرك ، واجد رائحة سواك ، وكنت
لك اذ ذاك خيراً منك الآن لي ، ولئن كان عرض بك رسول الله فقد كنى عن
غيرك ، وان كان قال فيك فما سكت عن سواك ، وان تلجلج[1] في نفسك
شيء فهلم فالحكم مرضي ، والصواب مسموع ، والحق مطاع

قراءتنا في صفاء الوجدان

اطمأنت نفسنا حاجة النفس في نقل صورة الوجدي نقلاً إن لم تكن طابق
الاصل فهو قريب منه ، بعد اقتباسنا درراً من كتبه ورسائله ، استنتجنا منها
ما انطوت عليه نفسه من الجوانح ، وقلبه من الزوايا ، وما تقلبت فيه من
البأساء والضراء ، وكيف لم تقعد به الهمة عن الاخلاف الى العظماء ، والاخذ
عن العلماء ، وعرف مكنونات الصدور وعلمنا في كلامه سلامة الفكر والابداع
فيه ، وسلاسة الانشاء وتجويده أرأيتم هذا الإيجاد الذي تقف عنده العقول

(١) قال رجل في الامر استعجل فيه ، ومن المجاز ارهص الله فلانا جعله الله معدنا للخير قال فلان تعس الآثار أي تقصيها وتعس الفجور تتبعه وقلص أردانك تمر أكاملك ، والمص الالم ، والغص الجديد ، وطلع عرج ، وحلم الأدم والجلد إذا فسد في العمل ووقع فيه دود فتثقب ، وفي المثل كداعه وقد حلم الأدم ، تضرب لمن سعى في اصلاح امر بعد ان اوصله الفساد الى حيث لا يرجى إصلاحه ، حاجس حامى ودافع قال حاجس عن حفظ رفيقه أي نفسه وهو مثل قال الميداني أصله من الحجس الذي هو سحج الجلد ، قال اصابه شيء فحجس وجهه أي قشر فحجس سمعه الأعمى ، سمعه السباب أوله ، والحوجا الحاجة ومنه ما كان في نفسه حوجا ولا لوجا ولا حوجاء ولا لوجاء أي حاجة ، واختلج تلجلج

حائره ، يكسب صاحبه فى الفنون المختلفه فلا يخونه لفظه ، وتتناسق الجمل فى تركيبها تناسق العقد المنضد ، وتوائم بين ألفاظه ومعانيه أى مواءمه ، وتؤثر فى قلب السامع فتستميله بما تحمله من مقولة على مسمعه ؟ أرأيتم كيف أصبحت اللغه فى يد التوحيدى كالعجين يرسمه الرسم الذى يشاء ، أو كالقرطاس فى يد المصور الحاذق ، وعنده جماع الاصباغ يصوره بما يهوى اليه نفسه من صور الارض والسما ؟

اللغه فى نظر التوحيدى واسطه تعبير وتصوير ، لا أداه لطافه وطرافه ، كانت على أسله قلمه ، عزيز المنابه نضيره الديباجه ، وكان بيانه الصافى البراق ، سهل مطواعاً لبيانه ، يتصرف به تصرفاً عربياً ، و يصرفه فى ضروب الموضوعات العاليه ، وكان اللغه فى عصره ، وقد أصبحت امه حضاره باهره ، احدث الرنده النافعه من الامم القديمه وزادت علما حاذت فرقته تعرب ألفاظها على التعبير عن كل معنى ، وصفا وصفها وسبكها ، فكانت بالجمل صنع الاوهام والانسجام ، ولطف مادتها تخرج منها الحق فى قاعده بما الانسب ، ودرجت بعد ذلك ينعه لا شرب فيها ولا تعقيد كأنها جاءت من عروف ، لغه فلسفه وطبيعه و الهيات ، كما كانت امه شعر وخطب منذ اقدم عصور الجاهليه

عمد التوحيدى الى استخدام طوائف من الالفاظ تشترك فى وضعها فى جانب أحوالها ، و يعذر عليك ان تحلى المكان فى جمله مع غيرها محلها وقد قال العتابى الالفاظ اجساد والمعانى ارواح ، انما تراها بعيون القلوب فاذا قدمت منها مؤخراً ، او اخرت منها مقدماً ، افسدت الصوره وغيرت المعنى كما لو حول راس الى موضع يد ، او يد الى موضع رجل محولت الخلقه

وتعمرت الحليه ، وهذا ما براه متحلما فى كلام ابى حـ ان « والكلام اذا حرج فى عىر ىكلف وكد وسده ىفكر وىعمل كان سلساً سهلا ، وكان له ما ورواء ورفراق ، وعلمه فرىد لا ىكون على عىره مما عسر ىروره واسىكر حروحه »

دا كر البوحىدى فى العلوم المحىلفه طىفه عالمه ں اد كاء اا لما ، وكانوا فى العلم جمىعاً ، وفى مداهبهم شتى ، فلم محمد على ىفل كلام أهل فں واحد ، ولا صمىـ ادىه عں سماع مں حالفوه فى معىمده ، فكاں سادىه ساں عالم فى عصرنا فىح محثاً فى محله او كىاب ىولفه ، واىما ىحمع فى كىاىىه وحراراىه افكار المصادىں وىراىمهم فى العلم والىفكر ، وهدا ما كان على حصه وفوره فى كـ ب الىرحـ دى على ما رأىىا ، لحص لمعاصرىه آرا المىقدمىں ، وحلف لمں ىعد مُصَرَّراً صحىحاً مں آراء مں عاسرهم وعاصرهم وىقدمهم فى المىلاد ، فادركىا ىما أسمعىاه ىعض حمىمه عصره فى اسالىب الىفكىر ومىلعه ں الحكمه

محمد وصد البوحىدى فى ىفل كل محاس كما وقع ، وان كان ىعصهم لم ىروه اا مرص لىدر ں ما ىحالف معىمدهم ، أما هو فما كان له ان ىىفل كل كلام ىىصـ ه كل انسان ، لانه لا ىحـ ط ىاهوا حمىع الناس ، و ىـ دد الاهواء كىعدد الاناسى ، وهو محالف فى طر ىمه طرىمه كـ ىر ں المولفىں ، فكـ مـ ىىطق ىلساں مں لا ىىىمده على صواىـ فىما ىدهب الىه ، و اذا راى ـص الـ محدلىں[1] فى كلامه ىعض العهده ، فىحابوں واى كلام حلا مما ىعلق علىه سى ان الىرحـ دى لىى سـ وح العلم والحكمه لحمل عىهم ، وحو د وصفهم واحمل طرارهم ، وكلما ىفل سىئاً لا ىوافق محله ومدهباً ، قال حصوم فـكره انه ىصطـ ع ىفله ، و ىرور على رراىه فىىرورون[2] له كاىـ البوحـ دى راوىه المجالس العالمه ،

---

(١) حدلق أظهر الحدق او ادعى أكىر مما عىد كىحدلق

(٢) براور عىه عدل واىحرف كارور ، ورور رىں الكدب والسى حسىه وقومه

والرواية كما فعل العلم المستطل ، ومخالفوه يسوءهم هذا ويسوءهم ، حتى سرت أحكامهم الجائرة عليه إلى من عُرفوا باعتدالهم من المؤرخين فاقروها ، وتابعوا على العمياء قائليها خالف الموحدي في طريقته العلمية مألوف كثير من العلماء ، فنبذه و نبذهم بعد باعد ، وليس من الانصاف ان ناخذ عليه خروجه عن مألوفهم

الحق أبلج لا تُخمل سبيله والحق تعرفه ذو و الاحلام

لا جرم أن الموحدي جار في امره مع من وسموا بالعلم في زمنه ، وهم محافظون متشددون في تقاليدهم و صطلاحاتهم ، لا يبالون ان يرموا كل من أبدع طريقة ، وكشف عن حقيقة ، بالفسوق والتبديع والتكفير ، و من الجهل الاعتماد عليهم ان يعرفوا من ذي السلطان ضرب ع و من لا يدرك ن عارفه علميه ممن يدعم زار ب عا سم ربما لموس عالم لم يجد له بداً عمد صاحب صولة في مثل ذاك المجمع ، فإن مجرد ابهام بعض المقلدين له بالاخلال العقيدة ، كاف في نثر حبل حياته ، ولا من يرحمه او يشفع به اراد المأمون « رضي الله عنه و رض » ازل المحنة التالية ان يُخرج الامة من ربقة التقليد الاعمى الى ساحة العقل السامي فرأى ان يسيطر على الدين واللغة والآداب والعلوم ، نسا ئح ويعقل الكثير معظم ما نبا بيد أُولى حكمة و بالاسف ، فلم ينشأ بد الملا حا منه في و نه زعماره ، يحمى الا مل زدعاته ، مسح للمادحين مجال ا د ا ء

ومن أعظم المصائب ان اقدار البلاد لمة ابداً على اراس الذي بدر م ه حلمه كان او سلطانا او امبرا ، في زال يزل بها صفته رانه ا كه ه ، وقل ان ي الخلف على اساس السلف ، ار سار الباحر على قدم المد حسـ صا في المسائل الدهنيه ، والمطالب الاجتماعية والدينية لذاك كنت خسرت في كل عصر وقطر كالارض ا معه سيب مقطع أركاوحت عروه في ا بعه

القفر ، تختلف سكلها باحلاف النفعه الى سأب فيها ، وبلاس بو تاً فصل على عمل صاحب السلطان الاكبر ، وكبره بلابه وعمابه وفلما عهد ان سار الابن سير أبيه وحده إلا على عهد أوائل العباسيين ، وفى بعض دور الامويين فى الشرق ، والأمويين فى الاندلس ، وما عدا ذلك فافراد من أصحاب السلطان رابوا عصورهم بهممهم فاحالوا القفار جناناً ، وجعلوا من العلم لسلطانهم سلطاناً ، حتى إذا مضوا لسبيلهم عادت الامة سيرتها الاولى ، بسبب أن الا به اعاق نسعاف فلها ، لا سيما وا كبر الزعماء يعتقدون أن الراحه فى ترك العقول جا مده جامده ، حتى لا ترتفع عقل عن عقل ، ولا يمار فاضل بعموم الفضل

فالرجل الذى لم يأبه لما اعترضه من العقبات ، ومزق حجب الوهم وحكّم سلطان العقل ، واستعرض ما جادت به قرائح اعاظم الملة فى القرون الثلاثة قبله ، وكتبَ العلوم الحكمية بهذا اللسان الراقى ، نسبعه وبسط به على كدورة فى سرعته أحياناً — الرجل الذى كان كذلك حاله بعد الا به المجتهد حقاً وصدقاً ، و ى د جدداً مجدداً فى فكره و بيانه

كتب التوحيدى فا كثر الكتابه ، ومع هذا فا سار طريقه واحده لم يبدل فيما يكتب ، ولا عُنى بالتمويه والتحبير ، والصقل والتطريه وكان هدفه ابلاغ العقول ، ما يجول فى الخواطر ، من اقصر الطرق ، وا سهل المسالك تارة ، ومن أطولها تارة اخرى احصى بوصف آرا المفكرين والنظار ، على وجه لم يرتفع عنه غيره ، حاشا الجاحظ واضع هذه الطريقه ، فكأنه يأتى بالمبين ذاك الاسلوب الذى كاد يفوت عوب الجاحظ ، وانه مما حدث بعد ابى عثمان من فنون القول ، وضروب المعارف ولو كان روح التوحيدى غير معذّب بالاخفاق والاملاق ، كروح الجاحظ الشفاف البراق ، وسلم مما يكدر صفوه وصفا ه ، واطمأن مما

تطمئن به روح من بهما العنس ، لحا الوحيدى كالجاحظ الا قليلاً

بيد أن اضطراب عصره ، كان منه اضطراب فكره ، وعمله العظيم عن تعهده وحمايته ، أدى الى اشتغال فلسفة ررقه وحرابه ، فكان فى دل الفقر ، وخوف القهر ، طول العمر و اذا قيل ان الجاحظ كان على دها لا ينكر محله ، فابى بحر ربه لدعاب حساده ، ومولمات مناظريه ، وان الوحيدى لم يعرف بد اسه العلم ، ولم يستكمل تعاطى الاسباب الى الرزق ، و احرار حصّل الس ى ، فلا ينس أن الجاحظ كان الخلفاء يرعونه و يخدرنه ، والوزراء يحادثونه و يحشونه ، والا من يتحدرن به ر يتحدرنه رالوحيدى ، للجهل الطارى على الخلفا والامرا فى عهده ، يضطرب فى حياته اضطراب الارسمه فى الطوى اا عمد ، كلما اا ءمع كـ ه حا ب الصدمه تسره ، وكلما قال يسراً ، قالت الايام عسراً ، عاش فى سعف من العنس ، وعجف من المال ، وكلب من الزمان ، فكان المربور المغلوك ، الموجع القلب ، المعذب الفؤاد رالمر مهما أتى ن عقل سليم واخلاق فاضله ، لا يخرج عن كونه محمولاً مسكنه رهوانه و يدرسه راسابده واقرانه ، وعمدان ما نا ر به روحه منذ وعى على نفسه ، وهو ر يده ما أحده يا مطره ن دم ابونه ، وا كسبه من اتصاله باحداد قدما قد لا رف احدارهم على حين ا ر ه ه ن حسب لا يسعر احلاقهم واطوارهم

اسه العميد

عصره

نُعد القرن الرابع عصر الكمال العلمى والادبى فى الاسلام اسمهرت فيه القواعد ، وتعست المعالم والمناهج ، ودُون ما تيسر تدوينه فى اللغة والادب والسريعــه ، ونُقل ما اهتمت له العرب من علوم الاوائل ، وحمى الصراع بين حملة الدين ، ورجال الحكمة رالعقل ، وسياب الفرق الباط ه ، وكلها ير يد افا ه مُللك ، واتحد دعاتها من آل البيت سكاه وصعوا بحلهم نصفه دينيه

وكان الادب فى مقدمة الفنون التى بلغت فى هذا العصر اناها ، تنوع اعظم سعرا الحضارة العربية ، بقدمهم زعمل حم ل فى القرن السادس ادخلوا على السعر معانى حديده ، وما عبروا موار به واوصاعه وانسا الكتاب يه ون فى الانساء المصنّع ، فصمموا المنافذ فى ادا المعانى ، وغلوا فى التطويل والتهويل ، فاصبح النثر بالاكثار من السجع بمعنى وبلا معنى اسمه سعر لا اوزان له

رسكن نائر السعوب من اعدا العرب ، وكان دائم الفاء يدور اعرده من السعوب التى وحد الاسلام بينها ، والغى من بينها نظام الاقطاعات ، وساوى بين الكبير رالصغير فى الحقوق والواجبات واعط السعو ون ن العرس به ام دوا بن سعمسن فى العالم دوله ي بُوَيه الدلم فى السرق ، استولت على فارس والعراق ، وجعلت الخليفه العباسى سبحاً بلا روح ؛ ودوله ي عُبيد الفاطمين فى افريقية وعمل القرامطه افاعيلهم فى العراق والسام والحجاز وما ا طت لهم دوله ، وورص محمود بن سبكتكين الدولة السامانية السنية من خراسان وما وراء

النهر ، وفتح القسم الشمالي من بلاد الهنـد وأضافه الى مملكته ، وخدم الآداب والعلوم ، وضرب المعتزلة ضربة قاصمة في بلاده

كان الفرس اهم العناصر الاسلامية التي عُنيت بنشر العربيـة منذ رفرف علَم الإسلام على بلادهم ، وقد احرزوا في العلم والسياسة افضل منزلة ، لما حظوا به من الاستعداد لقبول الحضارة ، اعانهم على ذلك الفهم الحكم والنظام ، وتفانيهم في طاعة العظماء والملوك وكانوا في القرون الأولى من خير الشعوب التي قامت بحق الاسلام

ربما كان خاصة فارس يتوفرون على خدمة الاسلام والعربية ، لا يجدون عن امة الدين والدولة والعلم بديلاً ، كان اناس من عشاق القوميـة الفارسية يسرون حسواً في ارتغاء [1] ، و يلوبون على من بقي لهم دولة ، ذاك … وصوله وقد آلمهم تراجع لغتهم امام العربية ، ومقارعة العربية الفارسيةَ في عقر[2] دارها ، حتى اصبحت لسان المدن ، ووجدت الفارسية متنفساً لها في الارياف والجبال من الاكارين والسوقة والفارسية هذه كان يتكلم بها جميع اهل فرس ، وكانت الفهلوية لسان قدماء الفرس ، كتبوا بها تاريخهم وآثارهم … بكتب مكاتبات السلطان والدواوين وعامة الناس ولما اجتاز ابو الطيب[1] … شعب بوان … ووصف الحال بقوله

> مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
>
> ولـكن الفتى العربي فيها غريبُ الوجه واليد واللسان
>
> ملاعب جنـة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

---

(١) هذا مثل يضرب لمن يظهر امرا ويريد غيره

(٢) العقر بضم العين وسكون القاف وضمها وسط

كان يمض دعاه القوميه الفارسيه ، أو من يريدون تحريك عرقها الحساس ، ان يشهدوا العربيه تعرّب كل يوم جماعه من ابناء فارس ، فلم يروا لوضع حدّ أمام ذلك التيار الجارف الا اثاره النّعره الدينيه ، يدعمها دعوى الغيره على ضياع حقوق العتره العلويه ، ليخرجوا من ذلك بتأسيس دوله ، وينزعوا الحكم من العرب آخر الدهر

كان يُمضهم ان يروا نيسابور وسمرقند والرى ومرو واصفهان وهمدان تتنافس فى بث العلوم والآداب ، وان يؤلف المؤلفون ، ويعظ الواعظون ، ويدرس المدرسون من ابناء فارس باللغه العربيه ، وان تمحى ادب آبائهم عن آثار عن شعر ما زُرق من يصغى له ، وان يغنى العربيه بالعلوم الكثيرة فحاولوا اسراف نفرس قومهم حب آدابها القديمه ، ولم تكن السير العار فى بهذه اللهجه المعروفه مما يعهد قبل القرن الثالث ، وقد نشأ ع شاعرهم الرودكى السمرقندى (٣٢٩) « الذى كان مقدماً فى الشعر بالفارسيه فى زمانه على اقرانه »

وعلى قدر رسوخ الحضارة العربيه ببلاد الاعاجم فى ذلك العصر ، وعلى مقدار تراجع السياسه العباسيه ، كان العلم العربى يزيد انتشاراً ورسوخاً ، ويتعدد مواطنه ، وتقوم اسواقه ، وما كانت مراكز الآداب فى القرن الرابع فى قرطبه والقيروان والفسطاط وحلب وغزنه والرى وسمرقند تقل كثيراً عن مكانه بغداد ، ومن قبل البصره والكوفه فى هذا المعنى كان الناس يحملون الى بغداد علمهم وادبهم أيام عظها خلفائها ، فخلف من بعدهم خلف من الضعفاء عدت بهم بغداد تنقل ادبها الى العواصم المستحدثه ولما قامت دوله بنى بويه واتخذت من الرى قصبه بلاد الجبال عاصمه لها ، اصبحت بعد حين دار علم ، ومثابه أدب ، على مثل ما كانت عاصمه الامويين فى الاندلس ، وعاصمه بنى الاغالب

فى افريقيه ، وعاصمه الطولونيين فى مصر ، وعاصمه الغزنويين فى حراسان

وكانت الرى وما اليها من ارض فارس فى هذا العصر مجموعه من المداهب الإسلاميه فيها الشيعه الاماميه والغاليه ، والأحناف والشوافع والمعتزله والخوارج وغيرهم وظلّ اهل الرى على مدهب اهل السنه والجماعة حتى تغلب عليهم متغلب من الشيعه ، واظهر التشيع واكرم اهله ، فتقرب الناس اليه بتصنيف الكتب ، فاصبحت جمهره أهل الرى شيعه غاليه ، وكان ذلك فى أواخر الربع الثالث من القرن الثالث ومن أهل هذا المذهب كان بنو بويه اصحاب الدوله وكان أهل قُمّ بلد ابن العميد شيعه اماميه غاليه ، و معظم العلماء فى أرض فارس من أهل السنه ، والملوك يحظون ود ارباب المعرفه من جميع الطبقات والمذاهب

أوليته ونشأته

فى هذه البيئه نشأ ابو الفضل محمد بن الحسين الملقب بابن العميد [illegible] وفضل وصداره وكان ابوه ابو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بكله كاتباً مذكوراً فى خراسان ، وله باع فى السياسه « تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ، ولقب الشيخ كالعاده فيمن يلى ذلك الديوان » ، « وانما لقب العميد ولقب بذلك ، على عاده اهل خراسان فى اجرائه مجرى التعظيم »

والغالب ان ابن العميد وُلد فى آخر سنه [illegible] ، لانه [illegible] سنه ، ومات سنه ستين بعد الثلاثمائه ، « وكان يعتده [illegible] اخرى ، يسلمه هذه الى هذه » ، وقيل انه اخذ العلم فى بغداد ورحل [illegible] [illegible] ، ولذلك كان [illegible] ابو الفضل فى حياة ابيه و [illegible] بالذى [illegible] الجليل [illegible] لى على ،

و يزداد على الأيام فضلا و براعة ، حتى بلغ ما بلغ ، واستقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل » ، وذلك سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ولما تقلدها ، وكان دون الثلاثين ، اتته السعادة فى صباه ، وجمع ادوات عقله وادبه ، وهو يتولى اعمال الدولة ، وطالت ايام وزارته حتى اربت سنوها على ربع قرن ودراسته ، ودعى ابن العميد بالاستاذ الرئيس لجمعه بين الامارة والادب ، وذهب له هذا اللقب عن جدارة ، ولقب ايضاً بلسان المشرق

اجمع من ترجموا لابن العميد انه فارسى من اهل قُم ، ولا يفهم من كونه فارسياً أنه من صميم الفرس ، فقد سكن العرب قم وقزوين وشيراز ونيسابور والرى وهو عربى بأصوله فينسب الى البلد الذى نزله او ولد فيه وما هو فارسى بالمعنى الذى يفهم به اليوم معنى هذه النسبة (١) ، ولا يبعد ان يكون ابن العميد او اجداده عرباً اقحاحاً ، ساروا فى تلك الارض فنسبوا اليها ، وقد حدثنا التاريخ بان مئات من علماء المسلمين وابناء الانصار والمهاجرين هاجروا الى البلاد التى فتحت على ايدى العرب فى الشرق والغرب فنسبوا الى اوطانهم لا الى آبائهم كما كانوا من قبل فضاعت بذلك اصولهم

---

(١) نعلم اصول من اشتهروا فى فارس من العلماء بالفارسية اذا نظر على كتب الانساب والوفيات وتراجم المحدثين وغيرهم فقد نسبوا صاحب الاغانى الى اصفهان وهو اموى عربى ونسبوا صاحب القاموس الى فيروزاباد وهو بكرى عربى ، ونسبوا القزوينى صاحب آثار البلاد الى قزوين وهو عربى من نسل مالك بن انس ، ونسبوا ابن حبان البستى صاحب التآليف العظيمة من طبقة البخارى الى بست وهو تميمى ، ونسبوا ابا حيان التوحيدى الى شيراز وهو من صميم العرب ، وكان ابو داود السجستانى صاحب السنن من الازد ، وابو العباس النسوى صاحب المسند من بنى شيبان وابو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى صاحب المسند من بنى قشير ، والهروى المفسر من ولد ابى ايوب الانصارى ، وابو الوليد النيسابورى فقيه خراسان اموى من ذرية سعيد بن العاص الاكبر ، والفخر الرازى المفسر عربى وقال ابن سيده إن طلحة بن مصعب هو من بنى سنحة من صبيعة ، وكان من افقه اهل خراسان وارضاهم عندهم رعية خراسان ، وكان ابو مصعب من خارجة مع على بن ابى طالب

وليس من المستحيل ان تكون غرام ابن العميد بالعرب والعربية موروثاً وباصلى فيه بالدرس ، وكم من عرب عن هذا اللسان خدمة حد به اسماته الاصليين وقد قال ابو الريحان البيروني ، وهو من خُوَارَزم ومن اعظم علماء الاسلام « الهجو بالعربية احب الي من المدح بالفارسية » ، وسيعرف صداق قولي من تامل كتاب علم نقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزال الانتفاع به ، اذ لا تصلح هذه اللغة الا للاخبار الكسروية والاسمار الليلية »

لم نعرف من اساتذة ابن العميد غير محمد بن علي بن سعيد[1] المعروف بسمكة أو بابن سمكة القمي ، وكان يعلم علم الاوائل وهو « صاحب الادب والحكمة والنجوم والترسل والاملاء » ، والمه كان يذهب مذهب الاعتزال فلعل تلميذه مذهبه فاصبح مثله على مذهب اهل العدل والتوحيد ، في قائم بعاب التشيع على السواد الاعظم من اهله ، وما يمنع ذلك ابن العميد ان يخدم ركن الدولة بن بويه ، وكان متشيعاً عالماً ، ولا ان يتخرج به عضد الدولة بن بويه في ادارة الملك والدولة

غلبت الحكمة على ابن العميد ، فحالت سعاف قلمه وكان ذيله من ادب عصريه ، كان اديباً رجحاً بعلوم عقلية ، فيه سه في نادر ط ه ة

(١) هكذا ورد اسمه في فهرست ابن النديم وفي خان خان ه محمد بن محمد بن عبد الله ابو علي جلي عرفي اهل قم يلقب سمكة ، كان اهل الفضل والادب ... د ا ابو الفضل محمد بن الحسين بن العميد وله عدة كتب صنف منها وكان ... عند ... علماء احمد بن عبد الله البرقي ومن ... كتاب ... عظيم ... آلاف ورقة في اخبار حسنا ... كتاب حسن ، وله كتاب ... كتاب حسن ... رسالة ... وساله في ... احـ ... اخ

ونفس حساسه ، برن كل شيء بميزان النقد ، حتى الالفاظ والقوافي والاوزان والأسجاع وحتى الـكلام العادى وشا ابن العميد بنه أدبيه وسياسيه ، عرف البلاد وامزجة اهلها ، وعرف ما يصلحهم و يرضيهم و يرعاهم ذكر مسكويه انه سمعه في كثير من خلواته يشرح لابنه أبي الفتح « صـورة الديلم في الحسد والجشع ، وانه ما ملكهم احد قط الا بترك الزينة ، و بذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد ولا يكثر عليهم ، ولا يكون الا في مرتبة أوسطهم حالاً ، وان من قد دعاهم واجتهد لهم ، وحمل على حاله فوق طاقته ، لم ينفعهم ذلك من حسده على نعمته ، والسعي على ازالتها ، وترقب اوقات الغرة ، في أن ما يكون الانسان على نفسه منهم ، فما يكون به ذلك الوقت »

قال « وكان لوفور عقله يدارى امره مع صاحبه ومع عسكره ، ثم يسوس رعيته والممالك التي يراعيها ، و يدبر الجميع تدبيراً ملائماً لوقته ، موافقاً لزمانه ، فلا يظهر من الزينة وابهة الوزارة ، الا بمقدار ما يتم به مرتبته ، ولا يجاوز ذلك الى ما يحسد عليه و ينافس ، ثم يتواضع تواضعاً لا يخرج به الى عصاصة بالحمه في جاهه ، او يحطه عن المنزلة العالية التي يرقى اليها ، وكانت سلامته طول مدته على اصناف الناس بطمائهم وقوام همته وتمام سياسته صلة بزيد على الايام سا ماداً »

و من سياسة ابن العميد وهو الصدر المقدم في الآداب والسياسة انه كان يصون مجلسه عن الخوض في مسائل الخلاف في الدين ، وقد يقاطع من يحاول المنافسة فيه ، وهو حذ عارف باهل الاثر واهل الراى من فقهاء الامصار ، بصير بالمحكم والمتشابه من آى القرآن ، الى معارف جمة في النحو والشعر والا ــه واشعار العرب ، يدرك ما يجر الخلاف من شعاب على دولة اختلفت مذاهب

سكانها واحاسيسهم ، وساسب اهواؤهم ودرجات ثقافتهم ، خصوصاً ومذهبه غير مذهب سلطانه ، وهو فوق ذلك متسع بالحكمة حتى لتهمه بعضهم فى دينه ، شأن الناس منذ العهد القديم مع من تشتغل بهذا العلم البغيض الى الفقهاء واتباعهم والناس فى كل زمن اسرع إلى تكفير اهل التفكير من الماء إلى المنحدرات

كان خلطاء ابن العميد زمان ادموه من مذاهب مختلفة فمنهم مسكويه فيلسوف خزانته زهر فيلسوف مؤرخ ، ومنهم استاذه ابن سمكة وابو محمد هندو وكلاهما فيلسوف الهى ، ومنهم ابو الحسين بن فارس اديب ، وابن خلاد القاضى أديب وفقيه ، وابو الحسن العلوى ، وابو العـــلاء السروى شاعر وكاتب وكان يحاضرهم في مجالسهم ومنادمتهم ويكاتبهم اذا غابوا ويحاورهم نظماً ونثراً ، حتى امكن القول ان احسن ما كتب ابن العميد رسائله فى الاخوانيات ، وكان لا ينظر فى التراسل مع اخوانه الى ما بينه وبينهم من التفاوت فى المصطلح عليه من درجات المجتمع ، اى انه رئيس وهم رعيته ، يسحب ذيله على ما يكون منهم ، وما عدت عليه هفوة مع صديق ، وما كان ممن يخرج على حقوق الصداقة وفى نظره ان لا اعتبار فى الصداقات لاختلاف الدرجات ، والمشاكلة فى الفكر والعواطف اس الصداقة فاذا كان يفتخر بالحسين بن اسحق بن محارب الهمذانى [illegible] لو اخرج من بلده سواه لكان كافياً

كانت معانى الحب متأصلة فى ابن العميد ، وروحه تحب [illegible] يخلص فى حبها ، وربما تبرح به ، ثم ان نفسه عظيمة لا يكره [illegible] والكراهة والبغض على الاكثر اثر من آثار الصنعة ، [illegible] المقاصد ، وكل ذلك كان الاستاذ الرئيس غنياً عنه لانه [illegible] لا [illegible] من غيره العطاء ، ومع [illegible] لا يخشى الناس من نفوذه ، [illegible] بعد [illegible]

سحب الى الناس ، ولا سيما اهل الذكر والفكر

ألف ابن العميد ، على ما بلغه من رتب المجد فى د ماه ، المذاكره فى ؤون العلم على سنه علماء السلف وأدبائهم ، واعتاد ان يعصل على خاصه وقاصديه ، حصوصاً اذا لم يدلوا عليه بادبهم فى مجلسه كان يكره من يريد ان يُموى علمه بأوه[1] ودعواه ، وكثيراً ما سيهدف لعصب اهل هذه الطبقه ، فيعدون على هجوه ، و ، صرفون عنه لاعنين طاعنين ، كما وقع لابن سانه السعدى ولابى حيان التوحيدى ، فانهما تحكّما له ، لانهما لم ينالا ما كانا يوملان منه ، فحسرا على هجوه ، وألف التوحيدى كتاباً سماه مثالب الوزيرين ، اى ابن العميد وصديقه الصاحب بن عَباد

حل ابن العميد لكل سىء نظاماً فى وزارته ، يعمل للمصلحه العامه ما استلزمت من الاوقات ، فاذا فرغ انصرف الى العلم والادب ، فهو على هذا يحمل سحصيتين ، سحصيه سياسيه اداريه ، واخرى ادبيه فلسفيه ، وكثيراً ما يكون مجالسه مجالس العالم لا مجالس السياسى ، يقرأ عليه بعض قصاده من العلماء والادباء ما يجيزه وسع وقته من صنوف الآداب ، على نحو ما جرى له مع أبى الحسن العامرى الفيلسوف النيسابورى ، فقيل انه شرح له كتب ارسطو و « نزل بين يديه ، واستانف القراءه عليه ، وكان يعد نفسه فى منزله من صالح ان يُعلم منه ، فقرأ عليه عده كتب مستغلقه ففتحها عليه ، ودرسه اياها » وهو بالطبع نسبه لدى من القراءه والاقراء « وضبط أعماله ونظم امورة ، ورتب اسباب حدمه ، حتى كان اكثر نهاره مشغولا بالعلم واهله » ما كان سبباً للبطء فى عظمته وشهرته ورب وزير كان قبل الوزاره سيئاً مذكوراً فى العلم فاصبح

(١) الباو المعحر بالنفس

لا سيء بعدها ، لاستغراق أوقاته كلها بمصالح الناس ، ورد عادية الاحزاب والاعداء عنه وعن سلطانه اما ابن العميد فكان قبل وزارته معروفاً بالعدل ، وفي الوزارة اخذ بحظ وافر من حسن السمعة

واعتذر مسكويه عن قصور صاحبه في عمار الملك ، وبسط العدل في ربوعه — وكان مسكويه على ما يظهر ماخوذاً بحبه عاش في نعمته اياما فصاه سنين — قال « فاما اضطلاعه بتدبير الممالك ، وعمارة البلاد ، واستدرار الاموال ، فقد دلت عليه رسائله ، ولا سيما رسالته الى ابي محمد بن هندو التي يخبر فيها باضطراب امر فارس ، وسوء سياسة من تقدمه لها ، وما يجب ان يتلافى به ، حتى يعود الى أحسن احوالها ، فمن هذه الرسالة يعلم منها صناعة الوزراء ، وكيف تتلافى الممالك بعد تناهي فسادها وما يتبعه من بسط العدل في الممالك ، وعمارة ما يدبره منها الا ان صاحبه ركن الدولة ، مع فضله على اقرانه من الديلم ، كان على طريقة الجند المتغلبين ، يعمل ما يستحل له ، لا يرى الطرق غير اوقات امره وغ اوقات امور رعيته ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن احداً تلافيه وردهم عنه »

اي مسكويه يوصف مخدومه في معرض المدح ا ه ل ا ن ر . . على ار اله الادى سكت عن رفعه مواخذه في اسراع . ر ى ا ب . ه د اسعد على طريقه لسنه ، فيهم العاصي والمعتدي ، حتى لا معتب حد لا عتب سد ه الملك ، ولا ساله مكرره بسامهم ، رلو احس حر به ا لاد وطلهم اهم ه — الع س رالماس رسامهم ، ى نفسه ان ر به ارب اسم و حك فهم حكه ، و مد بلاده من ارص ما را . ا الاحد ه الاد به س سه ه ه ه لا ح من الار ى طر ارباب الحرم من مد رى الملك

أدب وعلم

عرفنا مما تقدم نوع الدراسة التي تعلقت بها همة ابن العميد ، ووقفنا على صورة من نفسيته ، والآن نعمد إلى تحليل هذا الضرب من الأدب الذي عرفه الناس به ، وبه خلد ذكره في العالمين ؛ قالوا إنه واضع طريقة النثر المنثور ، وإنه كان يلتزم السجع تارة ويطرحه أُخرى ، وهذا رأي ابن سنان فيه قال إنه كان يترك السجع ويحسنه ، وطريقة استعماله مرة ورفضه أُخرى ، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسر ، أو الإكراه والتكلف أما نحن فإن ما وصلنا من كتاباته يضطرنا إلى أن نحكم عليه حكماً يخالف حكم ابن سنان ذلك لأننا رأيناه كان إلى التسجيع والمراوحة أقرب وما ندري أيضاً إن كان وصفه بخاتمة الكتاب ينطبق على الواقع ، أم فيه شيء من المصانعة لابن العميد في قولهم « بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » أم هي السجعة التي أصدرت هذا الحكم ، كما كانت سجعة الصاحب بن عباد في قاضي قم هي التي نحته عن منصبه ، يوم كتب إليه « أيها القاضي بقم ، قد عزلناك فقم فقال القاضي والله ما عزلني إلا السجعة »

عاصر ابن العميد عشرات من الكتاب ، وجاء بعده كثيرون كانوا أطول منه باعاً في هذا الفن ، وفي مقدمتهم الهمداني وأبو حيان التوحيدي فنسي الناس أو تناسوا من لم تحظهم الحظ حتى اشتهروا من كل وجه ، ولهج الناس بنثر ابن العميد وشعر ابن العميد فاقت شهرته

وحكمنا هذا على ابن العميد مستند إلى رسائله المأثورة في كتب الأدب والأخبار ، وفيها شهدناه يكثر كل الكثرة من السجع ، ولم نر شحن كتابته بما

أ ر عنه منه ، فاقتصرنا على كلامه المرسل ، وحكمنا عليه بالاسلوبين

عصر ابن العميد عصر نشوء الكلام المسجوع ، وفيه ظهر اعظم السجاعين ،
فما وسعه ان يتحلل من قيوده ، بل اخذ يجاراه الناس طوعاً أو كرها ، فهو ابن
عصره بلا ريب ، إلا أنه كان اول من غيره على ما نظهر تأثراً بالأفكار الفارسية ،
وهذا داعية العجب ، كان اقرب الى العروبة فى اكثر مناحيه ، وفارسيته
مقصوره على مصطلحاته وعاداته كان نثره كلام الاقدمين — وهو الحافظ
المكثر من شعر العرب الجاهليين والاسلاميين — اوفى من نثره بشبه ، هو
عربى الافكار ، فى ثوب فارسى رقيق ، اخذ من المحدثين ما راقه ، ومزجهما
مزجاً جميلا ، فكان آية تهرب او كما قال ابو الطيب المتنبى فى مدحه

عربى لسانه فلســــفى رايه فارســــيه اعياده

حلق الله افصح الناس طرّاً فى بلاد اعرابه اكراده

لم يتناول ثقافه ابن العميد الشعر والنثر ، اى الادب فقط ، بل كانت ثقافه
العالم الحكيم ، يعرف تأويل القرآن والفقه والحديث والفلسفه وعلم الجدل بحر
الانفال والتصريف والهندسه والطبيعه ، الى معرفته الواسعه بالسياسه والحرب
وكان على الكاتب المثقف فى ذلك العصر اتقان الفلك واعـ ـه ـ ب و ا ـ ب
فضلا عما يحتاج اليه من لغه ونحو وتصريف تاريخ ـ ـه ـ ه كـ ـ ـ
يقول من لم يكن عالماً باجراء المياه ، وحفر فُرض الـ والسـ ـرب ـ ردم ا ، ى
ومجارى الانهار فى الزياده والنقصان ، استهلال القمر وافعله ، و ـ ب ا ـ ب
وذرع الـ ـب والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب ا ـ طر ا ـ ب ـ ـه لى
والدواعير على المياه ، وحال ادوات الصناع ، ـ ـ ـ — كان ناقصاً
فى حال كتابته

وما روى من مجالس ابن العميد وبتوفل من آرائه ودن نابه لم تكن نتمه في هذه العلوم ، بل كان مشاركاً اعظم مشاركة فالوا كان اذا طرا عليه احد من منتحلى العلم ، فاراد امتحان عقله ساله عن بغداد ، فان فطن لخواصها ، ونبه على محاسنها ، وانبى خبراً عليها ، جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله ، ثم ساله عن الجاحظ فان وجد عنده اثراً لمطالعة كتبه ، والافادة من الفاظه ، وبعض القيام بمسائله ، قضى له بانه غرّة شادخة[1] في أهل العلم ، وان وجده ذاماً لبغداد ، غفلاً عما يجب ان يكون موسوماً به من الانتساب الى المعارف التي يختص بها الجاحظ ، لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن

هذا تصوير لبعض مناحي الاستاذ الرئيس ، ولم نجارِ من توسعوا في تصوير سيرته وبالغوا في أدبه واكثروا ومنهم الثعالبي في يتيمة الدهر وسكوته في تجارب الامم لا جرم ان ابن العميد عظيم بادبه ، ولكن الا يذهب الفكر الى انه كان له بحكم منصبه السامي — ومفاتيح خزائن الدولة في يده يفضل على العلما والشعراء من قاصديه وغير قاصديه — ما زاد في شهرته ، وعظم في النفوس ادبه ؟ وربما كان من حب بعضهم له ان حملوا صورته على غير قصد

وبعد الذى رأينا من مبالغات الشعراء في كل عصر ، اننا الى التوقف في الحكم على الرجال بالمدح أو بالقدح الذى قيل فيهم شهدنا شعرا مدحوا رجالاً وهجوهم في آن واحد ، فاى اقوالهم نصدق ؟ هذا سيف الدولة بن حمدان قد خلع عليه المتنبى من الامادح ثياباً فضفاضة ، تخلد ذكره في الآبدين ولو نظرنا في سيرة سيف الدولة ما رأينا في تعريفه على ما يصفه به الا كأ جائراً شديداً ، يستحل أكل اموال الناس بالباطل ، ويخرب البلاد لمعنى ما اسباب في ايامه ،

(١) غرة شادخة غشت الوجه من الناصية إلى الانف

ويفرط في الافضال على مادحيه ويدحه [1] واما إذا ما ا ا هجوه كافور الإخشيدي ، بعد ان مدحه ورفعه ، يسجل انه طلبه كثيراً ، فان سيرته كانت اركى من سيرة سيف الدولة ، والملك به يصلح أكثر مما يصلح بابن حمدان وامثال ابن حمدان من طلبة الملوك والامرا وهكذا يقال في اكثر ما يسجله الشعراء من امادح العظما والامرا ، فلما قصروا في اا طا تراجم الشعر وده ت مهجه

ولو همنا باخذ صورة الملوك والعظماء مما مدحهم به الشعرا ا دنا عن حقيقتهم وسيرتهم بعداً كبيراً وكذلك لو صدقوا كل ما هجا به الهاجون ، لما رسمنا لمهجو صورة صحيحة لان الشعر قام في الاكثر على المدح والهجا على المبالغة في كل منهما ، وهناك الاهوا السياسية والعداوات المذهبية والطوائل الجنسية وكم من عالم وصمه خصومه بالكفر ، وهو اقرب الى حـ هر الـ ع ـ ا كثر حاسديه ومخاصميه وكم من انسان عظيم النسبة اهل محـ ه بوبا بالماً ـ حكمهم عليه ، وما كان أولاهم ان يكسوه الخز والديباج اعرض مرض وقل ان خلت منه نفس سيرته هـذا الشعر العربي على اعلو في نسبته ـ امه وعزله ومدحه وهجائه يوجد على علاته ، وفلما سقط فيه على حقيقة لا في الحكم والمعز ، ومن حملناه عمدنا في انه حجة للرجال ـل ـا ـ ،

و د فال من سعادة ابن العمـ د ن ط ل عمد في ا ـ ـ ـه ن بكر ن على أحلال ناصله وسيسه باحجه سسمل م فلوب ـه ـ لادن ،

(١) قال الازدي في الدول سقطعه في ـ ـه ا ـ وحـ ـ ـ ه صه ـ لو ان ناصر الدولة ـ ـ ا ـه الما ـكار وانا اعان ـ ـه ـوه و ـ ـ ه سب الناس ـ ـ دنا في كل د ـ ـ دينارا وعـ ـ ـ ـه كتوب ه الا الله محمد رسول الله امير المؤمنين علي ـ ان طالب وصمه ـ ـ ـ عمم اسا ، وعلى الجانب الآخر امه لـه ـ مسبع ـ خ ـ ـ ـ ـ ـ ه ـ فقال إن مبلغ ـ ـ ـه سعيانه ـ ـ ل

ومن سعادته ان يرزق عملاً نافذاً ، ونصيره نافذه ، وعاقبه كا له ، و ن سعاده ان يظل وهو راس الدوله على ثمته معارفه و واهبه الى الر ن الذى اسا ر الله ه فى همدان ، وهو فى طريق القضاء على النا س ن على الملك كل أولئك راد ف وريه وهو فى حقيقه ادب عظيم محدود ، لم يبطره النعمه ، ولا أسكره نما الاماره و اقبال الدنيا ، وكان له من تليد مجده وطريفه ما وفره فى الصدور من الفضائل ومكارم الاخلاق ما أسمعه بالصيت البعيد ، ومع عا تم ع له الملوك فى سلطانهم ، وشارك الادبا فى مجدهم الادبى ولو رحمت الايام برو أدبية حلفها عظيم طالما رحم الناس ، لكان الحكم عليه افصح ن هذا

نموذجات منه كتابته

كتب ابن العميد الى ابى عبد الله الطبرى لما استحضره عضد الدوله اله اد ه وو ه رامورمن بعد نظره فى سياسه الملوك قال « ووقفت على ما وصفته من بر الامير لك ، وتوفره عليك ، وليس العجب ان يناهى مثله فى الكرم الى ابعد غاياته ، و انما العجب ان يقصر فى ى من مساعيه عن نيل المجد كله ، رحيازه الفضل باجمعه ، وقد رجوت ان يكون ما نعرسه احذر غرس بالزكا ، واصحبه للريع والنماء ، فارع ذلك وارکب فى الخدمه طريقه تبعدك من الملال ، وتوسطك فى الحضور بين الاكثار والاقلال ، ولا تسترسل الى حسن القبول كل الاسترسال ولأن تدعى من بعيد مراب ، خير من ان تقصى ن قر ب مره ولتكن كلامك جواباً تحرز فيه من الخطل ومن الاسهاب ، ولا ر حد لك بانى كلمه مجرده فيلحّ بك الاطناب توفعاً لمللها ، ورعما هد ب ما ، ه الاولى وتساعدك فى الشرب مرجاه وبالعقل يزم اللسان و يلزم السداد ولا تستعر لك

طرب الكلام على ما يفسد عيشك ، والسماعة لا تعرض لها فإنها مجلبة للجاه ، فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها وتطالع موضعها ، فإن وجدت النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الإسعاف هشة ، فأظهر ما في نفسك غير محتشم ، ولا توهم أن في الرد عليك ما يوحشك ، ولا في المنع ما يغيظك ، ولكن انطلاق وجهك إذا ذهبت عن حاجتك ، أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على سامعه منك . أقول ما أقول غير واعظ ولا مرشد ، وقد كمّل الله خصالك وفضلك في ذلك كله ، لكن أنه تنبيه المشارك ، واعلم أن للذكرى موقعاً منك لطيفاً »

وكتب إليه أيضاً

« كتابي وأنا بحال لو لم ينغص منها الشوق إليك ، ولم يُرَنِّق[1] صفوها النزاع نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة ، واعتددت حظي منها في أنعم الحالة ، وقد جمعتُ فيها من سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منهم في جسمي بصلاح ، وفي سعيي بنجاح ، لكن ما بي أن تصفو لي عيش مع بعدي عنك ، ويخلو ذرعي[2] مع خلوّي منك ، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي [illegible] ، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي [illegible]

حُرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك [illegible]

[illegible] كتابك — [illegible]

[illegible] ، [illegible] في [illegible]

وكل خصالك [illegible]

---

(١) يرنق يكدر (٢) [illegible]

[illegible]

وعقدي[1] ، وأرجو ان يكون حسمه امرك موافقه لمدبري فيك ، فان كان كذلك و الا فقد عطى هواك وما الوي على بصري اه» فلما وهذا ن سحوعاته وفيه من المالعات الفارسية ما كاد بذهب ببهجته وجمل عاطفته ولو صدر هذا الكتاب عن كاتب ممن سبقه كعمرو بن مسعده ، وسهل بن هرون ، واحمد بن يوسف الكاتب ، وابن الزيات ، والصولي ، لجاء موضوعه في سطور من سهلين على السمع والطبع ، معمولين في العرف والعاده ، لا علو فيهما ولا اغراق

وكتب اليه فصلا اوله سجع كله لم يطلب منه جمله بدونه الى ان قال وقد ذكر دعواه في العلم وهبك افلاطون نفسه فاين ما سنته من السياسه ؟ فقد قراناه فلم نجد فيه ارشاداً الى فطنه صديق ، فاحسبك ارسطاطاليس ... ، اين ما رسمه من الاخلاق ؟ فقد رأيناه فلم نر فيه هدايه الى ... ن ... ، واما الهندسه فانها باحثه عن المقادير ، ولن ... ن يجهل مقدار نفسه ، وقدر الحق عليه اوله ، بل لك في رؤساء العربيه مما ربح و ... طرب ، واسا ساحلك ، لكن احب ان تحقق بالعربيه ن القول دون ... ر ... ن العمل ، فقد اعتربت في الذهاب بنفسك الى حد لا تهتدي للرجوع عنه ؟ واما النحو فلن ندفع عن حذق فيه و بصر به ، وقد اخترته اوحد اخبار ، ربهلب سبيل تعلمه على من تحملك قدوه ، وترضى لك أسوه ؟ وباب العذر والباطل وما جرى مجراهما مرفوع ، والصدق والوفاء وما صاحَبَهما محفوض ، وقد نصب الصديق عندك ، ولكن عرضاً يرشق بسهام الغيبه ، وعلماً يقصد بالوقيعه ، ولست بالعروضي ذي اللهجه فاعرف قدر حذقك فيه ، الا انى لا أراك تعرض لكامل ولا وافر ، ولستك ... في بحر الحب حتى تخرج منه الى شط المعارف

---

(١) العقد الضمان والعهد

وكتب الى بعض اخوانه : انا اشكو اليك ، جعلني الله فداك ، دهراً خوّاناً غدوراً ، وزمناً خدوعاً غروراً ، لا يمنح ما يمنح الا ريثما ينتزع ، ولا يفي فيما يهب الا ريثما يرتجع ، يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جُرَعاً ثم يمتنع ، وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ، ان يتبع ما يهبه بعرف انقباض ، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض وكنا نلبسه على ما فرط ، وإن خاف منه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستسلم لقصده وظلمه ، ونعتد من اسباب المسرة ان لا يجيء محذوره مصمماً بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفاً بلا مزاج ، ونتعلل بما نجالسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ، وقد استحدث غير ما عرفناه ، سنة مبتدعة ، وشريعة متبعة ، واعد لكل صالحة من الفساد حالا ، وقرن لكل حالة من المكروه حلالا ، ومن ذلك ، جعلني الله فداك ، انه كان يمنع من معارضته الاغنى ، بغير ذات اليد ، فقد اسدى يداً ولك تجمع ما أوعره ، وما اطبه من الهوى لك اكثر ما اسره ، واحسبني قد ظلمت الدهر سوء انما عابه ، ولو به جرأ لم يكن قدره عما يحط به وقدرته ترقى اليه ، ولولاك اعسه وظاهره ، وقصدت صرفه وآزرته ، وتعني تبع الخلق ، وللبس فمن زاد ، السكون من غض ، ثم اعرضت عني اعراض غير مراجع ، واطرحتني اطراح غير محل لى فهلا وجدت نفسك اهلا للجميل حين تجدني هناك ، انعدت من حل معقدت من غير جرمه ، وتكسب ما عهدت من غير جرم وجنى غير احده منه ، ما هذا الا مالي بنفسك ، والمعالي على صدقك ، لم تدري ... طرح الهدى ، لم تلفظني من فيك ، ... من حاملك ... الا ارد الا دب ، كيف لا تخطرني لك حضره ... سعلك مره

فترسل سلاماً إن لم تحتسم مكاتبه ، وتذكرني ومن تذكر ان لم تكن محافظه ،
واحسب كتابي سيرد عليك ، وتكره حتى تسمت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه
وتصور شخصه حتى تذكر ، فقد ضرب عندك بين محا النسيان صورته من
صدرك ، واسمه من صحيفة حفظك ، ولعلك ايضاً تتعجب من طي فيك وقد
ولت ، واستمالى لك وقد ابدت ، ولا عجب فقد سحر الصحو بالماء الزلال ،
ويلين من هو اقسى منك قلباً فيعود الى الوصال ، وآخر ما اقوله ان ودى
وقف عليك ، وحبسٌ في سبيلك ، ومن عذب الله وحده عصاً طرياً ، تجربه
في المعارضة فإنه في العود احمد

وهـذه الرسالة كما ترى من رسائله المسجوعة والمرسلة معاً ، وبادئ ما
يدرك المتمعن فيها ان ابن العميد لما اطرح في آخرها السجع جود وابدع ،
وكان في اولها لا يعدو أسلوب الصاحب بن عباد وابى بكر الخوارزمى
والصابى من اهل حبائله عشاق السجع ، وكان الهمدانى اقواهم به تشبثاً في
رسائله لا في مقاماته

رفى الذ مه ريقال ان احسن رسالة الاخوانيات ، ما كاتب به ابا العلاء
(السروى) لصدوره عن صدر مائل اليه ، محب له ، مناسب بالادب اياه ،
فصل من رسالة له اليه في شهر رمضان وهو مما لم يسبق اليه كتابى حفظك
الله وانا في كد وتعب ، منذ فارقت شعبان ، وفى جهد ونَصَب ، من شهر
رمضان ، وفى العذاب الادنى دون العذاب الاكبر من الم الجوع ووقع الصوم ،
ومنيت بضاعف حرور ، لو ان اللحم يصلى ببعضها غريضاً اتى اصحابه وهو
منضج ، رسمحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ، ويصرف وجه الحرباء
عن التحدى ، ويريه عن التقصير ، ويقبض يده عن امساك ساق وارسال ساق

واحمد الله على كل حال واساله ان يعرفنى فضل بركته ، ويلقينى الخير فى باقى ايامه وخاتمته ، وارغب اليه فى ان يقرب على القمر دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ، ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد على غرة سوال فهى أسر الغرر عندى واقربها لعينى ، ويسمعنى النعرة فى قفا شهر رمضان ، ويعرض على هلاله أخفى من السر ، واظلم من الكفر ، واحقر من مجنون بنى عامر ، واضنى من قيس بن ذريح ، وابلى من اسير الهجر ، ويسلط عليه الحور بعد الكور[1] ، ويرسل على رفاقه[2] التى تعشى العيون ضوءها ، ويحط من الاجسام نوءها ، كلفاً يغمرها ، وكسوفاً يسترها ، ويريشه معمور النور ، مقمور الظهور ، قد جمعه والشمس برج واحد ، ودرجة مشتركة ، وينقص من اطرافه كما ينقص الميزان من طرف الزند ، ويبعث عليه الأرضه ، ويهدى اليه السوس ، ويغرى به الدود ، ويبليه بالفار ، ويخترمه بالجراد ، ويبيده بالنمل ، ويجمجمه بالذر ، ويخليه من نجوم الرجم ، ويرمى به مسترق السمع ، ويخلصنا من عاودته ، ويريحنا من دوره ، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ، ويفعل به فعله بالكتان ، ويصنع به صنعه بالالوان ، ويقابله بما يقبضه دعوة السارق اذا او صح بضربه سك طلوسه ورحم الله عبداً قال آمينا واستغفر الله جل وجهه ما قلته ان كرهه ، استعفه من توفيق لما يذمه ، واساله صفحاً يقبضه ، وعفراً ... ، وجلى بعدما سكوته صالحة ، وعلى ما يحب ويهوى جاريه ؛ ولله الحمد بقدس اسمائه والسك ... ه

وهذه الرسالة ايضاً لو خلت من السجع والاطويل الكاب ... تدة فى ... ،

(١) فى الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور معناه ... بعد ... ومن ... من فساد أمورنا بعد صلاحها

(٢) ... كه ... الخبز ... ، لواحد ...

قال الثعالبى وقد أجمع اهل البصره فى الترسل على ان رسالته التى كتبها
ابن بلكا ببغداد حورسند عند استعصائه على ركن الدوله عره كلا ه ووا
عقده ، وما ظنك بأجود كلام لابلغ امام ؟ قال فصل من أولها كتابى
مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، واقبال عليك ، واعراض عنك
فانك تدل بسابق حرمه ، وتمت بسالف خدمه ، أيسرهما يوجب رعاية
ويقتضى محافظه وعنايه ، ثم تشفعهما بحادث غلول[1] وخيانه ، وتتبعهما بآ
خلاف ومعصيه ، وادنى ذلك يحبط اعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك
لا جرم انى وقفت بين ميل اليك ، وميل عليك ، أقدم رجلاً لصدك ، وأؤ
أخرى عن قصدك ، وابسط يداً لاصطلامك واجتياحك[2] ، وابنى بها
لاستبقائك واستصلاحك ، واتوقف عن امتثال بعض المامور فيك ضناً بالنعمة
عندك ، ومنافسه فى الصنيعه لديك ، وتأميلا لفيئتك[3] وانصرافك ، ور
لمراجعتك وانعطافك ، فقد يعزب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب
ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الراى ثم يستدرك
ويسكر المرء ثم يصحو ، ويتكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقه الى رخا ، وكل
غمره فالى انجلاء ، وكما انك أتيت من اساءتك بما لم تحتسبه اولياؤك ، فلا بد
أن تأتى من احسانك بما لا يرتقبه اعداؤك ، وكما استمرت بك الغفله حتى
ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب ان تنتبه انتباهه تبصر فيها
قبح ما صنعت وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمى فى الابقاء والمماطله ما صلح
وعلى الاستبطاء والمطاوله ما امكن طمعاً فى انابتك ، وتحكيماً لحسن الظن بك

---

(١) الغلول الخيانه فى المغنم خاصه وآتيت جمع أتيه

(٢) الاجتياح كالاصطلام الاستئصال (٣) الفيئه الرجعه

ولست اعدم فيما أُظاهره من اعذار ، وارادفه من انذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فان شاء الله رشدك ، و ياخذ بك الى حظك و سددك

ثم نقل الثعالبى فصلا آخر من الكتاب وجمع بعضه منها جاء فيها « تأمل حالك ، وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسدك ، وانظر هل تحس ، واجسس عرقك هل ينبض ، وفتش ما حنا عليك هل تجد فى عرضها قلبك ، وهل حلى بصدرك ان تظفر بفوت سريح[1] ، او موت مريح ثم قس غائب امرك شاهده ، وآخر شأنك باوله » قال الثعالبى بلغنى عن ابن بلكا ، وكان آدب امثاله ، انه كان يقول والله ما كانت لى حال عند قراءة هذا الفصل الا كما اشار اليه الاستاذ الرئيس ، ولقد نابت كتابته عن الكتائب فى عرك اديمى ، واستصلاحى وردى الى طاعة صاحبه

وقال الثعالبى فى المضاف والمنسوب وقرأت فى رسالة لابن العميد الى ابن سمكة « حرب ، جعلت فداءك ، ما قبله ، واحسبنى فيما ادعيته ، فان لم افعل فدمى حلال لك ، فاقتنى سيف الفرزدق ، وكلى بخل وخردل » وسيف الفرزدق يضرب مثلاً للسيف الكليل بعد الجبان

وقال صاحب اليتيمة ايضاً واقرانى ابو الحسين محمد بن الحسين الفارسى النحوى ، وقد اجتمعنا باسفرا بن بعد رجعتها الى ابى الفضل بن على ، فصلاً من كتاب لابن العميد الى عضد الدولة كتب من رب عليه وانا عنه غافل ، فسمى على سروه فى جدته ، وحركنى منى ساكناً معجباً بحسنه ، مفصحاً بنفاسة معدنه و براعة لفظه ، وهو وقد بعد اهل المحصل فى اسباب اعراض العلوم وانتقاص مددها ، وانتقاص بزرها[2] ، والاحوال الداعية الى ارتفاع حل

(١) سهل (٢) البر در الخلق وسده ح مر واحد او

الموحود مهـا ، وعدم الرياده فيها الطوفان بالبار والماء ، والموبان العارص من عموم الوباء ، وسلط المحالفين فى المداهب والآرا ، فان كل دالك يحترم العلوم احتراماً ، ويدهكها انتهاكا ، ويحب[1] اصولها احتثاثاً ، ولىس — عمدى — الحطب فى حمع دالك بمارب ما يولده تسلط ملك حاهل بطول مدته ، ويتسع ودرته ، فان الىلا به لا يعدله بلاء ، ويحسب عطم المحنه عن هده صه ه ، والا لمرى عن هده صرر يه ، يعطم النعمه فى تملك سلطان عالم عادل ، كالامير الحليل الدى احله الله من الفصائل عا ى طرفيها ، ومحمع فروفها ، وهى توارٍ تواتر[2] ممن لاوف حى تصير اليه ، وسرد توارع حمب حلب حى بمع عليه ، تىلعب الىـه بالاُف الوامق ، وتتسوف نحوه تسوف الصب العاسق ، فد ملـكتها وحسه الصباع ، وحيره المرباع

فان تعس قوماً بعـده او ترورهم فـكالوحس يدنيها ىن الآىس المحل

ولاىن العميد حكم وامبال استحرحها العارفون من رسائله ، ومنها الرتب لا يبلغ الا بىدرح وتدرب ، ولا يدرك الا بتحسم كُلفه وتَعَب راس المال حير من الربح ، والاصل اولى بالعنايه من الفرع المر اسه ى برمانه ، وصفه كل رمان مىتسحه من سحايا سلطانه فد يبدل المرء ماله فى اصلاح اعدائه ، فكيف يدهل الا افل عن حفط اوليائه هل السيد الا ىن مهابه ادا حصر ، ونعمابه ادا ادبر الاىفاء على حدم السلطان عِدل[3] الا ىفاء على ماله ، والاسعاف على حاسديه وحسمه ، ل الاسعاف على دىناره ودرهمه المرح والهرل بابان ادا فتحا لم يغلقا الا بعـد العسر ، والحلان ادا أُلقحا لم يد حا عير

(١) الحب القطع (٢) برا وب
(٣) العدل بكسر العين واسكان الدال المثل

السر من اسرّ دا ه ، وكم طماه ، بعد عليه أن تُبل من علاه ، وىل ر علله حىر العول ما أعباك حده ، والهالك هرله

وقال ىسعى للملك اں ىسطهر على اعدائه ىسمعه أحماس من الماس ، فيىحد الاحرار عُدَد ملكه ، والاعراب أُمما حسه ، والدىلم اركان حمده ، والحُل(١) حمرات عسكره ، والاىراك حواص اصحابه ، والهىد حراس فلاعه ، والا كراد علفاً(٢) لسيوف أعدائه

ومن كلامه قد ىسمح الايام بما يمنع ، وىساهل ثم ىقطع ، وىبدل الع طه بالرىه ، رالحه بالمحه ، رلها عراب ىىدر ، وعملاب ىُبهر الملوب اوعه سرحها الرفق ، وىسطها اللطف ، و ىفسحها التمرىن ، و ادا ىحور بها هده الخلال الى الاسىكراه والاملال ، حرحت عن احتواء علم ، وصافت عن ضط فهم ، وفاصت بما ىسودع وىدم من حيرك ما لا ىىفعك باحيره ، واحصد السر قىل اسىفحاله ، وقدم المىل ما دام العص عصاً ىقبل التقوىم ، ورطماً ىطبع الىىه ىف ، ولا ىىطرىه الىُسُوّ(٣) والامىاع ، وداوِ فمعاً ىبهره الايام حرفاً ان ىركبه ، وارابىساً(٤) ىرىده الدهرُ رهناً ان اعمله

ولان الىىد س ر و ه كىىر من سعوره وىدا ل على ىلو كعبه فى الادب ، وقد دكر الثعالبى فى كىابه حاص الخاص ان من اطرف سعره قوله فى علام قام على راسه ىطلله من السمس

قامب ىطللى من السمس ىفسٌ اعر علىّ من ىفسى

قامب ىطللى و ىں عحب سمس ىطللى من السمس

---

(١) الحىل كىىكر كدىن ما وراء النهر

(٢) علس اعلف واسع وسىت احلف ىن اعىف وقوس ىفعه فى ىعا ف

(٣) العسو العلط والىىس   (٤) أصلح اصدع

وقوله فى مداد اهداه له صديق

يا سيدى وعمادى امددنى بمدادِ
كمسكِكَ جميعاً من ناظرى وفؤادى
او كالليالى اللواتى رميننا بالبِعَادِ

ومن قوله

متى علقت نفسى حسناً تعلقت به عين الانام تسلُبُه

وقال

وسائلك العينى فلم ترى لها أهلاً وحسب بمدره سوها
وردت مموّهه فلم ترفع لها طرف ولم ترزق من الاصغا
واعار مُعطيها الندم سكته وتراجعت عينى على اسنحنا
لم تسف من كمد ولم تبرد على كبد ولم تمسح جوانب دا
داوت حوى نحوىً ولدس تحارم ن تسكف النارَ بالحلفاء

وقال

فلو ان ما ابعث من حسنى قدى فى الناس لم تبع ن الاعما

وقوله فى الاقارب

آح الرجال من الاباعد والاقارب لا تقارب
ان الاقارب كالعقارب بل أضر ن العقارب

ولابى الفضل على روايه ابن النديم من الكتب كتاب ديوان رسائله ، وكتاب المذهب فى الملاعبات ، وذكره ابن صاحب النعمان فى الشعراء الكتاب وقال ان له خمسين ورقه

المستدركات

الاستدراك الأول

ص ١٥

معى « فاطىعرىاس » المقولات او القياس على ما فى الفهرست لابن الندىم ، ومعى « بارى ارماىاس » العباره و « ا الوطيقا » تحليل القياس ولهم مصطلحات احرى كان العرب ىستعملها بلفظها اليونانى مثل « أنودقطيقا » وهو « اىالوطيقا » الثانى ومعناه البرهان و « طوىىقا » و ىاه الجدل ر « سوفسطىقا » معناه المغالطه اوالحكمه المموهه و « ر نطور ىقا » معناه الخطابه و « ا بوطيقا » و يقال « بوطيقا » معناه السعر ، والثالوجيا معناه الربوبية

الاستدراك الثانى

ص ١٦

مما يدل على ان ابن المقفع كتب كليله ودمنه مباشره ، ولم ينقله عن الفهلوية بل او س بعض الحكايات والسنها بوباً عرىياً ، وزاد فيها ونقص حتى ما يكاد يعرف — انك ترا حكماً فى كليله ودمنه أوردها بلفظها او بمعناها فى بعض رسائله و يستدل ايضاً على صحه ذلك ان فى كتابه عبرات من الفاظ اسلا ه ، ومصطلحات اسلاميه ، ومبارع اسلاميه ، مثل قوله بالقضا والقدر واحا به على الاقدار فى مواضع كثيره وقد يضمن م ى الآيه او الحديث ار الحكمه أو البيت من السعر فى كلامه ، وقد ياخذها ر مها

يقول صاحب الفهرست إن لكتاب كليلة ودمنة جوامع واختراعات عملها جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هارون وسلم صاحب بيت الحكمة والمزيد الأسود الذى استدعاه المتوكل فى أيامه من فارس ولعله يقصد بقوله جوامع واختراعات أنهم اختصروه

الاستدراك الثالث

ص ١١٧

عزا ياقوت فى معجم الادبا وابن عساكر فى تاريخ دمشق الحكم التى وردت فى الدرة اليتيمة فى باب الصديق لخالد بن صفوان وهى بهذا النص فى الترجمتين « ابذل لصديقك مالك ، ولمعرفتك بسرك ومحضرك ، وللعامة بشرك وحسن محضرك ، ولعدوك عدلك ، واضنن بدينك وعرضك عن كل احد » وخالد بن صفوان متقدم على ابن المقفع وذكر هذه الحكم ابن حبان البستى فى كتابه « روضة العقلاء » واوردها كأنها من كلامه ، والمأمول أن يتجه همة بعض الباحثين فيردوا مثل هذه الحكم الى قائلها الاول

الاستدراك الرابع

ص ١٣١

كتب ابن المقفع الى بعض اخوانه « اما بعد فتعلم العلم ممن هو اعلم به منك ، وعلمه من أنت أعلم به منه ، فانك اذا فعلت ذلك علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت

وقال لا تحدث من تخاف تكذيبه ، ولا تسأل من تخاف منعه ، ولا تعِد

ما لا يريد اختياره ، ولا يمضى ما لا يثق بالقدرة عليه ، ولا يرخ ما يعف برحائه ، ولا يقدم على ما يخاف العجز عنه

وقال لبعض اخوانه اذا صاحبت ملكاً فاعلم انهم يتسوبلك الى قلة الوفاء فلا يسعرن قلبك استبطاء ، فانه لم يسعر احد قلبه (سيئاً) إلا ظهر على لسانه ان كان سحيماً ، وعلى وجهه ان كان حليماً

الاستدراك الخامس

ص ١٤٣

من اروع الكلام ما جم به ابن المقفع « الدرة اليتيمة » فى وصف الرجل الكامل فى قوله « انى مخبرك عن صاحب كان اعظم الناس فى عينى »

وفى روايه « مصباح الافكار » زيادة على روايتنا جاءت بعد « ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يسار عند نعمة ، ولا يسكن عند مصيبة وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يقدم الا على ثقة بمنفعة الخ » وزيادة فى آخر الجملة « ولا يخص نفسه دون اخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته » وروايتنا « بشىء من اهتمامه بحيلته وقوته » والرواية الاولى اصرح

وقد أورد الرضى فى نهج البلاغة هذا الوصف ، ونسبه لى امير المؤمنين على ابن ابى طالب بتحريف وزيادة ، والزيادة قوله « وكان يفعل ما يقول ولا يقول ما لا يفعل ، وكان ان غلب على الكلام لم يغلب على السكوت ، وكان على ما يسمع احرص منه على ان يتكلم ، وكان اذا بدهه امران نظر ايهما اقرب الى الهوى فخالفه » وهذه المعانى ، وردت فى كلام آخر من كلام ابن المقفع

واورد ابن قتيبة فى « عيون الاخبار » وصف حق الكامل ناقصاً من كلام

ابن المقفع ، ونسبه للحسن بن على مع تحريف ، ولكن بألفاظ ابن المقفع ، وأضاف الى قوله « وكان اذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت وكان إذا عرض له امران لا يدرى ايهما اقرب الى الحق نظر اقربهما من هواه فخالفه » وهذه الجملة وردت في اليتيمة بحسب روايتنا هكذا « اذا بدهك أمران لا تدري ايهما أصوب فانظر ايهما اقرب الى هواك فخالفه ، فان اكثر الصواب في خلاف الهوى »

ونرجح ان عزو هذا الكلام الى على بن ابى طالب او الى الحسن بن على هو من فعل بن اضافوا على كلام امير المومنين ما ليس منه سامحهم الله فان نص عبارة ابن المقفع معلنة عن نفسها بانه عرف رجلاً هذه صفاته الحسنة فوصفه ، ولا يعقل ان ياخذ كلاماً لغيره و يستحل نسبته اليه خصوصا اذا كان بن الكلام المأثور المعروف صاحبه ، ثم ان اليتيمة اشتهرت قبل ان يولد نهج البلاغة بنحو قرنين ونصف و يؤيد قولنا هذا ظهور الصنع مائلاً للعيان ، ومن الصنع ادماج سحبان فى هـذه الجملة الجميلة حاشا امير المومنين ان يسف فى كلامه الى مثلها وهو من كبار الفصحاء بعد صاحب الرسالة عليه السلام

لا جرم ان نهج البلاغة زيدت فيه زيادات كثيرة بعد عهد الرضى ايضاً ، وهو الذي قال انه جمعه من كلام على ، والحال ان أكثره من كلام فصحاء الشيعة وغيرهم بدليل الاختلاف الكبير فى نسخه ، وقد اعترف ابن ابى الحديد شارح نهج البلاغة بان ماعزى الى امير المؤمنين هو من كلام غيره بن الحكماء ، لكنه « كالنظير لكلامه والمضارع لحكمته ! » قال « وان الغرض بالكتاب الادب والحكمة ، فاذا وجد ما يناسب كلامه ذكره على قاعدته فى ذكر النظير ! » وان الرضى قال « ان روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً »

إذا عرفنا هذا ساغ لنا ان نقول ان صفه الرجل الكامل الذى عرفه ابن المقفع قد استحسنها بعض المتاخرين فادمجوها فى الكتاب الذى كسروه على كلام الخليفه الرابع ، وقد وقعت لصاحب النهج بعض حكم جوز ضمها الى كلام امير المومنين ، وهى اشبه بان تكون لغيره ، ومن ذلك ما نسبه لعلى وهو لابن المقفع « للمومن ثلاث ساعات فساعه يناجى فيها ربه ، وساعه يرم فيها معاشه ، وساعه يخلى بين نفسه و بين لذتها مما يحل و يجمل ، وليس للعاقل ان يكون شاخصاً الا فى ثلاث مرمه لمعاش ، او خطوه فى معاد ، او لذه فى غير محرم » فان هذه الحكمه وردت فى الادب الصغير لابن المقفع (ص ١١٩ من امرا البيان) وعلى صوره اجمع واسع

الاستدراك السادس

ص ٢٣٩

كتب احمد بن يوسف لولا حسن الظن بك ، اعزك الله ، لكان فى اغضائك عن ما به غنى عن الطلبه اليك ، ولكن أمسك بى من الرجا علمى براءك فى رعايه الحق ، و بسط يدك الى الذى لو قصصنا عنه ، لم تكن له الا كرمك مذكراً ، سوددك شافعاً

وكتب الكريم اوسع ما يكون مغفرته ، اذا ضاقت بالمذنب معذرته

الاستدراك السابع

ص ٢٦٨

كتب ابراهيم بن العباس المودة مجمعا محبها ، والصناعة بولغها ابنه امها ، وما بين ذلك من تراح في لقاء ، أو تخلف في مكاتبة ، موضوع بيننا يوجب العذر فيه

الاستدراك الثامن

ص ٢٨٣

لما وثب ابراهيم بن المهدى على الخلافة ، اقترض من مياسير التجار مالاً فاخذ من عبد الملك الزيات أبى محمد بن عبد الملك عشرة آلاف دينار ، وقال اردها اذا جاءني مال ، ولم يتم امره واستخفى ثم ظهر ، فطولب بالاموال فقال انما اخذتها للمسلمين ، واردت ان اقضيها من اموالهم ، والامر الى غيرى ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة يخاطب بها المأمون ، و بعث الى ابراهيم بن المهدى فاقرأه اياها وقال والله لئن لم تعطنى المال الذى اقترضته من ابى لاوصلن هذه القصيدة للمأمون فهاب ابراهيم ان يقرأ المأمون مثلها وقال خذ منى بعض المال ونجم بعضه ففعل ، واحلفه ان لا يظهر القصيدة فى حياة المأمون ، ووفى له باقى المال ولذلك كان ابراهيم بن المهدى يشنأ محمد بن عبد الملك ، فلما ولى وزارة المعتصم قال ابراهيم

يا بؤس يوم كاسف ان لم تُغَيّر فى غده

لامة وزيرها عاصر زيت بيده

يظهر نصحاً وجهه وغشه فى كبده

الاستدراك التاسع

ص ٣٦

ىعل اس أبى الحديد اىفق سوحا (اى المعىرله) كافه رحمهم الله ءالمتقدمون مىهم والمتاحرون ، والبصر ىون والىعداديون ، على ان ىىعه ابى ىكر الصديق ىىعه صحىحه شرعىه ، وانها لم ىكن عن ىص ، و اىما كانت ىالاحىىار الدى ىىت ىالاحماع و ىعىر الاحماع كونه طر ىقاً الى الامامه ، واحىلفوا فى الىفص ل فقال قدما البصر ىىن كأبى عىمان عمرو ىن عىىد ، وابى اسحق ابراهىم ىن سيار النظام وأبى عىمان عمرو ىن ىحر الجاحظ ، رابى معن ىمامه ىن ا ىرس ، وابى محمد هسام ابن عمر الفوطى ، وابى ىعقوب يوسىف ىن عىد الله السحام ، وحماعه عىرهم ان ابا ىكر افضل من على علىه السلام وهؤلاء ىحعلون ىرىىب الار ىعه فى الفضل كىرىىبهم فى الحلافه

الاستدراك العاشر

ص ٤٧٨

قال الجاحظ ان العرب ىمدح السى وىد ه لىكنهم لا ىمدحون ال ى من الوجه الدى ىدمونه ىه من حىس قصاحىهم

قال المامون ما هجى ابراهىم ىن المهدى ، فىما ادعاه ، على كثره هجائه ىاىىد من قول الجاحظ فىه « هو حلىفه اذا خطب راى آخر عمله » اى ان ماىىكىه من الصعر ىحىث لا ىحاور رفعها مدى صوت الخطىب و طره

اتى ابو العىىا الجاحظ ساله فى رجل ان ىكىب له كتاب عىايه الى صاحب البصره ، فقال نعم ، لا ىىصرف الا ىه ، وكىب له الجاحظ الىكىاب ووجهه

ودفعه اليه ، وأتى الى أبى العيناء بالكتاب فقال أقصصه واقرأه عَلى لارى ما كتب وأعنده اليه لمحسمه ، ففتحه واذا فيه « كتابى اليك سائلى فيه ن أحاوه لمن لا اعرفه ، فافعل فى امره ما تراه والسلام » فغضب ونهض الى الجاحظ ، فقال أعرفك باعسابى بهذا الرجل وكتبت له مثل هذا فقال لا تنكر ذلك فإنها امارة بنى وبينه ، اذا عنيت برجل فقال بل اسب ولد ربما لم تكن قط لرسده قال اسسمى قال لانها امارة لى عند السناء على انسان

قال الجاحظ فى الخصى عشرة احوال متضاده ، لم يخرج من طهره مؤمن ، ولا خرج من طهر مؤمن ، وهو اكثر الناس عبره ، واشدهم فساده ، وهو اضعف الناس معده ، وأسرعهم على طعام ، وهو اسوأ الناس ادباً ، وهو يعلم الادب ، وهو اعزر الناس دمعه ، وأقساهم قلباً ، وما خلا قط مع امرأة الا حدثته نفسه أنه رجل ، ولا خلا مع رجل الا حدثته نفسه انه امرأة

فهرس الجزء الثانى

	صفحة
عمرو بن بحر الجاحظ	٣١١
عصره	٣١١
نشأته وتعلمه	٣١٥
مذهبه وأخلاقه	٣٢٢
أدبه	٣٢٥
بلاغته	٣٤
جدله ونقده	٣٥٣
فنه	٣٧٤
علمه وبحثه	٣٩
كتبه ورسائله	٤١٩
سياسته ودهاؤه	٤٤٣
تهكمه ونوادره	٤٥٣
نماذج من رقاعه وكتاباته	٤٦٨
خلوده ومجده	٤٧٨
أبو حيان التوحيدى	٤٨٨
عصره	٤٨٨
نشأته وأعماله	٤٩٢
شارمه وتعلمه	٤٩٩
نموذجات من كتبه	٥ ٦
فذلكة فى حياة التوحيدى	٥٤
ابن العميد	٥٤٦
عصره	٥٤٦
أوليته وسيرته	٥٤٩
أدبه وعلمه	٥٥٦
نموذجات من كتابته	٥٦
المستدركات	٥٧١